

حرب الطائرات بدون طيّار

القتل بالتحكّم عن بُعد

تأليف
ميديا بنجامن

ترجمة
أيهـم الصبّاغ

حرب الطائرات بدون طيّار.. القتل بالتحكّم عن بُعد

تبين ميديا بنجامن في هذا الكتاب المقنع بصورة لافتة، والذي استوفى حقه من البحث، أن الطائرة بدون طيّار (درون) هي السلاح الأحدث في ترسانة الأسلحة عالية التقنية والمُتحكّم بها عن بُعد. وعلى الرغم من أنها لاتختلف عن الطائرات المقاتلة العادية في قدرتها التدميرية وبربريتها وترويعها المدنيين، فإنها بطبيعتها أكثر ملاءمة للمهام القذرة والخطرة. لذلك، تعوّل الولايات المتحدة عليها في تنفيذ برامج الاغتيالات والقتل المستهدف، ضمن ما تسميه "الحرب على الإرهاب"، منتهكة في معظم الأحيان القانونين الدولي والأمريكي معًا.

وكما توثّق بنجامن، فإن وكالة المخابرات المركزية الأميركية (سي. آي. ايه.) هي المسؤولة، لا البنتاغون، عن شنّ معظم ضربات الطائرات بدون طيّار، من دون أي محاسبة أو دليل أو محاكمة تدين المستهدف بالموت، بل تمامًا حسب أهواء البيت الأبيض، وبحصانة كاملة من المسؤولية عن قتل المدنيين الموجودين في ساحة الإعدام، والذين كثيرًا ما يتحوّلون إلى مجرّد "أضرار جانبيّة"- سواء في أفغانستان أو باكستان أو اليمن أو الصومال أو فلسطين أو العراق أو مؤخرًا سورية.

كذلك تتقصّى بنجامن في هذا الكتاب بدقّة تاريخ الطائرات بدون طيّار، وأنواعها، وتخصّصاتها، وتكلفتها، ودرجات تسليحها، ودور المؤسسة العسكرية الإسرائيلية (خصوصًا مهندس الطيران الإسرائيلي أبراهام كاريم) والأميركية في تطويرها.

ولأنّ الطائرات بدون طيّار أكثر ملاءمة لمهام المراقبة والتجسّس (إذ تستطيع متابعة شخص من ارتفاع ٦٠ ألف قدم أحيانًا، وتصويره بالأشعة تحت الحمراء وفوق البنفسجية)، تتوقّع بنجامن رواج استخدامها داخليًا في التجسّس على الناشطين والمواطنين الأميركيين العاديين.

منتدى العلاقات العربية والدولية

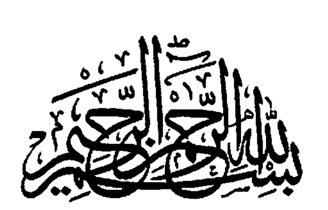
السعر: 9 دولارات



هاتف: 44080451 974+ فاكس: 44080470 974+ صندوق بريد: 12231
الموقع الإلكتروني: fairforum.org البريد الإلكتروني: info@fairforum.org
العنوان: مبنى رقم 28، المؤسسة العامة للحي الثقافي (كتارا)، الدوحة، قطر

حرب الطائرات بدون طيّار

القتل بالتحكّم عن بُعد


بسم الله الرحمن الرحيم

حرب الطائرات بدون طيّار

القتل بالتحكّم عن بُعد

ميديا بنجامن

مع تمهيد بقلم باربرا إرينرايك

ترجمة : أيهم الصباغ



عنوان الكتاب بالإنكليزية:

DRONE WARFARE: KILLING BY REMOTE CONTROL

Published by arrangement with O/R Book LLC, New York.

عنوان الكتاب: حرب الطائرات بدون طيار: القتل بالتحكم عن بعد.
المؤلف: ميديا بنجامن.
٢٥٦ صفحة - ٥,١٤ - ٥,٢١ سم.
رقم الإيداع بدار الكتب القطرية: ٧٥/ ٢٠١٤.
الرقم الدولي (ردمك):
.ISBN 978-9927-103-14-8 paperback
.ISBN 9978-1-935928-82 e-book

الطبعة الأولى ٢٠١٤.

المحتويات

تمهيد

تطرح الطائرات بدون طيار، بطرق عدة، الإشكالات الأخلاقية ذاتها لأي سلاح آخر يتم التحكم به عن بعد: تمكين المحاربين من القتل بأقل قدر من المخاطرة بأنفسهم، وبالتالي، التقليل من التكلفة البشرية للعدوان. لهذا احتقر القدماء رماة الأسهم، كما ذُكِر في *الإلياذة*، حيث سخر القادة الإغريق من الأمير الطروادي باريس لاتكاله على القوس والسهم. الرجال الحقيقيون لا يخشون القتال وجهًا لوجه، ووحدهم الجبناء يهاجمون عن بعد، مختبئين في معظم الأحيان خلف أشجار أو صخور اتقاء المواجهة المباشرة.

تعد الطائرات بدون طيار -بالطبع- السلاح الأكثر تقدمًا بين الأسلحة التي يتم التحكم بها عن بعد، والتي تمكن المعتدي من تدمير أهداف في باكستان أو أفغانستان بينما «يختبئ» هو على بعد آلاف الأميال في نيفادا. لكن هذا وحده لا يجعلها فريدة في شرها وأذاها؛ إذ يمكن إطلاق الصواريخ والقصف الجوي أيضا من مسافات بعيدة، وعلى يد أفراد لا يضطرون لرؤية ما يسببونه من دمار. بمعنى آخر، لو أردنا إنهاء الحروب فيتعين علينا أن نستهدف جميع الأسلحة -البنادق والمدافع والقنابل والطائرات المقاتلة- التي تجعلها ممكنة أو حتى جذابة، بالإضافة إلى الصناعات التي توفرها.

لكــن ميديــا بنجامن، فــي هذا الكتــاب المقنع بصورة لافتــة، والذي استــوفى حقــه من البحــث، تبيّن بوضــوح أن الطائــرات بدون طيّار ليســت مجــرد مثال آخر على أســلحة الجيــش العالية التقنية. إذ يصعــب في الواقع حتــى الادعاء بأنها تُســتخدم في المقام الأول «عســكريًا» بالمعنى التقليدي للكلمة. فالطائرات بدون طيّار تســمح بتنفيذ برنامج الاغتيالات المستهدفة الــذي تبرّره «حرب الولايــات المتحدة على الإرهــاب»، لكنها تخالف من ناحية أخــرى الأعراف العســكرية التقليدية والقانونيــن الدولي والأمريكي معاً. وكما توثّق بنجامن، فإن وكالة المخابرات المركزية الأميركية (الســي. آي. إيــه.) هي المســؤولة، لا البنتاغون، عن شــن معظــم ضربات الطائرات بدون طيّار في غرب آسيا، من دون أي محاسبة على الإطلاق. ويتم الحكم على المســتهدفين بالموت، ومن بينهم مواطنــون أمريكيون، من دون دليل أو محاكمة تدينهم، وعلى ما يبدو وفق أهواء البيت الأبيض تماماً. كما ينفذ مشغلو الطائرات بدون طيّار أحكام الإعدام وهم يتمتعون بحصانة كاملة من المسؤولية عن مقتل المدنيين، الذين ينتهي بهم المطاف كـ«أضرار جانبية».

واحــد من أكثــر الأمور إثارة للقلق في كتــاب بنجامن يتمحور حول التوســع الكبير لصناعة الطائرات بدون طيار في السنوات القليلة الماضية، حيث بات خمســون بلداً يمتلكونهــا الآن. ويلخّص *حرب الطائرات بدون طيّــار: القتــل بالتحكّــم عــن بعد* الاحتمــالات المخيفــة الناتجــة عن ذلك التوسّع الجنوني. إذ لا يجب أن نتوقع احتمال وقوع الطائرات بدون طيّار فــي أيدي دول «مارقــة» أو مجموعات إرهابية فحســب، بل يجدر أن نهيّئ أنفسنا أيضاً لاســتخدامها في عمليات المراقبة والتجسس داخل الولايات المتحدة، أو حتى تشــغيل النسخ المســلحة منها على الحدود المكسيكية، وربما ضد المحتجين المدنيين الأميركيين.

لو ألّـف هذا الكتاب أي شـخص آخـر، لكان ربما ثبّـط الهمم وأثار الكآبة إلى أبعد الحدود. لكن ميديا بنجامن، لحسـن الحظ، ليسـت مجرد كاتبـة ومراسـلة صحافيـة مبدعة، بل أيضا واحدة من أبرز ناشـطي السـلام ومناهضي الحرب في العالم. في نهاية كتابها تتحدث بإسهاب عن الحركة العالمية المعادية لاستخدام الطائرات بدون طيّار، والتي لعبت ميديا نفسها دوراً رئيسـاً فيها. سـيلهمكم الكتاب وسـتعرفون، عند الانتهاء من قراءته، ما ينبغي عليكم فعله تحديدًا للمشاركة والإسهام في جهود السلام.

باربرا إرينرايك

الإسكندرية، ولاية فيرجينيا، كانون الثاني/ يناير ٢٠١٢

مقدمة

التقيتُ رويا في اليوم الأول من رحلتي، بينما كنت أزور الحدود الباكستانية الأفغانية، على طريق ترابي في بيشاور. لم يكن قد مر سوى أسابيع على الغزو الأمريكي لأفغانستان في العام ٢٠٠٢، وقد أتيت إلى المنطقة كممثلة لمجموعة حقوق الإنسان التي شاركت بتشكيلها، وتدعى «غلوبل إكستشاينج». اقتربت فتاة صغيرة مني، وقد أمالت برأسها، ومدت يدها، طلباً للمال.

علمت قصتها بمساعدة مترجم. كانت رويا في الثالثة عشرة من العمر، كابنتي الصغرى، ولكن ما كان شيء بأكثر اختلافاً من حياتها عن حياة ابنتي التي تدرس في الثانوية، في سان فرانسيسكو، وصديقاتها. لم تحظ رويا بالوقت على الإطلاق لممارسة الرياضة، أو الذهاب إلى المدرسة. كانت قد ولدت لعائلة فقيرة تعيش في ضواحي كابول، وكان والدها يعمل بائعاً في الشارع، بينما انهمكت أمها في تربية خمسة أطفال، وكانت تخبز الحلوى لبيبعها.

توجهت رويا وشقيقتاها، في أحد الأيام، بينما كان والدهنّ في الخارج يبيع الحلوى، توجهن بخطوات متثاقلة إلى البيت، وهن يحملن دلاءً من الماء. سمعت الفتيات، بصورة مفاجئة، صوت طنين مخيفاً،

ليعقبه حدوث انفجار: ألقت السماء بحمولة رهيبة، لتدمر منزلهنّ، وتتطاير أشلاء أمهنّ وشقيقهنّ.

لا ريب أن الأمريكيين ظنوا أن منزل رويا كان جزءاً من مقر مجاور لطالبـان، لتنـدرج المذبحة بحق عائلتها -وفق وصـف الجيش الخالي من المشاعر- ضمن «الأضرار الجانبية» لحرب أمريكا على الإرهاب.

عمـد والـد رويا، حين عاد إلـى المنزل، إلى لملمة مـا أمكنه العثور عليه من أشلاء عائلته الذبيحة، ليقوم بدفنها مباشرة وفقاً للتقاليد الإسلامية، ويدخل في حالة شديدة من الصدمة.

أضحت رويا المسؤولة عمن تبقى من أفراد عائلتها، ورحلت معهم، بلا مال أو مؤن، عبر جبال الهندكوش، وممر خيبر، إلى باكستان.

اعتاشت العائلة بالكاد، ما إن وصلت إلى بيشاور، على الدولار الذي كان الفتيـات يجنينه من التسـول طيلـة اليوم. اصطحبتني رويـا إلى كوخهم المبنـي من الطيـن، المؤلف من غرفة واحدة، للقاء والدهـا، الطويل القامة، القوي البنية، الذي يشـير مظهر يديه الخشنتين إلى أنه كان يكدح في العمل، ولكنه لم يعد يعمل مع ذلك. لا يتكلم الرجل أو يبرح مكانه حتى، بل يجلس ويحدق في الفراغ. همست رويا قائلة: إنه «يبتسم من وقت لآخر».

اطلعت، في أفغانستان، على ما هو أكثر من المآسي التي تسببت بها القنابـل الأمريكية. يصيب بعضها الأهداف المطلوبة، ولكنه يحدث ضرراً جانبياً هائلاً، بينما يخطئ البعض الآخر بسـبب التقصير البشري، الأعطال الميكانيكية، أو المعلومات المغلوطة. ظن الأمريكيون أن عرساً في إحدى القرى كان تجمعاً لطالبان، لتصيب صواريخهم ثلاثة وأربعين من الأقارب الذين كانوا يحتفلون بسعادة، وتتدلى أشلاؤهم من الأشجار، بالنتيجة، في غضون لحظات.

قُتِل أربعون قروياً في بلدة صغيرة أخرى، في منتصف الليل. ما كانت جريمتهم؟ أنهم كانوا يعيشون بالقرب من كهوف تورا بورا، حيث كان يُعتقَد أن أسامة بن لادن يختبئ. أشارت وسائل الإعلام الأمريكية إلى أن القتلى كانوا مسلحين من طالبان. ولكن المرأة التي التقيتها -التي فقدت للتو زوجها وأطفالها الأربعة، بالإضافة إلى ساقيها- لم تسمع على الإطلاق بالقاعدة، أمريكا، أو جورج بوش. كانت إصابتها بليغة، وقد كانت تتمنى الموت، حيث لم يعد بإمكانها أن تحتمل العيش بعدما غدت أرملة مقعدة، بلا دخل أو عائلة.

ووفقاً «لمشروع البدائل الدفاعية»، بما يجهله معظم الأمريكيين، فإن أكثر من ١٠٠٠ مدني أفغاني قتلوا بصورة مباشرة -في غضون ثلاثة أشهر لا أكثر، بين ٧ تشرين الأول/ أكتوبر ٢٠٠١، و١ كانون الثاني/ يناير ٢٠٠٢- جراء حملة القصف التي تقودها الولايات المتحدة، و٣٢٠٠ أفغاني آخرين، على الأقل، قد فارقوا الحياة بسبب «الجوع، البرد، المرض، أو الإصابة بينما كانوا ينزحون من مناطق القتال»[1]. يفوق عدد أولئك من قتلوا في هجمات ١١/ ٩.

توافرت الخيارات للرئيس بوش عقب تلك الهجمات المروّعة. كان بإمكانه التعامل معها كجريمة ضد الإنسانية، التي تتطلب عملاً شرطياً دولياً منسقاً للقبض على المنفذين، وسوقهم للعدالة. ولكنه اختار، عوضاً عن ذلك، القيام بغزو بري بقوات مدججة بالسلاح، وشن هجمات جوية بآلاف القنابل والصواريخ التي تهتز لهديرها السماء.

طمأنت الحكومة الأمريكية مواطنيها عبر التأكيد على أنها تستهدف الإرهابيين فحسب بهجماتها الجوية. بات الجيش الأمريكي الآن يملك قنابل ذكية وصواريخ موجهة بالليزر تمكنه -إلى جانب نوع جديد من الطائرات غير المأهولة يدعى الطائرات بدون طيار- من إلقاء ذخائره بدقة

منقطعة النظير. شدد المسؤولون الحكوميون على أن مقاتلي القاعدة الذين هاجموا الولايات المتحدة، أو الذين يخططون لهجمات مستقبلية ضدها، شددوا على أنهم سينالون ما يستحقونه، بينما يتم الحرص على تجنّب وقوع خسائر في صفوف المدنيين.

قطعت عهداً على نفسي، حين أدركت كذب تلك الادعاءات، أن أسعى إلى دفع الحكومة الأمريكية إلى تعويض أولئك الضحايا الأبرياء عما تتسبب به هجماتنا، وألا أسمح على الإطلاق بأن تنطلي عليّ الخديعة المتمثلة في أن الحروب العالية التقنية تتسم، بطريقة أو بأخرى، بقدر أكبر من الإنسانية.

تم اجتياح العراق، فيما بعد، في آذار/ مارس ٢٠٠٣، الحرب المستندة إلى أكاذيب حول تورط صدام حسين في هجمات ١١/ ٩، و«التهديد الوشيك» الذي يشكله للولايات المتحدة بسبب امتلاكه أسلحة دمار شامل. تباهى الجيش الأمريكي قائلاً إنه بالنقيض من حرب الخليج في العام ١٩٩١، حيث كانت نسبة ثلاث وتسعين بالمئة من الذخائر التي تم استخدامها قنابل «غبية»، فإن سبعين بالمئة من الذخائر التي استخدمها عقب ١٢ عاماً كانت قنابل «ذكية»، أو صواريخ دقيقة للغاية، موجهة بالليزر[٢]. تمثل ما قالوه لنا بأن نتوقع القدر الأقل من الأضرار الجانبية.

يتعيّن عليّ الإقرار بأنني شعرت بالدهشة -حين كنت أسير في شوارع بغداد بعد بضعة أشهر من الاجتياح- من التدمير الانتقائي لتلك الأسلحة. كنت أرى، في الكتلة السكنية تلو الأخرى، أبنية تحولت إلى أنقاض، بينما بقيت الأبنية المجاورة لها سليمة. امتلك الجيش القدرة، عبر الذخائر العالية التقنية، على استهداف المواقع الرئيسة بصورة محددة: الوزارات الحكومية، شبكة البلاد الكهربائية، معامل معالجة المياه، شبكة الصرف الصحي، منشآت تخزين الغذاء، محطات النقل، الجسور، ومراكز الاتصال. ولكن الاستهداف الدقيق، كما قال العراقيون لنا،

لم يقلل بالضرورة من الخسائر البشرية. ماذا عن العاملين في تلك الأبنية؟ الناس الذين كانوا يسيرون بجانبها بالصدفة؟ وماذا عن مئات الآلاف من العراقيين، الأطفال في الغالب، الذين ماتوا جراء ما نتج عن القصف من نقص في المياه النظيفة والرعاية الصحية؟ وقع كل ذلك التدمير الهائل في بلد لم يكن له علاقة بالقاعدة أو هجمات ١١/ ٩.

عملت، في الولايات المتحدة، مع مجموعة غلوبل إكستشاينج لإنشاء صندوق في الكونغرس لتعويض ضحايا هجماتنا الأبرياء. بذلت الناشطة في مجموعتنا مارلا روزيكا، التي تعد واحدة من أكثر الشابات اللواتي التقيتهن حماسة وتعاطفاً، بذلت جهوداً كبيرة في سبيل ذلك، لتشكل فيما بعد مجموعة تدعى «الحملة لأجل الضحايا الأبرياء في النزاعات» (سيفيك). قتلت مارلا، التي لم تتجاوز الثامنة والعشرين من العمر، بما يعد مأساويًا للغاية، في نيسان/ أبريل ٢٠٠٥، جراء انفجار قنبلة على جانب الطريق في العراق. منح الكونغرس، عبر صندوق تعويضات أنشأه باسمها، ما يزيد على ٤٠ مليون دولار لعائلات الضحايا الأبرياء.

وبالرغم من أنه كان من المهم أن نساعد من تسببت حكومتنا في إيذائهم عن طريق الخطأ، فقد شعرت أن من المهم بصورة أكبر أن نوقف الحرب. عمدت، بالاشتراك مع زميلتي جودي إيفانز، إلى تشكيل مجموعة للسلام بقيادة نسائية تدعى «كودبينك». كان من الضروري للغاية في نظرنا أن يتم اعتقال من هاجموا بلدنا في ١١/ ٩ وسَوْقِهم للعدالة، ولكننا لم نكن نرى أن هجمات ١١/ ٩ تبرر شنَّ الحرب. طالبنا حكومتنا بأن تبحث في الكيفية التي يؤدي بها وجودنا العسكري حول العالم -مع ما يزيد على ثمانمئة قاعدة فيما وراء البحار- إلى إثارة مشاعر العداء للأمريكيين (مثل ذلك أحد الأسباب التي أوردها أسامة بن لادن لهجمات ١١/ ٩)، وأكدنا أن الحكومة يمكن أن توفر الأموال الضرورية، وتجعل بلدنا أكثر

أمناً، عبر إغلاق تلك القواعد وحصر عمل الجيش في توفير الحماية في الداخل الأمريكي.

عملنا، علاوة على ذلك، على تنظيم تجمعات ضخمة، المشاركة في العصيان المدني، السفر إلى مناطق الحرب للاطلاع على الأوضاع بصورة مباشرة، وأضربنا لمدد طويلة عن الطعام مطالبين بسحب قواتنا من العراق وأفغانستان، وأن تتم الاستفادة من الطاقة الخلاقة للمجتمع الدولي في إحلال السلام، مع منح نساء من الدول المعنية دوراً بارزاً في ذلك، كما طالبنا بأن تتم إعادة النظر في سياسة أمريكية خاطئة أخرى، المتمثلة في الانحياز والدعم المطلق لحكومة إسرائيل؛ الموقف الذي يشكل انتهاكاً للحقوق الإنسانية للفلسطينيين، ويثير مشاعر العداء لأمريكا التي تشجع الهجمات الإرهابية.

بات من الواضح لنا، بالرغم من كل ما بذلناه من جهود، أن إدارة بوش لن تتزحزح عن موقفها. عمد العديد من الناشطين المناهضين للحرب، بالتالي، أثناء الحملة الانتخابية الرئاسية في العام ٢٠٠٨، إلى دعم باراك أوباما في تلك الحملة، ليكتشفوا أن مرشح السلام قد أضحى رئيساً للحرب. وبالرغم من أن أوباما سحب قواتنا من العراق في كانون الأول/ ديسمبر ٢٠١١ (أرغم على ذلك فعلياً تنفيذاً لاتفاقية وقعت في عهد بوش)، فقد زاد من عدد القوات في أفغانستان.

اتبع الرئيس أوباما تكتيكاً آخر أيضاً يسهم في تغييب الحرب عن وعي الأمريكيين: حرب الطائرات بدون طيار. باتت الطائرات التي تقتل بالتحكّم عن بعد -التي تعرف بأسماء مبتكرة مثل المركبات الجوية غير المأهولة (يو أى في)، وأنظمة الطيران غير المأهولة (يو أى أس)، والطائرات المسيرة عن بعد (آر بي أى)- باتت تمثل الأنواع المفضلة من الأسلحة.

راقب أعضاء مجتمع السلام الأمريكي برعب انتشار تلك القناصات في سماء أفغانستان والعراق، ومنهما إلى باكستان، اليمن، الصومال، الفليبين،

وليبيا. وعوضاً عن أن يوقف الحرب بما تسببه من كوارث، فقد عمد الجيش ببساطة، في عهد الرئيس أوباما الحائز على جائزة نوبل للسلام، إلى تغيير تكتيكاته من نشر القوات على الأرض إلى نشر الطائرات القاتلة في السماء.

شن الرئيس أوباما، في الواقع، ضربته الأولى بالطائرات بدون طيار بعد ثلاثة أيام، لا أكثر، من توليه المنصب بصورة رسمية. تم توجيه الضربة في باكستان، في ٢٣ كانون الثاني/ يناير ٢٠٠٩. ولكن عوضاً عن استهداف مخبأ لطالبان، فقد أصابت الصواريخ منزل مالك غولستان خان، الزعيم القبلي وعضو لجنة السلام المحلية المؤيدة للحكومة، مما أدى إلى مقتله وأربعة من أفراد عائلته. تحدث ابنه عدنان، البالغ ثمانية عشر عاماً، قائلاً: «فقدت والدي، ثلاثة من أشقائي، وابن عمي في ذلك الهجوم». عقب عم عدنان قائلاً: «لم نفعل شيئاً، وليست لدينا أي صلة بالمقاتلين على الإطلاق. تؤيد عائلتنا الحكومة، وقد شاركت، في الواقع، في لجنة السلام المحلية». أكد المراسلون فيما بعد صحة أقوال العائلة[٣].

لربما تظنون أنه كان من الممكن أن تدفع تلك الحادثة المأساوية الرئيس أوباما لإعادة النظر في سياسته، ولكن ذلك لم يحدث. لم يقر أوباما بصورة علنية حتى، في الواقع، بأن الولايات المتحدة لديها برنامج سرّي للطائرات بدون طيار في باكستان إلا بعد مضي سنوات، أثناء «دردشة على الغوغل»، في ٣٠ كانون الثاني/ يناير ٢٠١٢. سعى أوباما، في رده على تعليق حول قتل ضربات الطائرات بدون طيار أناساً أبرياء، سعى إلى طمأنة الأمريكيين في ما يتعلق بسقوط ضحايا من المدنيين. تحدث إلى المستمعين قائلاً: «لم تسبب الطائرات بدون طيار خسائر كبيرة في صفوف المدنيين. كانت الضربات دقيقة، في معظم الأحيان، وقد وجهت إلى تنظيم القاعدة والمرتبطين به. من المهم أن تعلموا أن تلك الضربات تخضع لقيود صارمة للغاية». قل ذلك للآلاف من أفراد الأسر المفجوعة.

مضى مسؤول كبير في مكافحة الإرهاب لم يفصح عن اسمه، في حديث لصحيفة نيويورك تايمز، مضى أبعد من ذلك ليكمم أفواه المعارضين، ويلمح إلى أن من ينتقدون الطائرات بدون طيار لقتلها المدنيين يدعمون القاعدة. «لا يمكن للمرء إلا أن يتساءل -في ما يتعلق بالجهود التي تبذل بعناية لملاحقة الإرهابيين الذين يخططون لقتل المدنيين- عن السبب الذي يجعل تلك الجهود تحاط بالكثير من التضليل. لنكن واضحين في ذلك: يوجد عدد من العناصر التي ترغب بشدة في الإساءة لتلك الجهود، ومساعدة القاعدة على النجاح»[4].

ولكن بالنقيض من المسؤولين الأمريكيين، فإن العديد من الناس حول العالم لا يعتقدون أن الولايات المتحدة -أو أي دولة أخرى- تملك الحق في مهاجمة من تشاء، أينما تشاء. بدأ المستهدفون بصواريخ الطائرات بدون طيار ينتفضون احتجاجاً على ضرباتها، وكذا فعل أعضاء مجتمع السلام في الولايات المتحدة -بما يشمل مجموعات كمنظمتي «كودبينك»، «أصوات للاعنف الخلاق»، و«العمال الكاثوليك»- بالإضافة إلى ناشطين في أوروبا وأستراليا. انضم إليهم علماء، مختصون في علم الأخلاق، وغيرهم من المهنيين الذين تنبهوا إلى خطورة النزعة القوية إلى شن الحروب الآلية (الروبوتية)، والتوسع الكبير في استخدام أسلحتها، وبخاصة الطائرات بدون طيار الفتاكة.

يشكل أولئك جزءاً من حركة متنامية تطالب بحوار دولي حول توجهات الحرب العالية التقنية، ومدى أخلاقيتها وقانونيتها. يطالب أصحاب الضمائر، بصورة متزايدة، بوضع ضوابط دولية للحرب الآلية، كما فعل المجتمع الدولي لحظر الألغام الأرضية والقنابل العنقودية.

يهدف هذا الكتاب، الذي أهديه لرويا وضحايا حرب الطائرات بدون طيار الأبرياء كافة، إلى الدفع بتلك العملية قدماً.

علاقة حب قذرة
مع الطائرات القاتلة بدون طيّار

تحدث الرئيس بوش مازحاً، في عشاء مراسلي الإذاعة والتلفزيون في العام ٢٠٠٤، عن البحث عن أسلحة الدمار الشامل بين أثاث المكتب البيضاوي، استناداً إلى عدم العثور عليها على الإطلاق في العراق. ارتد المزاح عليه حين قال الوالدون الذين فقدوا أبناءهم المقاتلين في العراق إنهم وجدوا ذلك مهيناً ومفتقراً إلى الذوق. تحدث السيناتور جون كيري قائلاً: إن بوش قد أظهر موقفاً «متعجرفاً بما يثير الدهشة» من الحرب ومن يقاتلون فيها.

تحدث الرئيس أوباما مازحاً عن الأسلحة والحرب، بعد ست سنوات، بما يفتقر إلى الطرافة أيضاً، في عشاء مراسلي البيت الأبيض. قطّب أوباما حاجبيه، حين همّت فرقة البوب «جوناز برذرز» بالغناء في الغرفة المكتظة، ووجه إلى أعضائها تحذيراً بالابتعاد عن ابنتيه، قائلاً: «تعجب ساشا وماليا بكم كثيراً، ولكن احذروا أيها الفتية من أن تراودكم أي أفكار. لدي كلمتان لكم: طائرات «البريديتور»(*). لن تتوقعوا قدومها أبداً».

تفقد دعابة أوباما مغزاها حين تتم ترجمتها للناس في باكستان، حيث اعتادت الطائرات بدون طيار الأمريكية أن تلقي صواريخها من نوع

(*) المفترسة بالعربية. (المترجم)

«هيل فاير». لم يسبق للكثير من الباكستانيين، وفقاً للصحفي الباكستاني كوار ريزفي، أن سمعوا بفرقة «جوناز برذرز»، ولا يمكن لهم أن يدركوا مغزى الإشارة إلى ابنتي الرئيس، «ولكننا – يردف قائلا– نعلم أمراً واحداً بصورة فعلية: أنه لا يوجد ما هو طريف بشأن طائرات البريديتور»(٥).

لا يختلف ذلك، كما تبدو الحال عليه، عن رؤية فيصل شهزاد، الباكستاني المولد، البالغ من العمر ثلاثين عاماً، المقيم في بريدجبورت، كونيتيكت. عمد شهزاد – في ١ أيار/ مايو ٢٠١٠، بعد يوم واحد فقط من إطلاق الرئيس أوباما دعابته الاستفزازية حول الطائرات بدون طيار– إلى محاولة تفجير سيارة مفخخة في ساحة التايمز في مدينة نيويورك. كان المفجر المفترض قد ركن سيارته المحملة بالمتفجرات، من نوع نيسان باثفايندر، في وسط التقاطع الأكثر ازدحاماً في مدينة نيويورك، والوقت الذي يعج بالقدر الأكبر من الحركة، الساعة ٦:٣٠ مساء، في يوم السبت. لم تنفجر القنبلة، لحسن الحظ، وقامت السلطات –التي تلقت إخباريات من باعة للقمصان في المكان– بإبطال مفعولها قبل أن تنفجر وتتسبب في إيقاع أي من الخسائر.

تحدث شهزاد، حين سألته السلطات عن دوافعه، عن هجمات الطائرات بدون طيار الأمريكية في باكستان.

تحدث الكاتب جانثن شوارتز، بعد سماعه بما تسببت به القنبلة من إنذار ورعب للناس، قائلاً: «هل تعلمون ما الذي كان من الممكن أن يجسد الطرافة بالقدر الأكبر في دعابة باراك أوباما حول طائرات البريديتور في الليلة الماضية في عشاء مراسلي البيت الأبيض؟ لو أن السيارة المفخخة في ساحة التايمز قد انفجرت في تلك اللحظة تماماً، وقد تبين أن ذلك جاء رداً، في الواقع، على الهجمات بطائرات البريديتور، وقام زعيم طالبان الباكستانية – في الليلة الآتية، بينما لا تزال عمليات تنظيف شوارع نيويورك

من الدماء والأشلاء مستمرة- بإطلاق دعابة حول قتل الناس بالسيارات المفخخة في حفل عشاء فاخر في بيشاور، لتقصف الولايات المُتحدة فيما بعد المزيد من المدنيين الباكستانيين بالطائرات بدون طيار، وتبدأ دوامة الطرافة ثانية!»[٦].

❊ ❊ ❊

يقول البعض: إن اسم «الطائرات بدون طيار» يأتي من الأزيز الذي تسببه بعض الآلات بصورة متواصلة أثناء الطيران. يشتق الاسم، وفقاً لمعلومات مصادر عسكرية أخرى، من استخدام طائرات آلية كأهداف تدريبية لطواقم الأسلحة في الحرب العالمية الثانية[٧]. صنعت الولايات المتحدة ١٥٠٠٠ طائرة بدون طيار صغيرة للتدريب على التصدي للطائرات أثناء الحرب في مصنع في جنوب كاليفورنيا. تم تمييز الكثير منها بأشرطة سوداء على طول ذيل الطائرة، بما يجعلها تشبه ذكر النحل.

وجدت تقنية الطيران عن بعد منذ عقود. تم اختبار «المركبات الجوية غير المأهولة» للمرة الأولى من قبل الجيش منذ مدة طويلة أثناء الحرب العالمية الأولى. بدأت الولايات المتحدة، المملكة المتحدة، وألمانيا -ليلتحق بها الاتحاد السوفييتي ودول أخرى فيما بعد- في ثلاثينيات القرن المنصرم باستخدام الطائرات بدون طيار في تدريبات التصدي للطائرات. تم استخدام الطائرات غير المأهولة كصواريخ موجهة من قبل الجيش الأمريكي في الحرب العالمية الثانية والحرب الكورية. وفيما يمثل تجربة مأساوية فاشلة في الحرب العالمية الثانية، فقد توفي شقيق الرئيس كينيدي الأكبر جو، طيار البحرية، في التاسعة والعشرين من العمر، أثناء تنفيذ عملية سرية بطائرة بدون طيار ضد الألمان. لم يتم استخدام الطائرات غير المأهولة لجمع المعلومات الاستخبارية إلا بعد وقوع حرب فيتنام[٨].

يمكن لأي شخص يرغب في صنع طائرة غير مأهولة أن يحضر قطعها من متجر ألعاب الطائرات، ويجمعها في مرآبه. تم، في الواقع، صنع النموذج الأولي لأكثر الطائرات بدون طيار الحديثة شهرة، البريديتور، على يد مهندس الطيران الإسرائيلي أبراهام كاريم في مرآبه في جنوب كاليفورنيا في الثمانينيات من القرن المنصرم[٩].

عمل أبراهام كاريم على تطوير طائرة غير مأهولة لحساب متعهد إسرائيلي في السبعينيات من القرن المنصرم، وانتقل فيما بعد إلى جنوب كاليفورنيا في عام ١٩٨٠ لتطوير شركته الخاصة.

بدأ كاريم، مع تلقيه المنح من وكالة مشروعات البحث الدفاعي المتقدمة (دي أى آر بي أى) التابعة للجيش الأمريكي، والسي آي أى، في صناعة نموذج جديد في مرآب منزله الذي يتسع لثلاث سيارات. كشف الرجل في العام ١٩٨١ عما دعاه الآلباتروس، الطائرة غير المأهولة التي يمكن أن تبقى في الجو لما يصل إلى ٥٦ ساعة، ومن ثم عن نسخة جديدة، تحوي كمبيوتراً فاعلاً للتحكم في الطيران، تدعى النات ٧٥٠.

ولكن كاريم مر بضائقة مالية، وقرر أن يبيع شركته لشركة «هيوز أيركرافت»، التي باعتها فيما بعد لشركة «جنرال أتوميكس»، التي أبقت على كاريم مستشاراً لها.

تحول جايمس وولسي مدير السي آي أى، في العام ١٩٩٣، الذي لم يكن راضياً عن المعلومات الاستخبارية التي يتلقاها من الأقمار الصناعية التي تحوم فوق البوسنة، تحول إلى كاريم وجنرال أتوميكس طلباً للعون. حلقت طائرة النات ٧٥٠ فوق البوسنة، بعد مضي عام، على يد طاقم لم يكن على متنها، بل أطلقها من مدرج مهجور في ألبانيا المجاورة.

لم تصل المعطيات التي جمعتها، بكل الأحوال، إلى السي آي أى بصورة مباشرة، بل تم إرسالها أولاً من طائرة بدون طيار إلى طائرة أخرى مأهولة،

ثـم إلى محطـة أرضية، ثم إلى القمر الصناعي. عمد المهندسـون، بالتالي، إلـى تزويـد الطائـرة بـدون طيـار بمنظومتهـا الخاصـة للاتصـال بالأقمار الصناعية، وإضافة المقدمة المنتفخة التي تميزها الآن إلى جسمها.

وهكـذا ولـدت طائـرة البريديتور، واسـتخدمت في حـرب البلقان لجمـع المعلومـات عن تدفـق اللاجئين والدفاعـات الجويـة الصربية. لم يخـرج أحدهـم، بكل الأحوال، بفكـرة تزويد تلك الطائـرات بالصواريخ، وتحويلها من طائرات للتجسـس إلى القتل، إلا بعد شـن حملة الناتو على كوسوفو في العام ١٩٩٩ (١٠).

تسـتخدم الطائـرات بـدون طيـار اليوم لما هـو فتّاك وغيـر فتّاك من الغايـات. تصمـم الطائرات غيـر المأهولة، خـارج نطاق الجيـش، للمهام كافة، من تعقب مهربي المخدرات ومراقبة الحدود الأمريكية المكسيكية، إلى المشاركة في عمليات البحث عقب حدوث الزلازل، ورش المبيدات الحشـرية علـى المحاصيـل الزراعيـة. ولكن الجيـش يمثل القـوة الدافعة الحقيقية في ما يتعلق بتطور واستخدام الطائرات بدون طيار.

يملـك الجيش الإسـرائيلي تاريخاً طويلاً في اسـتخدام الطائرات بـدون طيار لجمـع المعلومات الاسـتخبارية، التمويـه، وعمليات القتل المسـتهدف. يعـود اسـتخدامه لتلك الطائـرات إلى حقبة احتلال سـيناء في سـبعينيات القرن المنصرم، وقد عمل على تطوير استخدامها بصورة إضافيـة فـي حـرب العـام ١٩٨٢ فـي لبنـان، والصـراع المتواصـل فـي الأراضي الفلسطينية.

تم دمج الطائرة غير المأهولة الإسرائيلية التي تم تطويرها في أواخر السبعينيات والثمانينيات، في نهاية المطاف، في جيش الولايات المتحدة. اتخذ جون ليمان، وزير البحرية في حينه، نتيجة إعجابه باستخدام إسرائيل

للمركبات الجوية غير المأهولة في العمليات العسكرية في لبنان في العام ١٩٨٢، اتخذ قراراً بضم قدراتها لسلاح البحرية. استخدمت واحدة من المركبات الجوية غير المأهولة التي تم شراؤها من إسرائيل، «البايونير»، لجمع المعلومات الاستخبارية أثناء عملية «عاصفة الصحراء»، وقد أورد تقرير بحثي للكونغرس، في العام ٢٠٠٣، الآتي: «أدرك المسؤولون العسكريون، في أعقاب حرب الخليج، قيمة المركبات الجوية غير المأهولة، وقد أدرجت طائرة البريديتور، التابعة لسلاح الجو، ضمن تلك الفئة على عجالة، لتضيف قدرات جديدة بصورة سريعة»[١١].

ولكن كانت الهجمات على مركز التجارة العالمي، في ١١ أيلول/ سبتمبر، ما أدى إلى إحداث طفرة كبيرة في استخدام الجيش الأمريكي للطائرات بدون طيار، ومجموعة من الأسلحة الآلية الأخرى. أسهمت مئات البلايين من الدولارات التي خصصها الكونغرس لحربي أفغانستان والعراق في توفير التمويل بصورة هائلة للبنتاغون، بما مكّنه من شراء أنواع الأسلحة الآلية كافة التي كان المتعاقدون العسكريون، من جنرال أتوميكس إلى نورثروب غرومن، يعملون على تطويرها.

ملأت فروع الجيش المختلفة عربات تسوقها بكل سلاح آلي أمكنها إيجاده: روبوتات المراقبة الصغيرة التي يمكنها أن تتسلق الجدران والدرجات، الروبوتات التي تشبه الأفاعي وتنسل بين الأعشاب، الدبابات غير المأهولة التي تعتليها أسلحة من عيار ٥٠، والروبوتات الأرضية التي تنقل حمولات الجنود الثقيلة.

تخاطفت تلك الفروع أنواع الطائرات بدون طيار كافة من خطوط الإنتاج، وطلبت طائرات جديدة منها. ابتاعت طائرة الرايفن بطول ٣٨ بوصة التي يتم إطلاقها عبر قذفها ببساطة في الهواء؛ طائرة البريديتور بطول ٢٧ قدماً المزودة بصواريخ من نوع هيل فاير، ولاحقاً نسخة «الريبر» الأكثر قوة، وطائرة غلوبل هوك بطول ٤٠ قدما، ذات قدرات المراقبة الخيالية.

كان البنتاغون يطلب تلك الأسلحة بأسرع مما يمكن للشركات أن تنتجها. كان البنتاغون يملك، في العام ٢٠٠٠، أقل من ٥٠ طائرة بدون طيار، ليقارب مجموع ما يملكه منها، بعد مضي عشر سنوات، ٧٥٠٠ طائرة. كانت في معظمها طائرات صغيرة لمراقبة ساحات القتال، ولكن البنتاغون كان يملك أيضا نحو ٨٠٠ من الطائرات بدون طيار الأكبر، التي تتراوح في حجمها بين الطائرات الخاصة والتجارية. تحدث روبرت غايتس، وزير الدفاع في حينه، قائلاً إن الجيل القادم من الطائرات النفاثة المقاتلة -الأف ٣٥، التي استغرقت عقودا لتطويرها بكلفة تتجاوز ٥٠٠ مليون دولار للطائرة الواحدة- سيكون الجيل الأخير من الطائرات المقاتلة المأهولة لدى البنتاغون[١٢].

ازداد مقدار ما تملكه وزارة الدفاع من الطائرات غير المأهولة، بين عامي ٢٠٠٢- ٢٠١٠، بما يفوق أربعين ضعفاً[١٣]، واستمرت في إنفاق مبالغ طائلة على الطائرات بدون طيار، حتى في أثناء الأزمة المالية، التي بدأت في العام ٢٠٠٧، وأدت إلى تقليص برامج الحكومة، من التكملة الغذائية للحوامل إلى صيانة الحدائق الوطنية. كان دافع الضرائب الأمريكي ينفق ٩ ,٣ بلايين دولار -في ذروة تخفيضات الحكومة للتقليل من العجز في العام ٢٠١٢- لشراء الطائرات غير المأهولة، من دون احتساب ميزانيتي الطائرات بدون طيار المنفصلتين للسي آي أى، ووزارة الأمن الداخلي[١٤].

لا يزال معظم الطائرات بدون طيار العسكرية يستخدم لأغراض المراقبة. باتت الحساسات الضوئية التي تحملها المركبات الجوية غير المأهولة قوية بصورة متزايدة، بما يمكن من يوجهونها على الأرض من مراقبة الأفراد عبر طائرة ترتفع ما بين ٣٠٠٠٠- ٦٠٠٠٠ قدم في الجو.

يستحوذ التصوير بالأشعة تحت الحمراء وفوق البنفسجية على الضوء خارج نطاق الطيف المرئي للعين البشرية. يعد التصوير بالأشعة فوق البنفسجية مفيداً في الفضاء ولتعقب الصواريخ، بينما يظهر التصوير بالأشعة تحت الحمراء الحرارة المنبعثة من الأجسام، بما يمكن من تمييز البشر في الظلام بصورة مثالية.

يتمثل سبب الإقبال الكبير على الطائرات بدون طيار في ارتقائها من تعقب ومراقبة الأهداف ببساطة إلى قتل تلك الأهداف بصورة فعلية. ينسب الفضل، في أفغانستان، للطائرات بدون طيار في قتل عناصر بارزة في تنظيم القاعدة وطالبان. تم استخدامها، في غزو العراق، في المهام كافة، من تعقب أنصار صدام حسين إلى قصف المقرات الحكومية. تحدث رئيس أركان القوات الجوية الأمريكية، الجنرال تي. مايكل موزلي، في العام ٢٠٠٣، قائلاً: «انتقلنا من استخدام المركبات الجوية غير المأهولة في العمل الاستخباري، المراقبة، والاستطلاع بصورة رئيسة قبل عملية حرية العراق، إلى تحديد الأهداف وتدميرها بصورة فعلية»[١٥].

يتجسد سبب آخر للإقبال الكبير على الطائرات بدون طيار في طبيعة حربي أفغانستان والعراق على وجه التحديد. واجه الجيش الأمريكي صعوبة كبيرة في العثور على أعدائه حتى، مع اختلاط العديد من المقاتلين المحليين بالسكان المدنيين. منحت الطائرات بدون طيار الجيش المجال للقيام بالمراقبة المستمرة، والهجوم سريعاً.

تستخدم الطائرات بدون طيار المزودة بالأسلحة بثلاث طرائق. توفر الدعم الجوي حين تشن القوات البرية الأمريكية هجوما أو تتعرض له؛ تجوب الأجواء بحثا عن أي نشاط مشبوه لتهاجمه في حال عثورها عليه؛ وتقوم بالقتل المستهدف للمسلحين المشتبه فيهم.

تتمثل الميزة الرئيسة لاستخدام الطائرات بدون طيار في أنها غير مأهولة على وجه التحديد. لا يتعرض أي طيار -مع وجود مشغلي تلك الطائرات بعيداً في حجرات مكيفة آمنة- لمخاطر الموت أو الإصابة وتبعاتها في حوادث تحطم الطائرات، أو الأسر على يد الأعداء، أو يتسبب في أزمة دبلوماسية إن أسقطت طائرته في «بلد صديق» وهو يقصف أو يتجسس من دون إذن رسمي من ذلك البلد. لو تحطمت طائرة الطائرات بدون طيار أو تم إسقاطها، فيمكن لمن يشغلها في الديار بعيداً أن ينهض ببساطة، ويأخذ استراحة لاحتساء القهوة.

تعد الطائرات بدون طيار مثالية «للمهام الثلاثية الأبعاد» -المهام «الرتيبة، القذرة، أو الخطيرة» للغاية بالنسبة للطائرات المأهولة-. يمكن لتلك الطائرات، في المهام التي تتطلب الجرأة، أن تطير على ارتفاع منخفض وببطء في المناطق المعادية، وتجوبها بضع ساعات أو طيلة اليوم، إن تطلب الأمر ذلك. يمكن لها أيضا -بفعل حساساتها المذهلة، على بعد عدة أميال في الجو- أن تتعقب مسار شاحنة تثير الشبهات، على سبيل المثال، أو تلاحق قناصا على سطح بناء ما. يمكن لكاميرا الأشعة تحت الحمراء في طائرة البريديتور أن تعين البصمة الحرارية حتى لجسم بشري من على ارتفاع ١٠٠٠٠ قدم في الجو. يمكن لمشغل طائرة الطائرات بدون طيار، علاوة على ذلك، على بعد ٨٠٠٠ ميل في نيفادا، أن يراقب أفغانياً وهو يشعل سيجارة، أو يتحدث إلى أصدقائه وهو جالس على مقعد في الحديقة، أو يدخل الحمام، من دون أن يتخيل على الإطلاق أن أحداً يراقبه.

يمكن للطائرات غير المأهولة أن تطير لمسافات بعيدة للغاية، من دون الحاجة لتوفير الحيز للطاقم، أو إجهاده. يمكن لطائرة الريبر أن تبقى في الجو نحو ثماني عشرة ساعة، وتملك المركبات الجوية الهجينة القدرة على ذلك لأسابيع. ستملك المركبات الجوية غير المأهولة التي

تطير على ارتفاعات كبيرة، وتستخدم الطاقة الشمسية -أو تزود بالطاقة من قبل محطات ليزر أرضية أو طائرات أخرى في الجو- ستملك القدرة، في المستقبل، على أن تبقى في الجو لمدة غير محدودة.

يمكن للطائرات غير المأهولة أن تطير إلى أماكن بعيدة، حيث لا تستطيع قواتنا، وقوات البلد المضيف، أن تذهب، أو لا تملك الاستعداد للذهاب. يمكن لها أيضاً أن ترسل المعطيات بصورة فورية إلى القوات على الأرض، وأن تتمايل وتنخفض وتقوم بالطيران البهلواني بسرعة كبيرة يمكن أن تؤدي بالطيار البشري إلى فقدان الوعي.

يصر أنصار الطائرات بدون طيار على أن قدرتها على البقاء لساعات فوق أهدافها تمكن من إجراء تقييم شامل للأضرار الجانبية المحتملة قبل القيام بأي فعل، وأن قدرتها على توجيه الأسلحة إلى الأهداف المحددة بدقة عالية تؤدي إلى التقليل من الخسائر بين المدنيين. تعد صواريخ الطائرات بدون طيار أكثر دقة بالتأكيد بالمقارنة مع القصف السجادي في الحرب العالمية الثانية، أو القصف الجوي في حرب فيتنام، أو حتى «القنابل الغبية» التي استخدمها الجيش الأمريكي في حرب الخليج، ولكن تلك الصواريخ يمكن أن تستخدم أيضاً من قبل الطائرات المأهولة.

تقل كلفة شراء الطائرات بدون طيار أيضا بصورة كبيرة عن الطائرات المأهولة التي تستبدل بها. تكلف طائرات أف ٢٢ النفاثة المقاتلة، المصنوعة من قبل لوكهيد مارتن، نحو ١٥٠ مليون دولار للطائرة الواحدة، بينما تصل كلفة طائرة أف ٣٥ إلى ٩٠ مليون دولار، وكلفة طائرة أف ١٦ إلى ٥٥ مليون دولار. بلغ سعر طائرة البريديتور في العام ٢٠١١، بالنقيض من ذلك، ٥ ملايين دولار، وسعر طائرة الريبر ٢٨,٤ مليون دولار ، ولكن طائرة الريبر (البطيئة، والضعيفة) تحل بالكاد محل طائرة الأف ٢٢ (السريعة، الخفية، والمهيمنة في القتال الجوي) [١٦].

يمكن أن تكون تلك الأرقام مضللة. لا تعرف كلفة تزويد الطائرات بدون طيار بالوقود، وتشغيلها، وصيانتها بصورة كاملة، استناداً إلى أن السي آي أي، المسؤولة عن زيادة استخدام تلك الطائرات في الحروب غير المعلنة في أماكن كباكستان واليمن، تدرج تلك الكلفة ضمن «ميزانيتها السوداء» السرية. ولكن كلفة كل ساعة تحلق فيها طائرة الطائرات بدون طيار في الجو تقدر بما بين ٢٠٠٠ إلى ٣٥٠٠ دولار، وقد ازداد عدد ساعات الطيران بصورة كبيرة للغاية، حيث ارتفعت نسبة الوقت الذي تخصصه القوات الجوية لمهام الطيران، بين عامي ٢٠٠١- ٢٠١٠، إلى ٣٠٠٠ بالمئة. لم تفارق طائرات البريديتور والريبر الجو في أفغانستان والعراق، وقد كانت تطلق الآلاف من صواريخ هيل فاير، التي يكلف الواحد منها ٦٨٠٠٠ دولار.

يرتبط جزء كبير من كلفة الطائرات بدون طيار بأطقمها. ومع أن ذلك يمكن أن يبدو مغايراً لما يظنه المرء، فإن تشغيل طائرة غير مأهولة يتطلب عدداً أكبر من الأشخاص بصورة ملحوظة مما يتطلبه التحليق بالطائرات الحربية التقليدية. ووفقاً للقوات الجوية، فإن إبقاء طائرة بريديتور واحدة لا أكثر في الجو لمدة ٢٤ ساعة يتطلب، بما يثير الدهشة، ١٦٨ شخصاً! ويرتفع ذلك العدد، في ما يتعلق بطائرة غلوبل هوك الأكبر للمراقبة، إلى ٣٠٠ شخص. تستلزم طائرة أف ١٦ المقاتلة، بالنقيض من ذلك، أقل من مئة شخص لكل مهمة (١٧).

تتطلب المركبات الجوية غير المأهولة المتابعة والتحكّم الدائمين من أطقمها الأرضية، ومشغلين وأطقماً على الأرض للإقلاع والهبوط، وتقنيين وميكانيكيين على الأرض أيضاً لصيانة تلك الطائرات التي تستخدم كثيراً، وأطقماً في الولايات المتحدة لتشغيل وتوجيه الحساسات. كما تتطلب، فوق ذلك كله، محللين استخباريين لفحص صور المراقبة

المتواصلة، وتحليل كمية المعطيات الهائلة التي تولدها. تعالج القوات الجوية وحدها، في كل يوم، ما يقارب ١٥٠٠ ساعة من صور الفيديو المتحركة، و١٥٠٠ من الصور الأخرى الثابتة. استلزم ذلك، بحلول عام ٢٠١٠، نحو تسعة عشر محللا لكل طائرة بدون طيار [١٨].

ستؤدي هذه الزيادة الكبيرة في المعلومات إلى زيادة مقدار العمل وعدد العاملين بصورة مؤثرة مع استخدام تقنيات أكثر تعقيداً، مثل «الغورغن ستاير» التي يمكن أن تصور مدينة كاملة، وتتطلب ٢٠٠٠ محلل لمعالجة المعطيات من طائرة بدون طيار واحدة لا أكثر [١٩]. كانت القوات الجوية قد حولت بالفعل، بحلول العام ٢٠١١، سبع وحدات من الحرس الوطني الجوي إلى وحدات استخبارية للمساعدة على تحليل تسجيلات فيديو الطائرات بدون طيار، وكانت تدرب ٢٠٠٠ محلل استخباري إضافي [٢٠]. يتعين، بالتالي، ألا تشمل كلفة الطائرات بدون طيار تلك النفقات الهائلة فحسب، بل ما ينفق على آلاف المستخدمين من الحرس الوطني، وغيرهم من الموظفين.

شكك مكتب الميزانية التابع للكونغرس، في العام ٢٠١١، في فكرة «الطائرات بدون طيار الرخيصة» برمتها. أشارت دراسته إلى أن الفكرة الأولية كانت تتمثل في أن تلك الطائرات ستكون منخفضة الكلفة للغاية، ويمكن التضحية بها بصورة رئيسة. «لا يتضح انطلاقاً من العام ٢٠١١، بكل الأحوال، ما إذا كان من الممكن تحديد تكاليف منخفضة للطائرات بدون طيار بصورة جوهرية. فبالرغم من أن الطيار يمكن ألا يكون على متنها، فإن الحساسات المتطورة المحمولة من قبل أنظمة الطائرات غير المأهولة تعد مكلفة للغاية، ولا يمكن النظر إليها على أنها قابلة للتضحية» [٢١]. تفوق كلفة كاميرات الأشعة تحت الحمراء/ البصرية- الإلكترونية، على المركبات الجوية غير المأهولة الصغيرة، تفوق كلفة الطائرات بدون طيار

ذاتها عدة مرات. وفي المقابل في ما يتعلق بالحجم، فإن الحساسات على طائرة غلوبل هوك الضخمة تكلف أكثر من نصف قيمتها. يتوقع، على وجه العموم، مع تطور التقنية أكثر فأكثر، أن يرتفع سعر الطائرات بدون طيار ذات التقنية العالية.

أشارت دراسة الكونغرس إلى مشكلة كبيرة أخرى تتعلق بالطائرات بدون طيار، وتؤثر إلى حد بعيد في سعرها النهائي. تتمثل تلك المشكلة في أنها كثيراً ما تتحطم. اختتم التقرير قائلاً: «يمكن للخسائر المرتفعة بصورة كبيرة، في ما يتعلق بالطائرات، أن تلغي مزايا السعر عبر دفع الجهات المعنية إلى شراء أعداد كبيرة من الطائرات البديلة»[٢٢].

أدلت القوات الجوية، في العام ٢٠٠٩، باعتراف مذهل: أن أكثر من ثلث طائرات البريديتور غير المأهولة للتجسس التابعة لها قد تحطمت، في العراق وأفغانستان بالقدر الأكبر[٢٣]. فقدت ٣٨ طائرة بريديتور وريبر، منذ تموز/ يوليو ٢٠١٠، أثناء عمليات قتالية في أفغانستان والعراق، مع تسع حالات تحطم أخرى أثناء عمليات تدريبية في الولايات المتحدة[٢٤]. أفاد سلاح الجو الأمريكي، بالإجمال، بوقوع تسعة وسبعين حادثاً للطائرات بدون طيار[٢٥].

تحطمت طائرة بريديتور فوق الجبال الأفغانية، في أيلول/ سبتمبر ٢٠١٠، بعدما تسبب عطل في منظومة الوقود بتوقف المحرك. تحطمت طائرة أخرى، قبل بضعة أشهر من ذلك، نتيجة عطل في منظومة الكهرباء. وقعت كارثة أخرى، قرب قاعدة قندهار الجوية، نتيجة قيام مشغل بضغط الزر الخطأ. تحطمت طائرة بدون طيار أخرى بينما كانت تهبط في سيشل، الدولة الواقعة في المحيط الهندي، حيث تمركز الولايات المتحدة أسطولاً من الطائرات بدون طيار. زعم الإيرانيون، في الحادثة الشهيرة التي استحوذت فيها الحكومة الإيرانية على طائرة التجسس الأمريكية

المتطورة، آر كيو- ١٧٠، أنهم أنزلوا الطائرة عبر التشويش على منظومتها لتحديد المواقع بالأقمار الصناعية، بينما زعمت الولايات المتحدة أن ذلك قد حدث نتيجة «مشكلة تقنية» في الطائرة.

أورد محققو القوات الجوية مجموعة متعددة من الأسباب لحوادث التحطم تلك كافة، بما يشمل أعطال الكمبيوتر، الأخطاء البشرية، سوء التنسيق، تخلف التقنية، وإرشادات الطيران غير الملائمة. اتسم ذلك بالصحة، على وجه الخصوص، أثناء بضع السنوات الأولى التي أعقبت العام ٢٠٠١، حين كانت الطائرات بدون طيار توجه إلى الجو من دون ما هو ملائم من الاختبار والتدريب.

يمكن أن تصبح الطائرات بدون طيار «مارقة» أيضاً، بما يعني أن أجهزة التحكم عن بعد لا تتواصل معها. اضطرت القوات الجوية الأمريكية، في العام ٢٠٠٩، إلى إسقاط واحدة من طائراتها غير المأهولة في أفغانستان حين خرجت عن السيطرة بحمولتها من الأسلحة. خرجت طائرة بدون طيار إسرائيلية الصنع، تستخدم من قبل قوات حفظ السلام الإيرلندية في تشاد، في العام ٢٠٠٨، خرجت أيضا عن سيطرة مشغليها، وقررت من تلقاء ذاتها، بعد انقطاع التواصل معها، أن تعود إلى إيرلندا، على بعد آلاف الأميال، لتتحطم في طريقها إلى هناك.

تتصف طائرة الطائرات بدون طيار في سلاح البحرية، التي يبلغ سعرها ملايين الدولارات، بخاصية «مؤسفة» تتمثل في تدمير نفسها في حال ضغط المشغل زر المسافة بصورة عرضية في لوحة مفاتيحه. وكما أوردت محطة فوكس نيوز: «يمكن لمروحية أم كيو- ٨ بي فاير سكاوت غير المأهولة، أن تنطلق من تلقاء ذاتها، وتحلق من تلقاء ذاتها -وأن تنفجر على وجه التقريب، جراء زلة بسيطة، من تلقاء ذاتها»[٢٦]. ووفقاً لتقرير صادر عن وزارة الدفاع، في ٢٤ حزيران/ يونيو ٢٠١١، فقد ضغط مشغل

مروحية غير مأهولة، في سلاح البحرية، زر المسافة من دون قصد بسلك يتدلى من سماعته. تم تجنب الكارثة في اللحظة الأخيرة، ولكن مروحية البحرية أم كيو - ٨ بي تتضمن الكثير من العيوب لدرجة أنها فشلت في مهامها الاختبارية العشر كافة في المحطة الجوية العائدة للبحرية في جنوب ماريلاند. أدى خلل بسيط بواحدة من الطائرات، في الواقع، إلى أن تحلق، وهي خارجة عن نطاق السيطرة، من المحطة إلى مجال جوي محظور قرب العاصمة واشنطن، قبل أن تتم استعادة السيطرة عليها[٢٧].

تتمثل مشكلة أخرى تتعلق بالطائرات بدون طيار في عيوب منظومتها الأمنية. لم يقم العديد من طائرات الريبر والبريديتور بتشفير صور الفيديو التي ترسلها إلى القوات الأمريكية على الأرض. اكتشفت القوات الأمريكية، في صيف العام ٢٠٠٩، وجود «أيام وساعات» من صور الفيديو الملتقطة بواسطة الطائرات بدون طيار في أجهزة الكمبيوتر المحمولة العائدة لمسلحين عراقيين. تمكن الأخيرون من الحصول على تلك الصور عبر قطعة من البرمجيات بسعر ٢٦ دولاراً[٢٨].

لا يفترض بأي من قمرات القيادة للطائرات غير المأهولة أن تكون متصلة بالإنترنت العمومي، بما يعني أنه يجدر بها أن تكون حصينة بصورة كبيرة من الفيروسات، وغيرها من التهديدات الأمنية في شبكة الإنترنت. ولكن يتم مراراً جسر ما يدعى «الفجوات الهوائية» بين الشبكات المحاطة بالسرية والشبكات العمومية، عبر استخدام الأقراص المدمجة، بصورة كبيرة، ومحركات الأقراص القابلة للإزالة.

مكنت محركات الأقراص، على سبيل المثال، في أواخر العام ٢٠٠٨، من إدخال فيروس «الأيجنت. بي تي زد» إلى مئات الآلاف من كمبيوترات وزارة الدفاع. لم ينته البنتاغون من تطهير أجهزته بعد مضي ثلاث سنوات على ذلك حتى.

أصاب فيروس كمبيوترات قاعدة كريتش الجوية، في أيلول/ سبتمبر ٢٠١١، ليسجل نقرات المشغلين على لوحات مفاتيحهم وهم يوجهون الطائرات بدون طيار عن بعد فوق أفغانستان، وغيرها من مناطق الحروب (٢٩). لم يكن المختصون بأمن شبكة الجيش واثقين مما إذا كان الفيروس قد أدخل عن عمد، أو بصورة عرضية. ولكنهم كانوا واثقين من أن الفيروس قد أصاب الأجهزة المحاطة بالسرية وغير المحاطة بها في كريتش، مما يزيد من إمكانية أنه قد تم الاستحواذ على معطيات سرية، ونقلها عبر الإنترنت العمومي إلى شخص ما خارج تسلسل القيادة العسكرية.

توجد أسئلة جدية أيضاً، في النهاية، عن مدى الدقة الفعلية للذخائر التي يتم إسقاطها من تلك الطائرات. تحدث جنرال سلاح الجو دايفيد دبتولا قائلاً إن أكثر من ٩٥ بالمئة، من ٦٠٠ صاروخ هيل فاير وأكثر أطلق من طائرات البريديتور، قد أصاب أهدافه، وإن الأخطاء القليلة تعود إلى العيوب الميكانيكية، فقدان التوجيه أو تحرك الهدف في اللحظة الأخيرة (٣٠). ولكن لو كانت صواريخ الهيل فاير دقيقة للغاية، فيتعين على المرء أن يتساءل عن سبب تمويل لوكهيد مارتن من قبل الكونغرس للارتقاء بصواريخ هيل فاير إلى صواريخ «روميو ٢»، التي يفترض أن تحوي ما هو أفضل من منظومات التوجيه، المواصفات، والآليات لمنع حدوث الأخطاء. كم من الدقة يمكن أن تكون عليها تلك «الذخائر الدقيقة» بينما تتطلب الكثير من التحسينات؟

وبالرغم من أن الكثير من التقارير عن هجمات الطائرات بدون طيار تتسم بالسرية، فيبدو بالفعل أن بعضاً من مشكلات الدقة والموثوقية تتعلق بالظروف الجوية. يمكن أن تقلل السحب، الأمطار، الضباب، والدخان من دقة تلك الطائرات، لتأتي فيما بعد الأخطاء في التجهيز وعيوب التصميم،

كالمشكلات المتعلقة بالاستهداف بالليزر حيث ينعكس بعض من طاقة الليزر من الهدف، بما يشوش على باحث الليزر.

طورت القوات الجوية، للتعويض عن تلك النقائص، تكتيكا يدعى «الضربة المزدوجة»، يقوم على توجيه صاروخين من نوع هيل فاير إلى كل هدف. ولكن ذلك يزيد من إمكانية إيقاع المزيد من القتلى بين المدنيين، كالأفراد الذين يهرعون لمساعدة المصابين بالضربة الأولى، ويتم قصفهم بالضربة الثانية. وجدت دراسة لمكتب الصحافة الاستقصائية في المملكة المتحدة دليلاً على مقتل خمسين مدنياً على الأقل في «ضربات المتابعة»، بينما كانوا يعملون على مساعدة الضحايا(٣١).

وبالطبع، عندما يتم تعيين الهدف بصورة غير صحيحة، فإن أكثر القنابل دقة ستؤدي إلى وقوع المآسي. تعمل الولايات المتحدة، من أفغانستان إلى الصومال، في مناطق لا تملك الكثير من الفهم لطبيعة مجتمعاتها المعقدة. يمكن أن تنتج المعلومات الاستخبارية المغلوطة عن التضليل المتعمد من قبل المخبرين المحليين الذين يحاولون تسوية نزاعات قبلية قديمة، أو جني بعض المال ببساطة عبر بيع معلومات كاذبة.

يمكن أن تنتج المعلومات الاستخبارية المغلوطة أيضاً عن أخطاء بسيطة. يمكن أن يساء تحليل صور الفيديو، بالرغم من روعة الكاميرات المستخدمة كافة. يمكن أن تبدو شاحنة تنقل صناديق من الرمان كشاحنة تنقل صناديق من المتفجرات. يمكن أن يبدو رجل طويل ملتح يرتدي ثوباً كرجل طويل آخر بالمواصفات ذاتها. نقل، في شباط/ فبراير ٢٠٠٢، أن مشغل طائرة بدون طيار قد قتل أفغانياً طويلاً لظنه أنه أسامة بن لادن، ليتبين أنه قروي بريء يجمع نفايات معدنية (٣٢). تم إطلاق صواريخ باتريوت نصف آلية، أثناء غزو العراق في العام ٢٠٠٣، على ما كان يفترض أنه صواريخ عراقية، لتتمثل النتيجة في إسقاط طائرات للحلفاء. كان من

المفترض بمشغلي تلك الصواريخ أن يوقفوها في تلك الحالة، ولكنهم فشلوا في القيام بذلك[٣٣].

وفي أول حالة معروفة لقتلى بنيران صديقة عبر طائرات غير مأهولة، فقد أدت غارة لطائرة بدون طيار في أفغانستان، في ٦ نيسان/ أبريل ٢٠١١، إلى مقتل جندي من المارينز وممرض في البحرية بصورة عرضية. قتل الرقيب في المارينز جيريمي سميث، ٢٦ عاماً، وممرض البحرية بنجامن دي. راست، ٢٣ عاماً، جراء غارة لطائرة بريديتور بعدما أخطأ قادة في المارينز، وظنوا أنهما من طالبان. لم ير جيري سميث، والد جيريمي، حين عرضت عليه صور الفيديو المتعلقة بالهجوم، لم ير صوراً عالية الدقة يتوقع المرء الحصول عليها من الطائرات بدون طيار المتطورة. تمثل كل ما أمكنه تمييزه في نقاط ضمن ظلال داكنة بصورة فعلية. تحدث الأب المفجوع قائلاً: «لا يمكنك أن تميز أنهما رجلان حتى، كل ما تراه هو نقاط لا أكثر». لم يتهم التقرير أحداً بالإهمال أو التقصير في واجباته، ولكنه أنحى باللائمة على سوء الاتصالات، الافتراضات غير الصحيحة، و«الافتقار إلى الوعي التام بالموقف»[٣٤].

تعج المقابر في أنحاء آسيا والشرق الأوسط كافة، لسوء الحظ، بالشواهد على هجمات غير موفقة للطائرات بدون طيار. لم يطلق عليها اسم «المفترسة» و«الحاصدة» عن عبث، حيث تمثل آلات حقيقية للقتل، تخطف في لحظات، من دون قضاة أو محلفين، أرواح من يُعَدُّون إرهابيين من قبل شخص ما، في مكان ما، إلى جانب أولئك الذين يقعون عن غير قصد -أو بصورة عرضية- في مرمى نيرانها.

تخيلوا كم من المخيف، بالتأكيد، أن يعيش المرء تحت وطأة التهديد الدائم بهجمات الطائرات بدون طيار. يمكن أن تراها، في بعض الأحيان، وهي تحلق في الأعلى بما يشعرك بالخطر، ويمكن أن تختفي، في أحيان أخرى، ولكنك تظل قادراً على سماع أزيزها المرعب.

تخلـف هجمـات الطائرات بدون طيـار قصصاً للمعاناة الإنسـانية: أرامـل مفجوعـة، أطفـالاً يتامـى، أرواحاً شـابة أزهقـت، وإعاقـات مدى الحياة. تثير تلك الهجمات أيضاً سـخط السـكان المحليين ومشاعر العداء للأمريكيين، وتشجع على القيام بأعمال العنف الانتقامية.

وكمـا كتبـت المحاميـة الأمريكيـة الباكسـتانية رافيـا زكريـا، قائلة: «يجلس مشـغل طائرة بدون طيار، في مكان مـا في الولايات المتحدة، في حجرة وبيده عصا للقيادة، ويتحكم في طائرة بلا طيار مزودة بقنابل مميتة. يقوم بالتصويب، بما يشبه كثيراً لعبة الفيديو، ويطلق النار على أهداف يراها علـى خريطة أقمار صناعيـة... يُقتل الهدف في بعـض الأحيان، ولا تكون المعلومـات الاسـتخبارية صائبة فـي أحيان أخـرى، لتدفع عائلـة نائمة أو تحتفل بزفاف الثمن الأكبر لسـوء الحسـابات. تستفيد طالبان على الدوام، بـكل الأحـوال، من الضرر والفوضـى الناتجين عن ذلـك، وتجند مقاتلين جـدداً، وتفعل من حركة مقاتليها القدامى. لا ينتشـر الإرهاب، بالتالي، في القريـة التـي هاجمتها طائرة الطائرات بدون طيار فحسـب، بل في الأماكن كافة: في أسـواق بيشـاور، وشوارع لاهور، ومؤسسـات إسلام أباد، حيث ينتقم أولئك المجندون غضباً من هجمات الطائرات بدون طيار»[٣٥].

وبينمـا يقتـل العديد مـن الناس بالطائـرات بدون طيار، فـإن القليل يجنون الكثير من المال.

إنها سوق مزدهرة

«لا يوجد سوى قطع من اللحم المتناثر في الأرجاء بعد الغارة. لا يمكنك أن تعثر على جثث. يجمع السكان المحليون قطع اللحم، بالتالي، ويلعنون أمريكا. يقولون إن أمريكا تقتلنا في بلدنا، في بيوتنا، لأننا مسلمون لا أكثر».

نور بهرام، مصور باكستاني [٣٦]

تكافح القطاعات الصناعية الأمريكية للبقاء، إن لم تكن قد انهارت تماماً بعد. مُنحت الشركات الدوافع كافة، بفضل المزايا الضريبية وما يسمى -بصورة مضللة- اتفاقيات «التجارة الحرة»، للبحث في الخارج عن مصادر أقل كلفة للعمالة، وقامت بإلغاء وظائف الطبقة الوسطى بينما يزداد المديرون التنفيذيون الأثرياء ثراء. باتت مدينة ديترويت العامرة بمعالمها، التي كانت في يوم ما مركزاً نشطاً لكبار الموظَّفين في البلاد، باتت تماثل الآن مدينة للأشباح.

ولكن يوجد قطاع صناعي واحد لم يتضرر: الشركات التي تحقق الربح من صناعة أدوات الحرب الحديثة ذات التقنية العالية، آخر صادرات أمريكا الرائعة. نجح ما دعاه الرئيس الأسبق دوايت دي. آيزنهاور

«المجمع الصناعي العسكري» بصورة فعلية في الاستمرار في عصر التقشف هذا، من دون أن يتضرر إلى حد بعيد. يزدهر ذلك المجمع بصورة كبيرة حتى، في ما يتعلق بالطائرات بدون طيار.

يتبجح آشتن بي. كارتر، المسؤول الأبرز عن شراء الأسلحة في وزارة الدفاع، قائلاً: «إنها سوق مزدهرة»[٣٧]. ولا ريب أنه يعلم ما يقول، مع تخصيص البنتاغون ٥ بلايين دولار للطائرات بدون طيار. يتوقع أن يتجاوز مجموع الإنفاق العالمي على أبحاث وصناعة الطائرات بدون طيار ٩٤ بليون دولار بين عامي ٢٠١١- ٢٠٢٠، وفقاً لمحلل يراقب صناعة الطيران. ستحظى بلدان أخرى، كإسرائيل والصين على وجه الخصوص، بقطعة من الكعكة، ولكن لا تزال الشركات الأمريكية، إلى الآن، تحتل الصدارة في هذا المجال.

لم تستفد شركة من ازدهار صناعة الطائرات بدون طيار بأكثر من جنرال أتوميكس، التي يقع مقرها في سان دييغو. ومع أنها لا تملك شهرة متعاقدين عسكريين كبار كلوكهيد مارتن أو بوينغ، فقد حققت الشركة، التي تأسست في العام ١٩٥٥ وبدأت ببناء مفاعلات نووية، حققت نمواً هائلا جراء اعتماد الجيش المتزايد على المركبات الجوية غير المأهولة. باتت طائرة البريديتور التي تصنعها الشركة، في الواقع، تمثل الوجه العالمي لعصر الحرب الآلية الجديد. أضحت طائرة الريبر التي صنعت بعدها (التي تدعى في الأصل بريديتور بي) -ويمكنها أن تحلق على ارتفاعات أعلى، وبسرعة أكبر، وتحمل أسلحة أكثر- أضحت المركبة الجوية غير المأهولة الأولى في سلاح الجو.

ابتدأت جنرال أتوميكس عملها في مجال الطائرات بدون طيار في تسعينيات القرن المنصرم، عبر شراء شركة الطائرات غير المأهولة الأصلية -التي أسسها المهندس الإسرائيلي أبراهام كاريم- من شركة

هيـوز أيركرافت. ومع أنها شـركة خاصـة، فقد كان مـن الممكن أن تفلس فـي وقت قصيـر لو لم تكن تعتمد علـى تعاقدات دائمة مـع الحكومة. أتى ٩٠ بالمئـة، مـن ٦,٦٦١ مليـون دولار ربحتهـا الشـركة في العـام ٢٠١٠ -في حين لم يتجاوز ربحها ١١٥ مليون دولار، لا أكثر، في العام ١٩٨٠- أتـى بصورة مباشـرة من مبيعاتهـا للبنتاغون[٣٨]. باعت الشـركة، بين عامي ٢٠٠٠ و٢٠١٠، ما تزيد قيمته عن ٤,٢ بليون دولار من المعدات للجيش الأمريكي. أتى ذلك الدخل، في معظمه، من الطائرات بدون طيار.

تعـد إيرادات الشـركة، مع ازدهار سـوق الطائرات بـدون طيار إلى حـد بعيد، تعد قابلة للزيادة بصورة كبيـرة للغاية. وتملك جنرال أتوميكس الاستعداد لذلك.

وقد أوردت صحيفة لوس آنجيليس تايمز، عن أبنية الشـركة السبعة -التي تنتشر على مساحة قاعدة كبيرة تعادل ٨٥ هكتارا في باوي، كاليفورنيا- قائلة إنه «يعتقد أنها أكبر منشـأة مخصصة لصناعة الطائرات بدون طيار في العالـم»[٣٩]. ينشـغل موظفـو جنـرال أتوميكـس، الذين يبلـغ عددهم نحو ٥٠٠٠ بالمجمل، ينشـغلون بمحاولة تأمين الطلب على الطائرات لا أكثر، بينمـا يعملـون أيضاً على تطويـر الجيل القادم من المركبـات غير المأهولة القاتلـة. «يعمـل الموظفون على مـدار السـاعة، بلباسـهم الأزرق الفاتح، علـى تحويل الصفائـح المعدنية إلى قطع للطائـرات، ولحم الإلكترونيات بلوحات الدارات الكهربائية».

باعت الشركة، من العام ١٩٩٤ إلى العام ٢٠١٠، أكثر من ٤٣٠ من طائـرات البريديتور والريبر التي صنعتها إلى الجيش الأمريكي، ناهيك عن بدئها في بيع تلك الطائرات إلى حلفاء في الناتو.

طالبت القوات الجوية الأمريكية، في العام ٢٠١١، بنسـخة تجريبية لأحـدث وأقـوى طائـرات جنـرال أتوميكـس، البريديتـور سـي أفينجـر،

التـي يمكنها أن تطير بسـرعة أكبر (٧٤٠ كم/ سـاعة)، وعلى ارتفاع أعلى (٦٠٠٠٠ قـدم)، وبحمولـة أكبـر (أكثـر مـن ٢٠٠٠ رطـل) مـن كل مـن البريديتور والريبر[٤٠].

كيـف أصبح بمقدور شـركة صغيرة كتلك أن تهزم منافسـيها الأكبر فـي لعبـة صناعة الطائرات بـدون طيار، بالرغم من حقيقـة أن مركباتها غير المأهولة الأولى، التي اسـتخدمت فـي البلقان، كانت عصية على التحكم، وعرضة للتحطم؟

يفاخـر جايمس بلو، المدير التنفيذي للشـركة، في حديث لمطبوعة تجارية في العام ٢٠٠٥، قائلاً: «نملك، بالنسبة لحجمنا، رأس مال سياسي أكثر تأثيراً مما يمكن أن تظنوا»[٤١].

لـم تملك شـركة بلـو رأس المال السياسـي ذاك اسـتنادا إلـى مزايا منتجاتها وحدها، ولـم يتم ذلك بثمن زهيد.

رعـت جنـرال أتوميكـس باهتمـام، لسـنوات، أعضـاء بارزيـن في الكونغـرس، وأنفقـت ببـذخ علـى حملاتهـم الانتخابية وأنشـطتها. وكما أورد مركز النزاهة العامة في العام ٢٠٠٦، فقد أنفقت الشـركة أكثر من أي شـركة أخرى في أمريكا لتمويل رحلات خارجية للمشـرعين، وعائلاتهـم، وموظفيهـم[٤٢]. أنفقت الشـركة، بيـن عام ٢٠٠٠ ومنتصـف عام ٢٠٠٥، «٦٦٠ ألـف دولار تقريبـاً علـى ٨٦ رحلة» إلى الأماكن كافـة من تركيا إلى أسـتراليا، حيـث كانت تحاول الحصـول على موافقة الحكومـة الأمريكية لبيع مركباتها غير المأهولة الأحدث عبر البحار لدول غير أعضاء في الناتو.

أوضـح تـوم كاسـيدي، المديـر التنفيـذي للشـركة التابعـة لجنـرال أتوميكس لصناعة الطائرات بدون طيار، «جنرال أتومكيس لأنظمة الطيران»، قائـلاً: «من المفيد والمسـاعد للغاية، في الحقيقـة، أن تذهب وتتحدث إلى

مسؤولي الحكومة ليدفعوا أعضاء الكونغرس للتعاون، ومناقشة قدرات الطائرة معك». أسس كاسيدي، الذي كان أميرالاً في البحرية -وهو ما يفيد بالطبع في بيع بضاعته- أسس الشركة التابعة لجنرال أتوميكس لصناعة الطائرات بدون طيار في العام ١٩٩٢، بوجود ستة مهندسين لا أكثر.

لم تكن جنرال أتوميكس تتطلع لبيع طائراتها للجيش الأمريكي والحلفاء في الناتو فحسب، بل كانت تضغط للحصول على موافقة الحكومة لبيعها لحلفاء آخرين للولايات المتحدة، بما يشمل أنظمة قمعية في الشرق الأوسط. تفاخر فرانك بايس، رئيس الشركة التابعة لجنرال أتوميكس لأنظمة الطيران، وفقاً لخدمة بلومبيرغ الإخبارية، قائلاً: «أبدت باكستان، السعودية، مصر، والإمارات الاهتمام بشراء طائراتنا. تعد السعودية بلداً ضخماً، وإن أرادت أن تغطي مساحتها جيداً، فيمكن أن تحصل وحدها على ٥٠ طائرة»[٤٣].

أقرت الحكومة الأمريكية، في تموز/ يوليو ٢٠١٠، تصدير نسخة من طائرات البريديتور المتطورة للشرق الأوسط، وجنوب آسيا. لم يكن يسمح، قبل ذلك، ببيع طائرات البريديتور لغير دول الناتو، اليابان، أستراليا، ونيوزيلندا. تصمم تلك النسخ المعدة للتصدير، من الناحية النظرية، لمهام المراقبة والاستطلاع لا أكثر، ولكنها لا تحتاج إلى الكثير من التعديل لتزويدها بالقنابل.

من المفيد أيضاً، بالطبع، أن تتحكم في أعضاء الكونغرس للمساعدة على بيع بضاعتك في الديار. قبل مكتب راندي «دوك» كننغهام -عضو الكونغرس الجمهوري السابق عن سان دييغو، الذي أدين بتهمة تلقي رشى من متعاقدين عسكريين، واستقال نتيجة فعلته الشائنة- قبل أكثر من ٥٣٠٠٠ دولار من جنرال أتوميكس لتمويل رحلات إلى أوروبا وأستراليا بين عامي ٢٠٠٢ و٢٠٠٥، وفقا لمركز النزاهة العامة.

لعب كننغهام دوراً مفيداً للشركة، بوصفه رئيساً للجنة الفرعية القوية في مجلس النواب التي تحدد التمويل العسكري، وقد مارس الضغوط على دونالد رمسفيلد، وزير الدفاع في حينه، في تموز/ يوليو ٢٠٠١، لتسريع تمويل شراء طائرات البريديتور من جنرال أتوميكس. ارتفعت عائدات الشركة بصورة كبيرة للغاية، منذ ذلك الحين، وقد عاد ذلك جزئياً إلى عقد وقعته في العام ٢٠١٠ بقيمة ١٩٥ مليون دولار لصناعة طائرة بدون طيار للجيش، وعقد آخر في العام ٢٠١١ بقيمة ١٤٨,٢ مليون دولار لتزويد القوات الجوية بأربع وعشرين طائرة ريبر أخرى من طراز أم كيو- ٩.

أنفقت الشركة، بالمجمل، أكثر من ٢١ مليون دولار للتأثير في المسؤولين منذ العام ١٩٩٨، وفقاً لمركز السياسة التجاوبية[٤٤]. تمكنت تلك الشركة الصغيرة، علاوة على ذلك، بكل الأحوال، بحلول العام ٢٠٠٨، من دخول قائمة صحيفة «ديفينس نيوز» لأول مئة شركة دفاعية. يصعب إلى حد بعيد إيجاد مثل تلك العائدات الضخمة في أي من الاستثمارات خارج نطاق المجمّع الصناعي العسكري.

لا تعد جنرال أتوميكس المتعاقد العسكري الصغير الوحيد الذي يمكنه الخروج بتلك الأرباح الطائلة. حظيت شركة «أيروفايرنمينت»، التي يمكن أن يبدو اسمها كاسم معطر لطيف للجو -وقد بدأت فعلاً بتقديم الاستشارات حول نوعية الهواء- حظيت بقطعة كبيرة للغاية من كعكة الطائرات بدون طيار.

تعد الشركة صغيرة نسبياً كجنرال أتوميكس. كانت إيرادات أيروفايرنمينت السنوية، في العام ٢٠٠١، تقل عن ٣٠ مليون دولار، لترتفع بصورة كبيرة، في غضون عقد، إلى ما يقارب ٣٠٠ مليون دولار، تعود بنسبة ٨٥ بالمئة منها إلى بيع الطائرات بدون طيار إلى الحكومة الأمريكية.

لا تـزال هـذه الشـركة الواقعة في جنـوب كاليفورنيا (سـيمي فالي) تعـد صغيـرة، بالمقارنـة مـع شـركات كبوينـغ ولوكهيد مارتـن. انخرطت أيروفايرنمينت في مجال صناعة المركبات الجوية غير المأهولة بقوة، وقد حددت نطاق عملها في صنع الطائرات بدون طيار الصغيرة.

أعلنـت الشـركة، فـي ١ أيلـول/ سـبتمبر ٢٠١١، أنهـا قـد حظيت بعقـد مـع الجيش الأمريكـي بقيمة ٩ , ٤ مليـون دولار لصنـع طائرة بدون طيار تزن خمسـة أرطال ونصف، وتسـمى السويتشـبلايد (السكين متعددة الاسـتعمالات). تنجـز تلـك الطائـرة مهام متعـددة كالسـكين التي تحمل اسـمها، وقد صممت، وفقـاً لأيروفايرنمينت، لتزويـد المقاتل في الحرب «برصاصة سـحرية» يمكن أن تطلق مـن الجو، أو الأرض، وترصد الهدف وتصيبه في غضون دقائق.

تحـدث بيـل نيكولز، مـن مكتب منظومات أسـلحة القتـال القريب التابـع للجيـش، قائـلاً: «تجعـل الإمكانـات الفريـدة التـي توفرهـا ذخيرة السويتشـبلايد الفاعلة -فـي ما يتعلق بالاشـتباك القريب، الدقـة، والنتائج المضمونة- تجعل منها سـلاحاً مثالياً لحروب اليوم، وللقوات العسـكرية الأمريكية في المستقبل».

ولكن نيكولز قد أغفل التفصيل الأكثر إثارة: يمكن لطائرة الطائرات بـدون طيار الصغيرة أيضـاً أن تؤدي وظيفة المفجـر الانتحاري الآلي لدى الجيـش الأمريكـي. وكما قالت صحيفـة نيويورك تايمز، فلـم تصمم تلك الطائـرة للمراقبـة فحسـب، بل «لحمل شـحنة متفجـرة إلى الهـدف»[٤٥]. وبكلمات أخرى، فإن السويتشـبلايد طائرة كاميـكازي غير مأهولة، وتقنية تثير قلق الجيش اسـتناداً إلى أنها «لن تستغرق طويلاً لتندرج ضمن قدرات الشبكات الإرهابية».

تلقت أيروفايرنمينت، في وقت لاحق من أيلول/ سبتمبر ٢٠١١، طلباً بقيمة ٩,٦ مليون دولار من القوات الجوية الأمريكية لصنع طائرة بدون طيار أخرى، الرايفن، التي يمكن أن تحتوى في حقيبة للظهر، وطلباً آخر بقيمة ١٦ مليون دولار من الجيش لتدعيم الرايفن[٤٦]. تلقت الشركة، في الشهر الآتي، دفعة أخرى: طلب بقيمة ٣,٧ ملايين دولار من الجيش لصنع طائرة بوما الأكبر حجماً للمراقبة، التي تزن ١٣ رطلاً[٤٧].

تم تقديم طائرة همينغبيرد الصغيرة للمراقبة، التي صنعتها أيروفايرنمينت، من قبل مجلة التايم كواحد من أفضل الاختراعات في العام ٢٠١١. يمكن لتلك الطائرة، التي صنعت كنموذج أولي لوكالة مشروعات البحث الدفاعي المتقدمة، أن تطير في الاتجاهات كافة، وإلى الخلف حتى. يمكنها أيضا أن تحوم وتدور باتجاه عقارب الساعة وبعكس اتجاهها، ناهيك عن أنها مزودة بكاميرا للفيديو. يعد وزنها خفيفاً بما يثير الدهشة -يقل عن وزن بطارية أى أي- ولكن كلفتها تعد عالية للغاية، بما يثير الدهشة أيضاً، وتقدر -في أثناء المرحلة التجريبية على الأقل- بأربعة ملايين دولار.

رسخت أيروفايرنمينت نفسها بقوة -عبر طائرات الهمينغبيرد، الرايفن، الواسب، البوما، والسويتشبلايد- كعملاق الطائرات بدون طيار الصغيرة.

ولكن لا تظنوا أن الشركات الكبيرة للصناعات الدفاعية قد أغفلت. لنأخذ رايثيون، على سبيل المثال، التي تضم أكثر من ١٢٠٠٠ موظف، وتعد واحداً من أكبر خمسة متعاقدين فيدراليين في الولايات المتحدة. تزود رايثيون القوات الأمريكية ببرمجيات الطائرات بدون طيار بما يمكنها من «الوصول المباشر لمعطيات استخبارية فعلية» يتم جمعها من قبل الطائرات بدون طيار حول العالم[٤٨]. تمثل تلك التقنية التي تساعد مشغل طائرة الطائرات بدون طيار في صحراء نيفادا على تحديد توقيت

إطلاق صاروخ هيل فاير على هدف ما. وبما أن المنظومة تتيح للموظفين العسكريين جمع المعلومات الاستخبارية من مجموعة من الطائرات بدون طيار المصنعة من قبل شركات أخرى، فهي تمنح الفرصة لرايثيون للربح حتى حين تخسر عقداً للطائرات بدون طيار أمام منافسيها.

تنتج رايثيون أيضاً قنبلة تزن ٥٠٠ رطل، تدعى البايفواي، وتستخدم من قبل الطائرات بدون طيار الأكبر كالبريديتور. تطور الشركة أيضاً صاروخاً يزن ١٠٠ رطل، ويدعى المونسون، لتحدي الدور المهيمن لصاروخ هيل فاير، الذي يزن ١٠٠ رطل أيضاً، ويصنع من قبل الشركة المنافسة لوكهيد مارتن.

ولكن رايثيون تكتشف أن الأصغر ربما يكون أفضل، وتطور الآن قنابل درون خفيفة الوزن. أوردت صحيفة أريزونا دايلي ستار في توسون، حيث تقع منشأة رايثيون للصواريخ والطائرات بدون طيار، في العام ٢٠١٠، أن الشركة «تنافس بصمت على دور رئيس في حرب أمريكا التي تخاض بالتحكم عن بعد ضد المتمردين والإرهابيين» عبر تطوير صواريخ أصغر فأصغر [٤٩]. قامت بإنتاج صاروخ الغريفن، الذي يقل في وزنه عن ثلث صاروخ هيل فاير الذي يزن ١٠٠ رطل، وقد تلقت بالفعل، بحلول العام ٢٠١٠، أكثر من ٤٠ مليون دولار بموجب عقود مع الجيش الأمريكي لشراء صواريخ غريفن.

يوجد ما هو أصغر حتى، ويتمثل في صاروخ البايروس الذي يزن ١٣ رطلاً، ويبلغ طوله قدمين، الذي صمم، وفقاً لمدير البرنامج كودي تريتستشوك، لتلبية «الحاجة الناشئة» للصواريخ التي تزود بها الطائرات بدون طيار الأصغر حجماً، التي تستخدم، حتى هذه اللحظة، للمراقبة لا أكثر [٥٠]. صممت رايثيون أيضاً طائرة الكوبرا غير المأهولة لحمل تلك القنبلة الصغيرة.

أورد سبينسر آكرمن الكاتب في مجلة وايرد، تعليقاً على تجربة رايثيون الناجحة لطائرة الكوبرا في أيلول/ سبتمبر ٢٠١١، قائلاً: «يمكن لصاروخ البايروس الموجه أن يوسع حرب الطائرات بدون طيار بصورة مؤثرة، عبر منح الوحدات التي تعادل كتائب وتشغل الطائرات بدون طيار الصغيرة القدرة على «قتل الناس»، كما يفعل مشغلو طائرات البريديتور والريبر الأيقونية»[٥١].

تنتج رايثيون أيضاً منظومة مصممة لإسقاط طائرات درون المعادية بالليزر. ولكن رايثيون، الموظِّف الأكبر في جنوب أريزونا برمته، لا تكتفي بتزويد طائرات بدون طيار الشركات الأخرى بالبرمجيات، الصواريخ، والليزر، وتوفير القدرة على إسقاط تلك الطائرات. تورد صحيفة الدايلي ستار، بالفعل، أن الشركة منشغلة في العمل على تقنية «ستبقي الطائرات بدون طيار في الجو لمدة غير محدودة»، مع تلقيها براءة اختراع «لمنظومة تمكن مركبة جوية غير مأهولة من تزويد طائرة بدون طيار أخرى بالوقود بصورة آمنة في الجو»[٥٢].

تمعنوا أيضاً في ما تدعوه مجلة البوبيولار ساينس «القاذفة المتغيرة الشكل الأسرع من الصوت». ستحظى قاذفة رايثيون غير المأهولة -التي تدعى أيضاً السويتشبلايد، وتهدف الشركة إلى إكمالها في العام ٢٠٢٠- بأجنحة قابلة للتعديل تمكنها، كما هو مفترض، من «التحليق قرب منطقة العدو لأكثر من عشر ساعات، والاندفاع باتجاه الهدف، حين تؤمر بذلك، بأسرع من الصوت».

من الأفضل لرايثيون أن تسرع، مع ازدحام السوق، والسماء، بصورة متزايدة.

لا ترضى شركة بوينغ، المتعاقد العسكري الذي يقع مقره في شيكاغو -التي يزيد عدد موظفيها عن ١٦٥٠٠٠، وفاقت عائداتها، في العام ٢٠١٠، ٦٤,٣ بليون دولار- لا ترضى بأن تخسر في مجال الطائرات بدون طيار المربح أمام شركات كرايثيون، ناهيك عن شركات لا تعادل منها شيئاً، كجنرال أتوميكس. يعادل النموذج الأوّلي لطائرة فانتوم راي التي صنعتها بوينغ، وحلقت للمرة الأولى في نيسان/ أبريل ٢٠١١، يعادل حجم طائرة نفاثة مقاتلة على وجه التقريب. ولكن بالنقيض من الطائرات بدون طيار التي يتم استخدامها بصورة شائعة الآن، فإن تلك الطائرة تقود نفسها بصورة أساسية.

تحدث مدير البرنامج كرايغ براون، بعد رحلة الطيران التجريبية الأولى، قائلاً: «باتت الطائرات غير المأهولة المستقلة، التي تعادل في حجمها الطائرات المقاتلة، باتت تمثل حقيقة. تم الارتقاء بالمستوى الآن».

تختلف طائرة الفانتوم راي عن بقية الطائرات بدون طيار المسلحة، وفقاً لصحيفة لوس آنجيليس تايمز، في أنها لا تحتاج إلى طيار بشري يقوم بأكثر من تخطيط مسار الرحلة[٥٣]. يمكنها أن «تنفذ مهاماً يتم التحكم فيها بالكامل، على وجه التقريب، بواسطة الكمبيوتر».

ومع أنه لا يوجد مشترون حالياً لطائرة الفانتوم راي، التي تقدر كلفتها بما بين ٦٠ إلى ٧٠ مليون دولار، فإن الشركة واثقة من أنهم سيأتون يوماً ما.

أوضح داريل دايفيس، رئيس قسم أعمال، أبحاث، وتطوير الفانتوم في شركة بوينغ، في العام ٢٠٠٩، قائلاً: «نقوم بذلك، بصورة جوهرية، للتأكيد على أن شركة بوينغ لديها كفاءة عالية في هذا المجال. نرغب في أن نتصدر السوق، لا أن نعمل رداً على منافسينا»[٥٤].

ولكـن بوينـغ لا تعد الوحيـدة، حين يتعلـق الأمر بصناعـة طائرات آليـة قاتلة مسـتقلة. تملك جنرال أتوميكس نموذجـاً بالفعل، الغراي إيغل، المسـتخدم حاليـاً في العـراق. تحدث جايمس بوشـارد، مسـؤول جنرال أتوميكس، في بيان صحفي للشركة بعنوان «مسلحة وخطرة - الغراي إيغل طائرة فتاكة»، تحدث بحماسة قائلاً: «إنها تفكر بنفسها»[٥٥].

لسـت بحاجة حتى لأن تكون طياراً مجـازاً لقيادتها. أطرى الكابتن مايـك غودوين عليها بقـوة، قائلاً: «الطائرة مسـتقلة للغايـة. إنها الأحدث والأروع».

ولكـن بوينـغ تصنف وحدهـا حين يتعلـق الأمر بصناعـة طائرة آلية غير مأهولة محاطة بالسـرية التامة، ومصممة لتنطلق إلى الفضـاء. خضعت مركبة أكس- ٣٧ بي المدارية التجريبية للتطوير مدة عشر سنوات في منشأة «أعمال الفانتوم»، بعدما اختارت ناسـا بوينغ لتصميـم وتطوير المركبة في العام ١٩٩٩. دفعت ناسـا لبوينغ أكثر من ٤٠٠ مليون دولار لصنع المركبة الفضائيـة، التي يمكنهـا البقاء في الفضاء لأكثر مـن ٢٧٠ يوماً. تم إطلاقها للمـرة الأولـى من محطة القـوات الجوية كايـب كنافيرال فـي فلوريدا في نيسـان/ أبريل ٢٠١٠، ضمن مخطط اختباري لتجارب سرية، وقد هبطت بعد ٢٤٤ يوماً فـي قاعدة القوات الجوية فانديبيرغ في كاليفورنيا. ومع أن تفاصيل الرحلة تبقى سـرية، فقد نقل أنهـا كانت تجربة ناجحة، بالرغم من أن هبوط المركبة المتعسـر قد أدى إلى انفجار إطار الهبوط الرئيس الأيسر عند ملامسـته الأرض، مما أدى إلى تضرر جسـم المركبة السفلي في سبعة مواضع تقريباً.

ومـع أن سـعر المركبـة يُعد هائـلاً، فقد تـم التعاقد مـع بوينغ لصنع مركبـة ثانية، التي أطلقت في آذار/ مـارس ٢٠١١، وقد تم حجب تفاصيل مهمتها عن العامة أيضاً.

انضمت نورثروب غرومن أيضاً لسباق الطائرات بدون طيار. باتت طائرتها التي تشتهر بها، غلوبل هوك، مثيرة للجدل بسبب الزيادات الكبيرة على كلفة صناعتها المفترضة. كانت الطائرة في الأصل جزءاً من برنامج للقوات الجوية، بكلفة ١٢ بليون دولار، يهدف إلى استبدال مركبات غير مأهولة حديثة بأسطول القوات الجوية القديم من طائرات يو ٢ للتجسس التي تعود إلى حقبة الخمسينيات من القرن المنصرم. يصف الجيش طائرة غلوبل هوك «بمنظومة الطيران غير المأهولة التي تحلق على ارتفاعات عالية، وتملك الكثير من الطاقة»، القادرة على مراقبة مساحات كبيرة من الأراضي، بالنقيض من مدى الرؤية المحدد بصورة أكبر، العائد للمركبات الجوية غير المأهولة الأصغر حجماً[٥٦]. ووفقاً لصحيفة نيويورك تايمز، فإن طائرة غلوبل هوك غير المأهولة للمراقبة تصنع في مصنع الشركة في بالمدايل، كاليفورنيا. يوظف المصنع، بما يجدر ذكره، «خمسين شخصاً لا أكثر»، استناداً إلى أن الاستثمارات في المجال العسكري لا تشكل الطريقة الأمثل لخلق وظائف في مرحلة يتراجع فيها الاقتصاد العالمي[٥٧].

تحدث المحلل الصناعي ريتشرد أبو لافيا إلى صحيفة التايمز، قائلاً: «تعد الغلوبل هوك منتجاً مؤثراً للغاية، ولكنه مكلف للغاية أيضاً». تجاوزت كلفة برنامج غلوبل هوك الضعف، منذ العام ٢٠٠١، كما تجري عليه العادة بالنسبة للبرامج العسكرية. تكلف كل طائرة الآن، وفق ما هو متوقع، مبلغاً هائلاً يعادل ٢١٨ مليون دولار. تبلغ كلفة الريبر، طائرة الطائرات بدون طيار المسلحة الأكبر، بالنقيض من ذلك، ٢٨ مليون دولار، والبريديتور نحو ٤,٥ ملايين دولار.

يُعد مبلغ ٢١٨ مليون دولار كبيراً للاستثمار في أي شيء. ولكن استثمار ذلك المبلغ في طائرة «أشارت اختبارات البنتاغون إلى أنه لا يمكن التعويل عليها بما يكفي للقيام بمراقبة دائمة» يمثل حماقة صرفاً.

يُعد ذلك مألوفاً للبنتاغون أيضاً، لسوء الحظ، الذي اعتاد على تبديد أموال دافعــي الضرائب من دون أن يتعرّض لما يذكر من العواقب، إن تعرّض لها في الأساس.

تظهــر المقارنة مع برنامــج البريديتور/ الريبر، بصــورة محددة، كم تفتقــر طائرة الغلوبل هوك إلى الفاعلية[٥٨]. نفذت طائرتا البريديتور/ الريبر المصنوعتــان من قبل جنرال أتوميكس، في نيســان/ أبريل ٢٠١٠، ما يزيد على مليون ساعة طيران، بما يشكل معلماً مهماً، مع صنع أكثر من أربعمئة طائــرة، وتنفيــذ ما يقــارب ٨٠٠٠٠ مهمــة جويــة، قتالية فــي معظمها. تتم مقارنة كل ذلك بنحو أربع طائرات غلوبل هوك في الخدمة، لا أكثر، وأقل من ٢٠٠٠ مهمة قتالية.

تحدث توماس بي. كريســتي، المســؤول الســابق عــن الاختبارات فــي البنتاغون، قائلاً: «لدينا، مجدداً، منظومة فشــلت فــي تحقيق متطلبات الفاعليــة والملاءمــة، ولكنهــا ســتدخل، بــلا ريــب، فــي مرحلــة الإنتــاج والاستخدام الكامل بصورة سريعة»[٥٩].

ربمــا لا يحدث ذلــك، بالمقابل. أعلن البنتاغــون في كانون الثاني/ يناير ٢٠١٢، متحدثاً عن قيود تتعلق بالميزانية، عن تغيير خططه لاســتبدال طائــرات غلوبــل هــوك بأســطوله مــن طائــرات يــو ٢ للتجســس. تحــدث مســؤول فــي وزارة الدفــاع قائــلاً إن كلفــة طائــرة غلوبــل هــوك الضخمــة «قــد تجــاوزت ما تم تحديــده من تمويــل لتلك الفئــة من الطائــرات، التي يتمحــور عملها حــول التقاط الصور في الجو»[٦٠]. لــم يفلح المبلغ الهائل حتــى، الذي يعــادل ١٦٥٠٠٠٠٠٠ مليــون دولار، كما تبــدو الحال عليه، الذي اســتثمرته نورثروب غرومن في رشــوة مسؤولين أمريكيين بين عامي ١٩٩٨-٢٠١١، لــم يفلــح فــي دفــع البنتاغــون إلــى التغاضي عــن الكلفة

الضخمة لطائرتها، والمشكلات المتعلقة بها [٦١]. تتمثل الميزة التي تتسم بقدر كبير من الأهمية، بالنقيض من ذلك، في ما يتعلق بالمركبات الجوية غير المأهولة، في رخصها وفاعليتها كأدوات تلبي المتطلبات العسكرية كافة في القرن الواحد والعشرين.

عملت شركة لوكهيد مارتن، المتعاقد العسكري العملاق الذي يقع مقره في بيثيزدا، ماريلاند -التي يزيد عدد موظفيها عن ١٣٠٠٠٠، وبلغت مبيعاتها مبلغاً هائلاً يعادل ٤٥,٨ بليون دولار في العام ٢٠١٠ عملت على تسيير شؤونها بتلك الطريقة أيضاً[٦٢]، عبر دفع مبلغ ١٤٢٠٠٠٠٠٠ دولار بهدف التأثير في المسؤولين بين عامي ١٩٩٨- ٢٠١١[٦٣] لتجني العائدات التي يأتي ثلاثة أرباعها من المبيعات العسكرية [٦٤].

تتمثل «هبة» لا تنفك الشركة تقدمها في صواريخها من نوع هيل فاير، السلاح المفضل الذي تواظب المركبات الجوية غير المأهولة على إطلاقه من السماء، بكلفة عالية تبلغ ٦٨٠٠٠ دولار للصاروخ الواحد. طورت لوكهيد مارتن نسخة أكثر فتكا حتى، وأسمتها تندّراً روميو هيل فاير. تتفاخر الشركة بأن صاروخ روميو، الذي ينضح اسمه بالإيحاء الجنسي، يمكن أن «يرصد الأهداف ويتعقبها قبل إطلاقه أو بعده»، «ويضربها من جانبها ومن خلفها من دون القيام بمناورات»، ويزيد، بفضل قدراته التوجيهية والملاحية العالية، من «زاوية صدم الصاروخ، ومدى فتكه»[٦٥]. يتحدث غاريث جينينغز، مدير التحرير في مجلة جاينز ميسيلز آند روكيتس، عن هذا الصاروخ القوي بحماسة، قائلاً: «يتعين عليك، في الأحوال العادية، أن تستخدم أنواعاً معينة من الصواريخ لتتمكن من مهاجمة أهداف معينة -الدبابات، العربات، المشاة. ولكن هذا الصاروخ يمكن الطائرة من مهاجمة «أهداف الفرصة» بمجرد أن تظهر في ساحة المعركة»[٦٦].

تعمل لوكهيد مارتن في مجال الطائرات بدون طيار أيضاً -بما يثبت أن الحجم ليس كل شيء- عبر صناعة ما هو أصغر من الطائرات، حيث تطور طائرة تدعى الساماراي مونوكوبتر، التي تورد مجلة بوبيولار ميكانيكس أنها استلهمت من «الحركة اللولبية لبذرة شجرة القيقب الساقطة». كان من الممكن أن يشكل ذلك صورة شعرية جميلة لو لم تتمثل الغاية من الطائرة في توفير «أداة قوية للجنود» في ساحة المعركة[٦٧].

لا ينتهي إسهام لوكهيد مارتن في عالم الحرب الجديد هنا، حيث تعمل أيضا على صنع مركباتها الجوية غير المأهولة للمراقبة في منشأتها التي تدعى «سكنك ووركس» في بالمدايل، كاليفورنيا. تتصدر تلك المركبات طائرة الستيلث آر كيو- ١٧٠ سينتينل، التي تستخدم بصورة رئيسة من قبل القوات الجوية الأمريكية، وتعرف بصورة أكبر، بسبب حجمها الضخم، «بوحش قندهار». وفيما عدا إقرار الجيش باستخدامه تلك الطائرة الضخمة، التي يبلغ طول جناحها ٤٠ قدماً تقريباً، فإنه يتسم بالكتمان الشديد في ما يتعلق بدورها في ساحة المعركة. ولكن وفقاً لمارك آمبايندر من الناشونال جورنال، فقد كانت تلك الطائرة، المصنوعة من قبل لوكهيد مارتن، ما وفر المراقبة لعملية قوات «السيلز» البحرية الخاصة التي انتهت بقتل زعيم القاعدة أسامة بن لادن [٦٨]. يتمثل ما هو أقل إثارة للشركة، بكل الأحوال، في حقيقة أن تلك الطائرة قد ظهرت على شاشات التلفزة، في أنحاء العالم كافة، بعدما استحوذت الحكومة الإيرانية عليها.

يتمثل ما تجلبه الشركات الكبيرة، كلوكهيد مارتن، بوينغ، ونورثروب غرومن، إلى سوق الطائرات بدون طيار، وتعجز جنرال أتوميكس والشركات الصغيرة الأخرى عن ذلك، يتمثل في القدرة على صناعة طائرات عالية الأداء أسرع من الصوت. يدلل ذلك على الانتقال من

استخدام الطائرات بدون طيار ضد القرويين في أفغانستان إلى استخدامها ضد القوات العسكرية المزودة بأسلحة ثقيلة حديثة، كالقوات الإيرانية، الكورية الشمالية، والصينية. ووفقاً للخبير في علم الروبوتات مارك غبرد، فإن «ما يكمن وراء ذلك يتمثل في شبح حرب الطائرات بدون طيار ضد بعضها، أو نزاعات عسكرية آلية على وجه الاحتمال، حيث تتوافر الإمكانية للردود العسكرية الآلية التي تؤدي للبدء في حروب، أو تصعيدها سريعاً، بين القوى الكبرى، وبين الدول المسلحة نووياً»[٦٩]. تهيأ لعالم تلتهم فيه الطائرات بدون طيار بعضها بدولارات ضرائبك.



وبالإضافة لشركات القطاع الخاص -المتعاملة مع الحكومة- كافة التي تعمل على تصنيع الطائرات بدون طيار، فإن الحكومة الأمريكية تقوم بأبحاثها وإنتاجها الخاص في هذا المجال.

يعمل الجيش، في قاعدة رايت باترسون التابعة للقوات الجوية في دايتون، أوهايو، على تصنيع ما يعرف «بالمركبات الجوية الدقيقة»، أو الأم أى فيز، التي تشبه وتحاكي الطيور الصغيرة والحشرات الكبيرة. أوردت صحيفة الدايلي مايل البريطانية أن باحثي الحكومة يأملون بأن تتمكن تلك المركبات الدقيقة قريباً من «إيجاد، تعقب، واستهداف الأعداء وهم يعملون في بيئات مدن معقدة»[٧٠].

بدأ العمل في منشأة دايتون، التي تمثل جزءاً من مختبر أبحاث القوات الجوية، في أيار/ مايو ٢٠١٠. أشار تقرير لمطبوعة تجارية محلية، في أعقاب مراسم تدشين منشأة القوات الجوية «التي تشبه القلعة» في ٢٧ أيار/ مايو، إلى أن القوات الجوية «تلح من أجل الحصول على طائرة دقيقة يمكنها أن تحلق في شارع، أو تنسل عبر نافذة مفتوحة لتتجسس

علـى أهداف معادية، أو تهاجمها»[71]. يحظى علماء تابعون للحكومة، من أجل تحقيق تلك الغاية، بمنشأة تجارب طيران داخلية كاملة، مزودة بستين كاميرا فيلمية، بغية محاكاة بيئة المدن.

يأمـل الجيش بـأن تجتذب تقنية القتـل «اللطيفة» تلـك على الدوام العلماء المهتمين بتصميم أدوات فتاكة على غرار أفلام جايمس بوند.

تحـدث دوغلاس بلايـك، نائب مدير إدارة المركبـات الجوية، إلى الدايلـي مايل قائلاً: «لا نرى في المنشـأة ملكية للقوات الجوية بالضرورة، بل نراها ملكاً للمجتمع».

كانـت الحدائق والمكتبات، في يوم من الأيام، تعد ملكا للمجتمع. أمـا في عصر الحـرب على الإرهـاب، فقد أضحت منشـآت تطوير الجيل القادم من الطائرات بدون طيار الدقيقة ملاعب البيسبول الجديدة.

تشير الدايلي مايل إلى أن الجهود لصناعة طائرات بدون طيار دقيقة تسـتند إلى عمل سـابق من قبل وكالة مشروعات البحث الدفاعي المتقدمة (دي أى آر بـي أى)، المحاطـة بالكثيـر مـن السـرية، لتطويـر «مجموعـة متكاملـة من المخلوقـات التي يتم الارتقاء بقدراتها بواسـطة الآلات»[72]. تمثل الوكالة، التي تم إنشـاؤها في العام ١٩٥٨ رداً على إطلاق السوفييت قمـر سـبوتنيك الصناعـي في العـام ١٩٥٧، تمثـل وفقاً لما تقـول «محرك الابتـكارات الرئيـس» لوزارة الدفـاع الأمريكية، الذي «يقوم بمشـروعات محـدودة في مدتها، ولكنهـا تحدث تغييراً جذرياً دائمـاً»[73]. لا يأتي ذلك التباهي عن عبث، استناداً إلى أن الوكالة يعزى إليها، بالنقيض من آل غور، إيجاد الإنترنت.

توظف الوكالة في الكثير من الأحيان، في سـبيل تلك الغاية، طرائق فريـدة لتطوير الجيل القادم من المعدات العسـكرية، وقـد نظمت بالفعل،

فـي آذار/ مارس ٢٠١١، مسـابقة للعامة، تحت عنـوان «صنع مركبة جوية غيـر مأهولة»، لتصميم طائرة بدون طيار «صغيرة وخفيفة بما يكفي لتحمل فـي حقيبة للظهـر»، وقادرة على الهبوط في مكان ما، كالنسـر، ونقل صور الفيديو لمدة ساعتين على الأقل إلى مشغليها[٧٤].

خصصـت الوكالـة مبلـغ ١٠٠٠٠٠ دولار لمـن يصمـم، مـن الأشـخاص أو المجموعـات، طائـرة الطائرات بدون طيـار الأفضل أداء، وتعـد تلك طريقـة غير مكلفة نسـبياً للحكومـة الأمريكيـة لتطوير أحدث أدواتهـا الحربية. يعـود منح فرصة تصميـم الطائرات بدون طيـار للعامة، عـلاوة على ذلك، بفائدة إضافيـة، تتمثل في جعل فكـرة حرب الطائرات بدون طيار طبيعية في نظرهم. وكما تحدث جيم مكوميك، المسـؤول في الوكالة، إلى الإعلام قائلاً: «نسـعى إلى تبسيط الشـروط لإشـراك الهواة والعلمـاء من المواطنين، حيث يكمن الهدف في تبـادل الأفكار بين أفراد مجتمع متعدد مترابط إلى حد ما، ومتحد عبر المصالح المشـتركة، وملهم بالإبداع والفكر الخلّاق».

يخيـل للمرء على وجه التقريب، حين يسـتمع إلى منطق الوكالة في اسـتجلاب المشاركين في أبحاث الطائرات بدون طيار، أنها تسعى لإنشاء مجتمع للهيبيين أو ما شابه. ولكن الجيش الأمريكي لا يهتم كثيراً بالسلام، المحبـة، والتفاهـم، ويضع نصب عينيه صنـع ما هو أكثر من مجرد طائرات بدون طيار خفيفة الوزن للمراقبة.

تطـور القوات الجويـة حالياً تقنية تدعى الغورغن سـتاير نسـبة إلى الوحـش ذي الأعين المتعددة في الميثولوجيـا اليونانية «الذي تحوّل أعينه التي لا تطرف من ينظر إليها إلى حجر». تبشـر هذه التقنية بتوسـيع قدرات المراقبـة بصـورة كبيـرة لطائـرات الريبـر التي تسـتخدمها في أفغانسـتان، ومناطق أخرى في الحرب على الإرهاب.

وكما يشير هذا الاسم المهول، فإن الغورغن ستاير تشكل منظومة، بكلفة ١٥ مليون دولار، تستخدم كاميرات أشعة تحت حمراء وكاميرات تقليدية متعددة، تزعم القوات الجوية بأنها ستوسع بصورة مؤثرة من مدى رؤية طائرة الطائرات بدون طيار في ساحة المعركة [٧٥]. ستمكن المنظومة الطائرات بدون طيار، وفق ما ينقل، من مراقبة التحركات كافة ضمن منطقة تبلغ مساحتها أربعة كيلومترات مربعة، بينما لم تكن التقنية تسمح منذ العام ٢٠١٠، على سبيل المثال، إلا بمراقبة ما يقل عن كيلومتر مربع واحد.

ولكن توجد مشكلة: يمكن ألا تعمل التقنية وفق ما يخطط لها. أشارت مسودة تقرير للقوات الجوية حصلت مجلة وايرد عليه إلى أن التجارب في كانون الأول/ ديسمبر ٢٠١٠ على تقنية الغورغن ستاير -التي تم استخدامها بصورة فعلية في ساحة المعركة في أفغانستان بحلول تلك المدة- قد أظهرت أنها «غير فاعلة وغير مناسبة من الناحية العملياتية»[٧٦].

لست بحاجة لأن تكون خبيراً عسكرياً لتعرف أن هذا سيّئ، ولست بحاجة لأن تكون نبياً لتدرك أن تلك الأخبار السيئة لن تمنع الجيش، على الأرجح، من إنفاق المزيد من أموال الضرائب الأمريكية على المشروع. ردت القوات الجوية بالفعل على تقرير مجلة وايرد بالتأكيد على تمسكها بتقنية الغورغن ستاير لأن «حياة أناس تتوقف على نوعية المعلومات الاستخبارية» التي تبشر بتقديمها.

يتوقع أن يتواصل هذا التركيز الهائل على المركبات غير المأهولة طيلة العقد ٢٠١١- ٢٠٢٠، مع قيام الولايات المتحدة بسبعة وسبعين بالمئة من البحث والتطوير في هذا المجال عبر العالم، وإنفاقها نحو تسعة وستين بالمئة من الأموال لتأمين تلك الطائرات[٧٧].

لا يعني ذلك القول إن صناعة الطائرات بدون طيار لا تزدهر في دول أخرى، كإسرائيل على سبيل المثال.

تحدث العقيد أورين بيربي، رئيس قسم تقنية قوات الدفاع الإسرائيلية، لصحيفة وال ستريت جورنال في العام ٢٠١٠، قائلاً: «نحاول أن نؤمن المركبات غير المأهولة في كل مكان في ساحة المعركة، ولكل كتيبة هناك. يمكننا أن نقوم بالمزيد من المهام من دون أن نعرض جندياً للخطر»[٧٨].

يُعد الوقت الراهن، بالفعل، مثالياً لصناعة الطائرات بدون طيار. تحدث غيورا كاتز، نائب رئيس شركة رافائيل للأنظمة الدفاعية المتقدمة، التي يقع مقرها في إسرائيل، إلى الجورنال قائلاً إنه يتوقع أن يصبح ثلث المعدات العسكرية الإسرائيلية بأكمله غير مأهول بحلول العام ٢٠٢٥، إن لم يكن قبل ذلك. أضاف قائلاً: «ننتقل إلى عصر الروبوتات».

لا تقوم الشركات الإسرائيلية المصنعة للطائرات بدون طيار -التي يبرز منها بالقدر الأكبر «أنظمة دفاع الطيران»، «أنظمة إلبيت»، و«صناعات طيران إسرائيل» (آي أى آي)- لا تقوم، كنظيراتها في أمريكا، بصناعة طائراتها للسوق المحلية فحسب. مُنحت إسرائيل، بفضل اقتصاد حربها الدائمة وتاريخها القتالي، ناهيك عن استخدامها المبكر للمركبات الجوية غير المأهولة، الذي يعود إلى احتلال سيناء في السبعينيات من القرن المنصرم، مُنحت بفضل ذلك ميزة تنافسية في ما يتعلق بصادراتها. تتم الدعاية، لما «أثبتت فاعليته قتالياً» من التقنية الإسرائيلية، من قبل الجيش الإسرائيلي، الإعلام، وشركات الأسلحة. يُروج دعائياً لطائرة «أنظمة إلبيت» هرميز ٤٥٠ -التي بيعت لعشر دول على الأقل- باعتبارها «فاعلة من الناحية العملياتية في جيش الدفاع الإسرائيلي»، حيث يتم التأكيد على تلك الحقيقة بواسطة ختم أصفر بارز يحوي عبارة «مثبت الفاعلية قتالياً» في مقدمة كتيبها الدعائي[٧٩].

وقّعت الحكومة الإسرائيلية، في العام ٢٠٠٩، على اتفاق يقضي ببيع ما قيمته ٥٠ مليون دولار من الطائرات بدون طيار إلى روسيا[٨٠]. أعقبت تلك الصفقة بصورة مباشرة محادثات لعقد صفقة أخرى بقيمة ١٠٠ مليون دولار[٨١]. سلمت شركة صناعات الطيران الإسرائيلية، المملوكة من قبل الدولة، بحلول العام ٢٠١١، ١٢ طائرة بدون طيار إلى روسيا كجزء من عقد بقيمة ٤٠٠ مليون دولار[٨٢].

تملكت الحماسة روسيا أيضاً، منذ العام ٢٠١١، للحصول على طائرة بدون طيار إسرائيلية ضخمة مسلحة تدعى الهيرون. يمكن لتلك الطائرة، التي تساوي في الحجم طائرة بوينغ ٧٣٧ على وجه التقريب، أن تبقى في الجو ليوم كامل تقريباً قبل الحاجة إلى إعادة تزويدها بالوقود.

بدأت إسرائيل، كأي تاجر، بإعطاء روسيا عيّنة تجريبية لا أكثر، لتعلق في الشراك في نهاية المطاف. وهي ليست الوحيدة. أشار جاك كيميا، كبير المهندسين في قسم الطائرات بدون طيار في شركة آي أى آي، في العام ٢٠١١، قائلا: «تعد إسرائيل المصدر الأبرز في العالم للطائرات بدون طيار، مع بيع أكثر من ١٠٠٠ طائرة لاثنين وأربعين بلداً»[٨٣].

تستخدم تركيا طائرات بدون طيار إسرائيلية الصنع للقيام بعمليات مراقبة للأكراد في شمال العراق. اشترت الهند طائرات بدون طيار فتاكة كجزء من سباق التسلح الطويل مع الجارة باكستان [٨٤]، التي صنعت للتو طائرة بدون طيار مسلحة [٨٥].

يتعاون البريطانيون مع الإسرائيليين في صناعة طائرتهم المنتظرة طويلاً، والمؤجلة كثيراً، الواتشكيبر، التي تستند إلى طائرة هرميز ٤٥٠ الإسرائيلية، وتطور من قبل شركة إسرائيلية بريطانية مشتركة. تطور الحكومة البريطانية، بصورة منفصلة، مع الشركة الخاصة بي أى إي سيستيمز،

طائـرة المانتيس غير المأهولة، التي تحلق بصورة مسـتقلة (من دون مشـغل عـن بعد) وفق رحلة طيران مبرمجة مسـبقا. يعتـزم البريطانيون، علاوة على ذلك، الدخول في مشروع لصناعة المركبات الجوية غير المأهولة مع فرنسا.

وبالرغـم مـن أن إسـرائيل والولايـات المتحـدة تعـدان الرائدتيـن فـي تقنيـة الطائرات بدون طيـار، فمن الممكـن أن يتـم تجاوزهما في مدة ليسـت بالطويلـة. فاجـأت الصين العديـد مـن المسـؤولين الغربيين، كما أوردت صحيفـة وال سـتريت جورنـال، حين كشـفت النقـاب عمّا لا يقل عن خمسـة وعشـرين نوعاً مختلفاً من المركبات الجويـة غير المأهولة في عرض تجاري في تشـرين الثاني/ نوفمبر ٢٠١٠، بعد أربع سنوات لا أكثر من كشـفها النقاب عن طائرتها الأولى [٨٦]. أوردت الصحيفة، علاوة على ذلك، أن «تقدم الصين الواضح سيدفع آخرين على الأرجح، الهند واليابان على وجه الخصوص، للتسريع من برامجهم لتطوير المركبات الجوية غير المأهولـة، أو الحصول عليها». قامت الصيـن، التي تحل في المرتبة الثانية بفـارق كبيـر عن الولايـات المتحدة في الإنفـاق العسـكري عالمياً، قامت بالفعـل بصناعة طائرتين بدون طيار، التيروداكتل والسـاور دراغون، اللتين تحاكيـان على التوالي طائرة البريديتور المسـلحة، ونظيرتها للمراقبة، التي تشبه طائرة يو ٢، الغلوبل هوك.

تدخـل اللعبـة، علاوة علـى ذلك، القـوى العسـكرية الأصغر حتى بـدأت إيـران، بصـورة فعلية، فـي اسـتخدام طائراتها الخاصة للاسـتطلاع -تم إسـقاط واحـدة في العـراق في العـام ٢٠٠٩ [٨٧]- ناهيـك عن العمل علـى صناعـة نماذج جاهزة للأسـلحة، إن لـم تكن قد بدأت باسـتخدامها فعلاً [٨٨]. أوردت وسـيلة إعلامية حكومية إيرانية، في آذار/ مارس ٢٠١١، أن الجمهوريـة الإسـلامية قد صممت «صحنـاً طائراً غير مأهـول»، مزوداً بزوج من كاميرات ١٠ ميغابيكسل لأغراض المراقبة الجوية.

وقد أعطت الولايات المتحدة دفعة لبرنامج إيران للطائرات بدون طيار، وإن لم يكن بشكل مقصود، حين تم إسقاط طائرة من طراز آر كيو- ١٧٠ سينتينل، في كانون الأول/ ديسمبر ٢٠١٢، بعد عبورها أجواء إيران، كجزء -وفق ما نقل- من برنامج مشترك للتجسس بين السي آي أى والجيش الأمريكي. وهكذا وقعت التقنية المحاطة بالسرية التامة -التي أنفقت الولايات المتحدة ملايين الدولارات، وأمضت العديد من السنوات لتطويرها- وقعت بكل بساطة بين يدي عدو رسمي لها.

تحدث مسؤول أمريكي إلى صحيفة لوس آنجيليس تايمز، قائلاً: «إنه أمر سيئ، سيحصلون على كل شيء. وكذلك الصينيون والروس»[٨٩]. عدت تلك التقنية قيمة للغاية بحيث فكرت إدارة أوباما حتى في شن ضربة جوية، أو إرسال فريق عمليات خاصة إلى إيران لتدمير الطائرة التي تم إسقاطها[٩٠]. بوسع إيران، روسيا، والصين أن تشكر دافعي الضرائب الأمريكيين على تلك الهدية.

قامت في تلك الأثناء شركتان -بايرماونت غروب، وأيروسد هولدينغز- في جنوب أفريقيا، في أيلول/ سبتمبر ٢٠١١، بكشف النقاب عن «طائرة مدمجة قالتا إنها تتمتع بقدرات طائرة بدون طيار، مروحية هجومية، وطائرة مراقبة»، وفقاً لصحيفة وال ستريت جورنال[٩١].

تم إنفاق بلايين وبلايين الدولارات، من أمريكا إلى آسيا، على الآلات، البرمجيات، والعمال لمجرد صناعة طائرة آلية أكثر فتكاً. باتت أفضل مراكز الأبحاث والجامعات تعتمد على العقود العسكرية. لا يمكن للمرء، بكل الأحوال، أن يدرك الكلفة الكاملة لهذه العسكريتاريا إلا حين يفكر في ما لم يتم تكريس الوقت والمال من أجله -الرعاية الصحية، التعليم، والبنية التحتية. يكرس العديد من العلماء البارزين في العالم طاقتهم- عوضاً عن إجراء الأبحاث حول تقنية شمسية أفضل،

أو الجيل القادم من صانعي السلام؛ لابتكار أحدث وأفضل آلات القتل غير المأهولة.

علق الرئيس الأسبق آيزنهاور على الكلفة العالية لتكريس المال للحرب، والإعداد لها، في العام ١٩٥٣، بما لا يزال يتسم بالتأثير بعد كل تلك السنين. انتقد آيزنهاور بقوة، بينما كان يخاطب مجموعة من محرري الصحف، التبديد الهائل للمال والقوة البشرية في تطوير أشياء لن يستخدمها البلد، بصورة افتراضية، بالمطلق.

تحدث آيزنهاور قائلاً: «يرمز كل مدفع يصنع، وكل سفينة حربية تبحر، وكل صاروخ يطلق، في نهاية المطاف، إلى سرقة من أولئك الذين يجوعون ولا يتم إطعامهم، ويبردون ولا يتم إكساؤهم. لا يبدد هذا العالم المال فحسب على السلاح، بل عرق عماله، عبقرية علمائه، وآمال أطفاله».

ينشغل بعض من ألمع علماء أمريكا الآن بصناعة أسلحة جديدة للحرب لحساب تجار الموت. وكما تساءل آيزنهاور: «ألا توجد طريقة أخرى يمكن للعالم أن يعيش عبرها؟».

الطائرات بدون طيّار هنا، هناك، في كل مكان

«تحدث النائب الجمهوري عن كاليفورنيا برايـن بيلبراي قائلاً: إن الطائـرات بدون طيار تحظى بشـعبية كبيـرة للغاية بحيث يمكن أن تنتخب طائرة البريديتور رئيساً»(٩٢).

ويليام بوث، الواشنطن بوست

دخلت الطائرات بدون طيار المشهد بقوة في خضم الحرب الأمريكية على الإرهاب، والحرب على العراق تحديداً. تمّ ترويج الحرب ذاتها للشعب الأمريكي والمجتمع الدولي، بصورة جزئية، بما يثير السخرية، استناداً إلى التهديد المزعوم من قبل الطائرات بدون طيار في حال وقوعها في الأيدي الخطأ.

سعى كولن باول، وزير الخارجية الأمريكي في حينه، في ٥ شباط/فبراير ٢٠٠٣، في عرض أمام مجلس الأمن التابع للأمم المتحدة، إلى ترويج الحرب القادمة للعالم المتشكك عبر الإشارة إلى امتلاك العراق المزعوم لطائرات بدون طيار مسلحة يمكن أن تستخدم لمهاجمة الغرب بعناصر كيميائية أو بيولوجية. تمّ كشف زيف ذلك الادعاء فور صدوره عن باول على وجه التقريب -كانت الطائرات بدون طيار في حينه

تستخدم للاستطلاع لا أكثر - ولكن القصة أدت الغاية منها، ودفعت إعلام المصالح للتصريح بأن المعتوهين وحدهم من لا يتخوفون من مجنون مسلح بطائرات آلية قاتلة [٩٣]. تتمثل بقية القصة في تاريخ ينضح بالدماء.

منحت الحرب في العراق الجيش الأمريكي الفرصة لتطوير طائراته غير المأهولة الفتاكة. سيّر الجيش الطائرات بدون طيار، في عامي ٢٠٠٣ و٢٠٠٤، لمدة ١٥٠٠ ساعة في الشهر على وجه التقريب، وفقاً لصحيفة يو أس أي توداي، ليرتفع ذلك الرقم، بحلول منتصف عام ٢٠٠٦، إلى نحو ٩٠٠٠ ساعة في الشهر [٩٤] أضحت الولايات المتحدة في نظر الكثيرين -خارج استوديوهات محطتي فوكس والسي أن أن- أضحت، لا العراق، المجنون المسلح بطائرات آلية قاتلة.

عجزت القوات الجوية عن تأمين ما يكفي من المركبات غير المأهولة لحربيها في العراق وأفغانستان بدءاً من طائرات البريديتور والريبر الصائدة القاتلة، مروراً بطائرات الغلوبل هوك للمراقبة، وانتهاء بطائرات الرايفن الأصغر والأقل كلفة. تحدث العقيد في القوات الجوية لاري غورغاينيس إلى مراسل الأسوشيتيد برس، في العام ٢٠٠٨، قائلاً: «يتجاوز الطلب بكثير قدرة وزارة الدفاع بأكملها على توفير تلك الطائرات»[٩٥].

كانت القوات الجوية تسير في أفغانستان، بحلول العام ٢٠١٠، عشرين طائرة بريديتور على الأقل على امتداد الأراضي الأفغانية المعادية في كل يوم، لتوفر تلك الطائرات جرعة يومية تعادل نحو خمسمئة ساعة من صور الفيديو[٩٦]. كانت معظم الطائرات بدون طيار تستخدم لأغراض المراقبة. تحدث ضابط في الجيش لصحيفة كريستشن ساينس مونيتور، قائلاً: «نحلل في كل يوم صوراً يمكن أن تقتضي منّا، على سبيل المثال، أن نميّز بين الزراعة العادية وإنتاج الخشخاش»[٩٧].

ولكن تلك الطائرات كانت تستخدم أيضاً لاستهداف مقاتلي طالبان في المناطق النائية، ولدعم القوات الأمريكية في المعارك. ووفقاً لأرقام القوات الجوية، فقد قامت الطائرات بدون طيار بأربع وسبعين ضربة في العام ٢٠٠٧، ١٨٣ في العام ٢٠٠٨، و٢١٩ في العام ٢٠٠٩.

تم استخدام الطائرات بدون طيار التجسسية في العراق للغايات كافة، من حماية حقول النفط إلى تعقب المتمردين المفترضين، والتمييز بين «إنتاج البلاستيك والمتفجرات المنزلية الصنع»[٩٨]. تمّ إرسال الطائرات بدون طيار الفتاكة لاستهداف المباني الحكومية في بغداد، ولقتل المسلحين الذين يطلقون نيرانهم على المواقع الأمريكية[٩٩]. بات الجيش الأمريكي في العراق يعتمد على الطائرات بدون طيار بصورة أكبر حتى مع بدئه في تخفيض عدد قواته في العام ٢٠٠٨. سجلت إدارة بوش رقماً قياسياً للضربات القاتلة في الوقت ذاته تقريباً الذي قاربت فيه مغامرته على الانتهاء، وكان كل من السياسيين الأمريكيين والعراقيين يحاول إيجاد الطريقة الأمثل لإخراج القوات الأمريكية من البلاد مع الحفاظ على ماء الوجه.

أثبتت الطائرات بدون طيار فائدتها أيضا بعد «الانسحاب» الأمريكي المزعوم من العراق في كانون الأول/ ديسمبر ٢٠١١. تجلى الانسحاب -الذي تمّ بموجب اتفاقية وضع القوات، التي تمّ التفاوض عليها من قبل إدارة بوش- في مغادرة الغالبية الساحقة من القوات المقاتلة، ليبقى مع ذلك أكثر من ١١٠٠٠ من موظفي وزارة الخارجية -مع وجود أكبر سفارة في العالم في بغداد- بالإضافة إلى قوة خاصة من المرتزقة، يبلغ تعدادها ٥٠٠٠، لحمايتهم، ناهيك عن أسطول من المركبات الجوية غير المأهولة.

وكما أوردت صحيفة نيويورك تايمز، وأقرّ الرئيس أوباما في كانون الثاني/ يناير ٢٠١٢، فقد واصلت الطائرات بدون طيار الأمريكية

للمراقبة التحليق في المجال الجوي للعراق الذي يتمتع بالسيادة ظاهرياً، بعد وقت طويل من مغادرة آخر الأمريكيين البلاد كما هو مفترض[١٠٠]. تمثّل المبرر لذلك في حماية موظفي وزارة الخارجية كافة الذين تركتهم الولايات المتحدة للتدخل في شؤون البلاد، بينما كانت الحقيقة متجسدة في أن المركبات الجوية غير المأهولة لم تكن تسير من قبل الجيش، بل وزارة الخارجية ذاتها، ذراع الحكومة الأمريكية التي كانت ترتبط في يوم ما بالدبلوماسية، لا الطائرات بدون طيار.

شددت وزارة الخارجية، حين تمّ الكشف عن برنامجها للطائرات بدون طيار، على أن أسطولها من المركبات الجوية غير المأهولة لم يكن يستخدم إلا للمراقبة، وأن تلك الطائرات لم تكن مسلحة بالمجمل، ولا يمكن تسليحها حتى. شكك العراقيون بدورهم في ذلك بكل الأحوال.

تحدث رجل الأعمال العراقي هشام محمد صلاح إلى صحيفة التايمز، قائلاً: «نسمع من وقت لآخر أن الطائرات بدون طيار قد قتلت نصف سكان قرية في باكستان أو أفغانستان بذريعة ملاحقة الإرهابيين. نخشى من أن يحدث ذلك في العراق تحت ذريعة أخرى».

* * *

وبينما كان سلاح الجو منشغلاً في المطاردة والقتل في أفغانستان والعراق، حيث تنخرط الولايات المتحدة في حربين كبيرين بقواتها البرية، فقد قامت وكالات أخرى -غير عسكرية حتى- بتسيير الطائرات بدون طيار القاتلة في أماكن عبر العالم مثل باكستان، اليمن، الفليبين، والصومال، حيث لا تنخرط الولايات المتحدة بصورة رسمية في الحرب. قامت القوات الجوية الأمريكية، السي آي أى، قيادة العمليات الخاصة المشتركة (جاى أس أو سي)، ومجموعات المرتزقة كبلاك ووتر (التي تطلق على

نفسها الآن الاسم الاحترافي أكاديمي)، قامت، في عقد من الزمن لا أكثر، ببناء شبكة عالمية من القواعد لتشغيل، اختبار، صيانة، تسليح، وإطلاق الطائرات بدون طيار. تحاط العديد من أجزاء ذلك البرنامج بالسرية، وبخاصة تلك التي تدار من قبل السي آي أى وقيادة العمليات الخاصة المشتركة، مما يجعل تقييم مداه الكامل عسيراً.

كانت الحكومة الأمريكية تشغل، منذ تشرين الأول/ أكتوبر ٢٠١١، ما لا يقل عن ستين قاعدة للطائرات بدون طيار في البلاد وحول العالم، وفقاً للصحفي نيك تورس، من مناطق نائية في أفغانستان وباكستان إلى أثيوبيا، جيبوتي، أوزبكستان، قطر، تركيا، والإمارات[١٠١]. أوردت صحيفة الواشنطن بوست، في تقريرها الذي يسلط الضوء على شبكة أوباما العالمية للطائرات بدون طيار القاتلة، قائلة إن الشبكة تتضمن «العشرات من المنشآت السرية، بما يشمل مركزين عملياتيين في الساحل الشرقي، قمرات قيادة افتراضية للقوات الجوية في الجنوب الغربي، وقواعد سرية في ستة بلدان، على الأقل، في قارتين»[١٠٢].

يدار البرنامج الأكثر شمولاً -وفتكاً- للطائرات بدون طيار خارج مناطق الحرب من قبل السي آي أى. لا تعترف الأخيرة حتى، في العلن، بوجود ذلك البرنامج. جادلت الوكالة، حين حاول اتحاد الحريات المدنية الأمريكي الحصول على معلومات عن عمليات قتل السي آي أى بالطائرات بدون طيار، جادلت -وأيدتها المحكمة- على أن «حقيقة وجود أو عدم وجود» ذلك البرنامج حتى تعد سرية. ولكن ربما أضحت فرقة السي آي أى للاغتيال بالطائرات بدون طيار تمثل، إلى جانب ترسانة الأسلحة النووية الإسرائيلية، الأمر الأكثر سوءاً المحاط بالسرية في العالم.

عمد ليون بانيتا، وزير الدفاع ومدير السي آي أى السابق، في تشرين الأول/ أكتوبر ٢٠١٠، بينما كان يلقي خطاباً علنياً في قاعة مليئة بالجنود

الأمريكيين المتمركزين في إيطاليا، عمد بصورة فعلية إلى إطلاق نكتة حتى عن البرنامج.

خاطب بانيتا القوات، وفقاً للأسوشيتيد برس، قائلاً: «من الواضح أنني أحظى في هذه الوظيفة بأسلحة تفوق إلى حد بعيد ما كان لدي في السي آي أى، مع أن طائرات البريديتور ليست بذلك السوء»[١٠٣].

أشار بانيتا، في وقت لاحق من ذلك اليوم، إلى أن القوات الأمريكية قد ساعدت على تغيير النظام في ليبيا باستخدام طائرات الغلوبل هوك للمراقبة، والبريديتور - الصائدة القاتلة، التي قال إنها «كانت حاضرة بقوة في وظيفته السابقة».

لم يتم تأنيب بانيتا لكشفه معلومات غاية في السرية، ومزاحه بشأن ما يعده الكثير من الخبراء القانونيين جرائم حرب. عندما يقوم جندي برتبة متدنية كبرادلي مانينغ، في عرف واشنطن الإمبراطوري المنحرف، بتسريب معلومات سرية لهدف واضح يتمثل في إطلاع العالم على وقوع جرائم حرب؛ فإنه يواجه السجن مدى الحياة، أما عندما يفضح بانيتا الأسرار ويطلق الدعابات، كما فعل الرئيس أوباما حين تحدث مازحاً عن قتل فرقة جوناز برذرز بطائرات البريديتور، فإن ذلك يقابل بضحكة مجلجلة من قبل المؤسسة الحاكمة، لا توجيه التهم.

لم تكن السي آي أى، المتأثرة بفضائح اغتيال سابقة، تستخدم الطائرات بدون طيار، قبل ١١ أيلول/ سبتمبر، إلا للمراقبة. نقل مستشارو مكافحة الإرهاب عن مدير السي آي أى جورج تينيت، في الأسبوع الذي سبق هجمات ١١/ ٩، قوله إن السي آي أى «سترتكب خطأ رهيباً إن استخدمت مثل ذلك السلاح»[١٠٤]. تغير كل شيء بعد ١١/ ٩. طالبت الوكالة بمذكرة سرية -وتلقتها من الرئيس بوش- تمنحها الحق باستهداف

القاعدة بصورة فعلية في أي مكان في العالم. بدأت السي آي أى، مع تلقيها الضوء الأخضر للقتل، في تشغيل طائراتها غير المأهولة لتلك الغاية.

يُعد برنامج السي آي أى، الذي بدأ في عهد بوش وتوسع في عهد أوباما، سرياً، وترفض الوكالة الكشف عن أماكن عملها بموجبه، وشخصية المسؤول عنه، وكيفية انتقاء الأهداف وإقرارها، وعدد من قتلوا، وتشدد على أن الكشف عن أي معلومات يمكن أن يساعد العدو. تحدث المقرر الخاص السابق للأمم المتحدة فيليب ألستون، تعليقاً على محاولته الحصول على أجوبة عن أسئلة رئيسة من كل من إدارتي بوش وأوباما، قائلاً إنهم «تجاهلوه»[١٠٥].

انصبّ تركيز السي آي أى بصورة رئيسة على باكستان، حيث تستهدف ضرباتها الصاروخية المشتبه فيهم من ناشطي القاعدة، بالإضافة إلى المسلحين الذين يعتقد أنهم متورطون في هجمات عبر الحدود على القوات أو المنشآت الأمريكية في أفغانستان.

ووفقاً لمكتب الصحافة الاستقصائية، فقد قامت السي آي أى، بين عامي ٢٠٠٤-٢٠١١، بشن أكثر من ثلاثمئة ضربة بالطائرات بدون طيار في باكستان، مع ارتفاع كبير يتمثل في ١١٨ ضربة في العام ٢٠١٠، لتقتل ما بين ٢٣٧٢ و٢٩٩٧ شخصاً على وجه التقريب. علقت السي آي أى ضرباتها الصاروخية، في نهاية العام ٢٠١١، في محاولة لإصلاح العلاقات التي تضررت بشدة مع الحكومة الباكستانية بعدما قتلت مروحيات أمريكية عن طريق الخطأ أربعة وعشرين جندياً باكستانياً في تشرين الثاني/ نوفمبر ٢٠١١. تحدث مسؤولون استخباريون باكستانيون، حين استؤنفت الضربات في منتصف كانون الثاني/ يناير ٢٠١٢، بما يناقض رغبة الشعب الباكستاني وحكومته، تحدثوا قائلين إن هجمات الطائرات بدون طيار توشك أن تدفع بالعلاقات المتوترة بين البلدين إلى حافة الانهيار.

تحـاط شـريكة السـي آي أى، قيـادة العمليـات الخاصة المشـتركة التابعة للجيش، بقدر أكبر من السرية حتى، وتعد أقل عرضة للمحاسبة من وكالة الاستخبارات.

تختـص القيـادة، التي أوجدت في العام ١٩٨٠، بالعمليات السـرية الصغيـرة. تمثلـت مهمتهـا الرئيسـة، منـذ ١١/ ٩، في ملاحقـة الإرهابيين والقضـاء عليهم، وكذا الأمر بالنسـبة للخلايـا الإرهابية، فـي أنحاء العالم كافـة. يعزى إليها الإشـراف على الغارة التي قتلت أسـامة بـن لادن، وهي تملـك، بالإضافـة إلـى مهمتها في إرسـال القـوات السـرية، فريقـاً ضارباً للطائـرات بـدون طيار، يعمل بمسـاعدة مرتزقـة يتم التعاقد معهم. شـنت القيادة ضربات قاتلة في اليمن والصومال، ولكنها ترفض، كالسـي آي أى، الكشف عن أي من جوانب عملياتها لمكافحة الإرهاب.

تخضع قيادة العمليات الخاصة المشـتركة للرئيس بصورة مباشـرة، وكمـا يورد مـارك آمبايندر مراسـل الناشـونال جورنال، فإنهـا «تعمل عبر العالم استناداً إلى المشروعية التي تحظى بها الأوامر الرئاسية السرية»[١٠٦]. يصف جون ناغل، مستشار مكافحة التمرد السابق للجنرال بترايوس، حملة القيادة للقتل والاعتقال «بآلة القتل لمكافحة الإرهاب التي أضحت صناعة على وجه التقريب»[١٠٧].

تأتـي أهـداف قيادة العمليات الخاصة المشـتركة من لائحة سـرية تدعـى «اللائحة المشـتركة للأهـداف ذات الأولوية» (جـاى بي إي أل). ووفقـاً لماثيـو هو -ضابط البحرية ومسـؤول الخدمة الخارجية السـابق، الذي اسـتقال في العام ٢٠٠٩ لأنه شـعر بأن تكتيكات الولايات المتحدة لـم تكن تسـهم إلا في زيـادة التمرد- فـإن اللائحة تتضمن أسـماء صنّاع للمتفجـرات، قـادة، مموليـن، منسـقين لنقـل الأسـلحة، وعامليـن فـي العلاقات العامة حتى[١٠٨].

يُعد المتعاقدون الخصوصيون شريكاً رئيساً آخر في حرب الطائرات بدون طيار. أوردت صحيفة نيويورك تايمز، في آب/ أغسطس ٢٠٠٩، قائلة: «تلعب الشركة المعروفة سابقا ببلاك ووتر، من قسم سرّي في مقرها في نورث كارولاينا، دوراً في برنامج واشنطن الأهم لمكافحة الإرهاب: استخدام الطائرات بدون طيار المسيّرة عن بعد لقتل قادة القاعدة[١٠٩]. يتم تنفيذ عمليات القسم في قواعد سرية في باكستان وأفغانستان، حيث يجمع متعاقدو الشركة ويحملون صواريخ الهيل فاير، والقنابل الموجهة بالليزر التي تزن ٥٠٠ رطل، على طائرات البريديتور المسيّرة عن بعد، وهو ما كان يتم سابقاً على أيدي العاملين في (السي آي أى)».

كشف جيريمي سكايهل مراسل مجلة النايشن، بعد بضعة أشهر من نشر تقرير التايمز، أن العلاقة بين بلاك ووتر وبرنامج الحكومة الأمريكية السري للاغتيال بالطائرات بدون طيار تعد أعمق حتى. أورد سكايهل أن الشركة كانت منخرطة بقوة في برنامج الطائرات بدون طيار الذي لا يدار من قبل السي آي أى فحسب، بل قيادة العمليات الخاصة المشتركة التابعة للجيش، والمحاطة بالسرية التامة.

تحدث مصدر في الاستخبارات العسكرية الأمريكية، وفق ما نقل سكايهل، قائلاً: «تدير البلاك ووتر البرنامج لكل من السي آي أى، وقيادة العمليات الخاصة المشتركة». وبينما تعزى العديد من ضربات الطائرات بدون طيار المعلنة في باكستان إلى السي آي أى، وفقاً للمصدر ذاته، فإن البرنامج الموازي لبلاك ووتر والقيادة يعد المسؤول عن معظم الخسائر بين المدنيين.

يضيف مصدر سكايهل قائلاً: «عندما يقتل المدنيون، فإن الناس يلقون باللائمة على السي آي أى لما تتسبب به من قتل عشوائي، ولكن ما يحدث في ٥٠ بالمئة من الحالات، على الأقل، يتمثل في أن قيادة

العمليات الخاصة المشتركة تقوم باستهداف شخص ما استناداً إلى المعطيات الاستخبارية البشرية التي تتلقاها، أو تقوم بانتقائها، أو التي يتم إطلاعها عليها، لتقتل ذلك الشخص. تجسد تلك الآلية طريقة عملها».

وبينما لا يعرف عن السي آي أى، إلى حد بعيد، أنها تحترم حياة الأجانب، فإن بلاك ووتر والقيادة لا تباليان بصورة أكبر حتى بقتل المدنيين، كما هو مفترض، استناداً إلى أن برنامجهما للطائرات بدون طيار يعد أقل عرضة لرقابة الكونغرس.

يتابع المصدر، وفقاً لسكايهل، قائلاً: «لا تحظى عمليات القتل المستهدف بالكثير من الشعبية الآن، وتعلم السي آي أى ذلك. لا يخضع المتعاقدون، وموظفو القيادة الذين يعملون بتفويض سري على وجه الخصوص، لرقابة الكونغرس، مما يجعلهم غير مكترثين. لو كانوا يلاحقون شخصاً ما، وكان معه في البناء أربعة وثلاثون آخرون، فإن خمسة وثلاثين شخصاً سيموتون. ينظر أولئك إلى الأمر بهذه العقلية».

ينخرط كل من السي آي أى وقيادة العمليات الخاصة المشتركة، في اليمن، في حملة قصف سرية تهدف إلى قتل المشتبه فيهم من أعضاء القاعدة في شبه الجزيرة العربية. يملك كل منهما فريقاً ضارباً للطائرات بدون طيار، مع وجود أهداف منفصلة ولكنها متداخلة. وبالنقيض من باكستان، حيث تملك السي آي أى تفويضاً رئاسياً لشن الضربات كما تشاء، فإن كل ضربة في اليمن تتطلب موافقة البيت الأبيض، وتأتي الأهداف المفترضة من لائحة، يتم إقرارها، للمقاتلين الذين يعدون، من قبل مسؤولي الاستخبارات الأمريكية، متورطين في التخطيط لهجمات ضد الغرب[١١٠].

شنت السي آي أى، في تشرين الثاني/ نوفمبر ٢٠٠٢، ضربتها الأولى بطائرة بدون طيار في اليمن، لتقتل القائد في القاعدة أبا علي

الحارثي، المشتبه فيه في تفجير المدمرة يو أس أس كول في العام ٢٠٠٠، بالإضافة إلى خمسة أشخاص آخرين. تمّ في عهد إدارة أوباما، منذ كانون الثاني/ يناير ٢٠١٢، توجيه نحو خمس عشرة ضربة في اليمن، دون أن يعرف، بكل الأحوال، كم شن منها بواسطة الطائرات بدون طيار، أو الطيران التقليدي وصواريخ الكروز.

قتلت ضربة بطائرة بدون طيار، في أيار/ مايو ٢٠١٠، عن طريق الخطأ، جابر الشبواني، نائب محافظ مأرب، والوسيط البارز بين الحكومة اليمنية وتنظيم القاعدة في شبه الجزيرة العربية. قُتل الشبواني بينما كان يتباحث مع قائد في القاعدة حول إجراء مفاوضات على تسوية مع الحكومة. قتل في الهجوم أيضاً ثلاثة من حراسه، وناشطان من تنظيم القاعدة في شبه الجزيرة العربية [١١١].

أبدت الحكومة اليمنية أسفها لمقتل الشبواني، ولكن الحادث دفع أفراداً من قبيلته لمهاجمة منشآت حكومية، بما يشمل معسكراً للجيش، خطاً لأنابيب النفط، وخطوطاً للطاقة الكهربائية [١١٢]. قتلت ضربة بطائرة بدون طيار في جنوب اليمن، في ٣٠ كانون الثاني/ يناير ٢٠١٢، اثني عشر على الأقل من مقاتلي القاعدة المزعومين، بما يشمل أربعة قادة محليين.

تمّ الهجوم الأبرز في اليمن في أيلول/ سبتمبر ٢٠١١، حين استخدمت السي آي أى طائرة بريديتور لاغتيال مواطنين أمريكيين، أنور العولقي وسمير خان، المروجين المزعومين لمنظمة إرهابية يمنية مستلهمة من القاعدة [١١٣]. مثلت تلك العملية أول حالة معلنة تقوم الحكومة الأمريكية فيها بإعدام مواطنيها من دون اتهامهم بجريمة، أو منحهم محاكمة من قبل محلفين من نظرائهم. قُتل عبد الرحمن، نجل العولقي الذي يبلغ ستة عشر عاماً، بعد مضي ما يقل عن شهر، جراء ضربة بطائرة بدون طيار أيضاً [١١٤].

تُمنع السي آي أى بموجب القانون الأمريكي، بما يثير السخرية، من التجسس على الأمريكيين حيث تترك تلك المهمة للأف بي آي. يمكن للوكالة، بكل الأحوال، كما تبدو الحال عليه، أن تقتل الأمريكيين عبر البحار بأمر من الرئيس، من دون التلويح بالمحاسبة حتى.

ووفقاً لبرقية صادرة عن وزارة الخارجية، نشرها الموقع الالكتروني الفاضح ويكيليكس، فقد تمّ شن الضربات في اليمن بموافقة الدكتاتور الحاكم للبلاد منذ مدة طويلة، علي عبد الله صالح، الذي جدد التأكيد للمسؤولين الأمريكيين، في كانون الثاني/ يناير ٢٠١٠، على أنه «سيواصل القول بأنه من يشن الغارات، لا هم»[١١٥]. يشكل ذلك الوعد واحداً من الأسباب التي دفعت اليمنيين للثورة على نظام صالح القمعي في العام ٢٠١١، بالرغم من تصديه لهم بالقمع والعنف الدموي في الكثير من الأحيان، ليرغموه على مغادرة البلاد في كانون الثاني/ يناير ٢٠١٢.

تتورط بقعة أخرى من العالم، محاطة بالكثير من عدم الاستقرار، في حرب الطائرات بدون طيار في اليمن: نقل في صيف العام ٢٠١١ أن الطائرات بدون طيار القاتلة، التي تحلق في الأجواء اليمنية، تأتي من قواعد في شبه الجزيرة العربية [١١٦]، وهو ما قال مسؤول عسكري أمريكي بارز [١١٧]. ولربما تذكرون أن بول ولفويتز، نائب وزير الدفاع الأسبق، ذاته من قال إن وجود القوات الأمريكية يمثل، كما أثبتت الظروف، «أداة تجنيدية ضخمة للقاعدة»، وهو في الواقع واحد من الأمور الرئيسة التي يشتكي أسامة بن لادن منها [١١٨].

تسيّر الولايات المتحدة في مكان آخر من الخليج، وفق ما ينقل، المركبات الجوية غير المأهولة من الكويت وعمان[١١٩]. ووفقاً لموقع غلوبل سكيوريتي، فقد تمّ تسيير طائرات الغلوبل هوك من الإمارات

منذ الأيام الأولى لغزو العراق، انطلاقاً من قاعدة الظفرة الجوية خارج أبوظبي العاصمة[١٢٠]. تمّ ذلك بالرغم من انتقاد المجموعات الإسلامية في الإمارات صلات الحكومة الوثيقة بالولايات المتحدة.

أوردت صحيفة الواشنطن بوست، في أيلول/ سبتمبر ٢٠١١، عن الصومال -عبر بحر العرب- أن إدارة أوباما تسيّر الطائرات بدون طيار في أجواء ذلك البلد الممزق بالحرب، الذي تعمه المجاعة، من قاعدة في جيبوتي، البلد الصغير في شمال شرق أفريقيا، كجزء من جهودها لمحاربة حركة الشباب الإسلامية المتمردة[١٢١]. يوجد الجيش الأمريكي في جيبوتي منذ العام ٢٠٠١، كقاعدة للعمليات الأمريكية في القرن الأفريقي.

أكد جاي كارني، السكرتير الصحفي للبيت الأبيض، علاوة على ذلك، في تشرين الأول/ أكتوبر ٢٠١١، أن الولايات المتحدة تسيّر الطائرات بدون طيار من «منشأة في إثيوبيا كجزء من شراكتنا مع حكومتها لتعزيز الاستقرار في القرن الأفريقي»[١٢٢]. ووفقاً لكارني، فإن الطائرات بدون طيار غير مسلحة، ولكنها تستخدم «للاستطلاع»، كجزء من «حملة واسعة، متواصلة، ومتكاملة لمكافحة الإرهاب».

ولكن لا تقلقوا، فبالرغم من أن الطائرات بدون طيار المسلحة لم تتمركز بعد، وفق ما ينقل، في إثيوبيا، فقد أوردت صحيفتا الواشنطن بوست ووال ستريت جورنال، في خريف العام ٢٠١١، أن الولايات المتحدة تسيّر طائرات غير مأهولة من قاعدة في سيشل، الدولة التي تشكل أرخبيلاً بعيداً عن ساحل شرق أفريقيا، وأنها تفكر في تسليح تلك الطائرات[١٢٣].

تحدث مسؤولو الولايات المتحدة وسيشل، في بادئ الأمر، قائلين إن المهمة الرئيسة للطائرات بدون طيار تتمثل في تعقب القراصنة في المياه الإقليمية. ولكن برقيات دبلوماسية أمريكية سرية أظهرت أن الخطة

تتمحور أيضاً حول القيام بمهمات لمكافحة الإرهاب فوق الصومال، على بعد نحو ثمانمئة ميل إلى الشمال الغربي (١٢٤).

كشفت البرقيات، التي حصل عليها موقع ويكيليكس، أن مسؤولي الولايات المتحدة طالبوا القادة في سيشل بإبقاء مهمات مكافحة الإرهاب طي الكتمان، وهو ما كان رئيس سيشل مستعداً للقيام به عن طيب خاطر. رفض متحدث عسكري أمريكي، لأسباب أمنية، أن يخبر الواشنطن بوست عما إذا كانت طائرات الريبر في سيشل قد زودت بالسلاح في أي من الأوقات، ولكنه أشار إلى أنها «يمكن أن تهيئ لكل من المراقبة والهجوم»(١٢٥).

ووفقاً للبي بي سي في حزيران/ يونيو ٢٠١١، فقد توسعت الولايات المتحدة، في ما يتعلق بذلك الصدد، بصورة أكبر في أفريقيا عبر إرسال أربع طائرات بدون طيار إلى أوغندا وبوروندي (١٢٦).

تمّ إنشاء هذه القواعد للطائرات بدون طيار في أفريقيا وشبه الجزيرة العربية لتشكيل حلقات مراقبة متداخلة في منطقة اعتقدت السي آي أى أن فروع القاعدة يمكن أن تنشأ بصورة متواصلة فيها.

تمّ استخدام الطائرات بدون طيار في ليبيا أيضاً، وقد شنت ١٤٥ ضربة في ستة الأشهر الأولى، لا أكثر، من عام ٢٠١١، ضمن ما بذل من جهود للإطاحة بنظام معمر القذافي - العملية العسكرية التي أنكرت إدارة أوباما أن تكون حرباً حقيقية حتى (١٢٧).

عقدت الحكومة الأمريكية اتفاقاً مع تركيا، مع مغادرة معظم القوات الأمريكية العراق في نهاية العام ٢٠١١، لتسيير طائرات البريديتور من القاعدة الجوية التركية الأمريكية المشتركة في إنجرليك، كجزء من عملية مشتركة لمكافحة الإرهاب في شمال العراق (١٢٨).

تتصـدى الحكومة التركية، منـذ العام ١٩٨٤، لحملة انفصالية من قبل ثوار حـزب العمـال الكردسـتاني المحظـور، أو البـي كاى كاى، الـذي يتمركز مقاتلـون منـه في شـمال العـراق. لا يضع اتفـاق الطائرات بـدون طيار مع تركيـا الولايات المتحدة بصورة مباشـرة في خضم النـزاع التركي الكردي فحسب، بل النزاع بين تركيا والعراق أيضاً.

* * *

ولكـن نهايـة هيمنـة الولايـات المتحـدة الواضحـة، فـي مـا يتعلـق باستخدام الطائرات بدون طيار، تلوح في الأفق. عبر المسؤولين الأمريكيين عـن قلقهم بصورة علنية بالفعل، بحلول العـام ٢٠١١، من أن دولاً أخرى، صديقـة وعدوة على حد سـواء، قد بدأت في الاسـتحواذ علـى التقنية التي أمضوا عقوداً، وأنفقوا بلايين الدولارات، لتطويرها.

تحـدث ويليـام جـاى. ليـن، نائـب وزيـر الدفـاع، فـي حزيـران/ يونيو ٢٠١١، في مؤتمر في واشـنطن عن مستقبل الحرب، قائلاً: «تمتعت الولايـات المتحدة وحلفاؤهـا، منذ عاصفة الصحراء إلـى الوقت الراهن، بملكية حصرية نسـبياً لتقنية الضربات الدقيقة المعقـدة». أردف لين قائلاً: «ستسـتحوذ دول أخرى، على امتداد العقد أو العقدين القادمين، على تلك التقنيـة بصورة متزايدة... وسـتوجد التحديات بذلك لقدرتنا على تسـليط القوة على أجزاء بعيدة من العالم»[١٢٩].

أشـار فيليـب ألسـتون، المقـرر الخـاص السـابق للأمـم المتحـدة للإعدامـات التـي تتـم خـارج إطـار القانـون، أو علـى عجـل، أو بصـورة اعتباطية، أشـار بالفعل إلى حدوث سباق حقيقي للتسلح جراء الاستخدام الواسـع للمركبـات الجويـة غيـر المأهولـة مـن قبـل الحكومـة الأمريكية لاغتيال أعدائها المفترضين. يملك أكثر من خمسين بلداً التقنية المطلوبة،

وتستحوذ العديد من تلك البلدان -بما يشمل إسرائيل، روسيا، تركيا، الصين، الهند، إيران، المملكة المتحدة، وفرنسا- على طائرات بدون طيار مسلحة، أو تسعى للاستحواذ عليها.

لا يملك بعض من تلك البلدان التقنية فحسب، بل يستخدمها بصورة فعلية.

استخدم جيش الدفاع الإسرائيلي - أثناء اجتياحه قطاع غزة، بين عامي ٢٠٠٨-٢٠٠٩، فيما يعرف بـ «عملية الرصاص المصبوب»- استخدم بصورة متكررة طائرات غير مأهولة لشن ضربات ضد أعضاء مشتبه فيهم في حماس، التي تمثل الحكومة الفلسطينية المنتخَبة.

ووفقاً لبرقية مسرّبة صادرة عن وزارة الخارجية الأمريكية، تناولتها صحيفة هآرتز الإسرائيلية، فقد قامت طائرة بدون طيار إسرائيلية في حادثة «بشن ضربة ضد اثنين من مقاتلي حماس أمام المسجد، لتقع ست عشرة ضحية، بشكل غير مقصود، في المسجد جراء شظية دخلته من باب مفتوح أثناء الصلاة»[١٣٠]. وبالرغم من أن التقنية يمكن أن تكون دقيقة؛ فإن الناس غير المعصومين هم من لا يزالون يختارون الأهداف، ويضغطون على الزناد.

أنهت إسرائيل ظاهرياً احتلالها العسكري لقطاع غزة في العام ٢٠٠٥. ولكن الفضل يعود لتقنية الطائرات بدون طيار الحديثة في أنها لا تحتاج إلى احتلال القطاع برياً للهيمنة على حياة الفلسطينيين، وتدميرها.

تحدث حمدي شقورة، من المركز الفلسطيني لحقوق الإنسان، في مقابلة مع صحيفة الواشنطن بوست، قائلاً: «تعني الطائرات بدون طيار بالنسبة لنا الموت»[١٣١]. قتلت الطائرات بدون طيار الإسرائيلية، وفقاً لمجموعته، ٨٢٥ شخصاً على الأقل بين عامي ٢٠٠٦ و٢٠١١،

وقد كانت غالبيتهم من المدنيين. إثر ذلك، بالإضافة إلى ما سبق، في جوانب الحياة الفلسطينية كافة على وجه التقريب؛ يعاني غالبية الأطفال الذين يعيشون في غزة، وفقاً لدراسة، من اضطراب توتر ما بعد الصدمة نتيجة لأزيز آلات الموت الإسرائيلية، وقصفها الدائم. يتعين على الفلسطينيين أن يحترسوا من الطائرات بدون طيار عندما يحاولون القيام بما هو غير خطر واعتيادي حتى، كإصلاح عربة متعطلة حيث لا يجدر بهم أن يبقوا طويلاً في مكان ما بينما تحوم طائرة مسلحة بالصواريخ فوقهم. أردف شقورة قائلاً: «تسمع الموت حين تسمع أزيز الطائرات بدون طيار».

تحدث نبيل العماسي، الذي يعمل ميكانيكيا في غزة، ولديه ثمانية أبناء، قائلاً: «لا تتوقف عن مراقبتنا، في الليل على وجه الخصوص. لا يمكنك أن تنام. لا يمكنك أن تشاهد التلفاز. تخيف تلك الطائرات الأولاد. يقولون، حين يسمعون أزيزها: إنها ستضربنا».

تعد بريطانيا البلد الوحيد، إلى جانب إسرائيل والولايات المتحدة، الذي استخدم طائرات بدون طيار مسلحة في الحرب منذ العام ٢٠١١. طورت المملكة المتحدة، في الثمانينيات من القرن المنصرم، طائرة الفينيكس غير المأهولة، التي استخدمت لمدة قصيرة في حرب كوسوفو، ثم في العراق في العام ٢٠٠٣. فقد الكثير منها، أو تحطم، بما دفع القوات البريطانية إلى تسميتها «الراحلة»، استناداً إلى أنها لم تكن تعود إلا فيما ندر من مهماتها[١٣٢]. قامت المملكة المتحدة، في ما يتعلق بأفغانستان، بشراء طائرات ريبر أمريكية الصنع، واستأجرت طائرات الهرميز الإسرائيلية. كان ذلك جزءاً من إجراءات موقتة بينما تطور طائرتها غير المأهولة، الواتشكيير -في مشروع مشترك بين شركتين إسرائيلية وبريطانية خاصتين- التي كان يفترض، بعد العديد من التأجيلات، أن تدخل الخدمة بحلول العام ٢٠١٢[١٣٣].

تـرى الحكومـة البريطانيـة، كنظيرتيهـا الأمريكيـة والإسـرائيلية، أن الطائـرات غيـر المأهولة تمثـل أداة المسـتقبل، حيـث أوردت صحيفة الغارديـان أن مسـؤولين بريطانيين قـد قالوا إن «ثلث سـلاح الجو الملكي تقريبا يمكن أن يتألف من الطائرات التي يتم التحكم بها عن بعد في غضون ٢٠ عاماً»[١٣٤].

قام مشـغلو طائرات بدون طيار بريطانيون، في تموز/ يوليو ٢٠١١، بارتـكاب خطـأ يؤكد علـى الخلـل الدائم في الأسـلحة الحديثـة، حيث تسـببوا بقتل أربعـة مدنيين في أفغانسـتان بصواريخ أطلقـت من طائرات ريبر يشـغلونها من قاعـدة جوية أمريكية في نيفادا. (يشـغل سـلاح الجو الملكـي طائـرات الريبر من قاعـدة كريتش للقوات الجويـة في نيفادا منذ أواخر العام ٢٠٠٧). سـارع مسـؤولون عسـكريون بريطانيون، خشـية أن يعتقد الناس أن الحادث يبرز عيوب الاعتماد المتزايد على الطائرات بدون طيـار الكلية القدرة، سـارعوا إلـى إيضاح أن قتـل المدنيين قد جـاء نتيجة لإخفاقات استخبارية على الأرض، لا مشكلات في الطائرات[١٣٥].

لا يضر العنصر البشـري غير المعصوم بمـن تصيبهم صواريخ هيل فاير الغربية «المحررة» فحسب. مُنح العراقيون، حين تمكنوا بصورة فعلية مـن رؤيـة صور الفيديو غير المشـفرة التـي كانت المركبات غيـر المأهولة ترسـلها إلى القـوات الأمريكية، مُنحوا بفضل ذلـك فرصة الهرب وتجنب الاغتيـال[١٣٦]. تمكـن العراقيـون أيضـاً، في العـام ٢٠٠٢، من اسـتخدام طائرة ميغ - ٢٥، التي تعود للحقبة السـوفييتية، لإسـقاط طائرة بدون طيار أمريكية. قام سـلاح الجو السوري، في العام ٢٠٠٦، وفق ما نقل، بإسقاط طائرة بدون طيار إسرائيلية للتجسس كانت تحلق فوق الجانب اللبناني من الحدود مع سوريا[١٣٧]. وفي حادث لم يسلط الضوء عليه كثيرا في شباط/ فبرايـر ٢٠١١، قام مسـلحو القاعدة، بينما كانت الشـرطة اليمنية تنقل بقايا

طائرة بريديتور تحطمت في جنوب اليمن، قاموا بشن هجوم على الشرطة، والهرب بعد استحواذهم على الطائرة المحطمة.

ولكـن أعـداء الحكومـة الأمريكيـة المفترضيـن يقومـون بمـا هو أكثـر مـن مجرد الاسـتحواذ على الطائرات بـدون طيار وإسـقاطها: إنهم يسـتخدمون طائراتهم.

زعم جيش الدفاع الإسرائيلي، أثناء حربه على لبنان في العام ٢٠٠٦، أنه أسـقط عدداً من طائرات المراقبة غير المأهولة التي حصل عليها حزب الله من إيران. أسقطت القوات الأمريكية في العراق، بصورة مماثلة، طائرة بدون طيار إيرانية في آذار/ مارس ٢٠٠٩ [١٣٨].

ومثلمـا تقع تقنيـة الطائرات بدون طيـار الأمريكية فـي أيدي أنظمة غيـر صديقة، فـإن التقنية -مثل الهمـر، والمعدات العسـكرية الأخرى من قبلهـا- تعود بدورها إلى الديار. أشـار مـارك تي. مايبـوري، كبير العلماء فـي قيادة القـوات الجويـة الأمريكية، في عـرض قدمه فـي مقرها في ٢٧ أيلول/ سـبتمبر ٢٠١١، حول مسـتقبل «الطائرات المسيّرة عن بعد»، أشار إلـى «الأمن الداخلي» كسـياق رئيس لاسـتخدام الطائرات بـدون طيار في المسـتقبل، الذي يتمم بخرائط للولايات المتحـدة توضح متطلبات «دمج الطائرات بدون طيار في المجال الجوي الوطني» [١٣٩].

بات المستقبل هنا.

أجاز الكونغرس لإدارة الجمارك وحماية الحدود (سي بي بي)، في العام ٢٠٠٥، شـراء طائرات بريديتور غير مسـلحة. كانت الإدارة، بحلول نهاية العام ٢٠١١، تسيّر ثماني طائرات بريديتور على طول الحدود الجنوبية الغربية مع المكسـيك، والحدود الشمالية مع كندا، لتعقب المهاجرين غير الشـرعيين، والمهربين. تأمل الإدارة، بحلول العـام ٢٠١٦، وفقاً لصحيفة

الواشـنطن بوسـت، أن يبلغ عدد الطائرات بدون طيار لديها ٢٤، «المنحها القدرة على نشـر تلك الطائرات في أي مكان فوق الولايات المتحدة، التي تعادل القارات في حجمها، في غضون ثلاث سـاعات»[١٤٠]. يتجاوز الأمر نطـاق الولايـات المتحـدة، كما تبدو الحـال عليه، مع نشـر وكالة مكافحة المخدرات الأمريكية (دي إي أي) عدة طائرات بدون طيار في المكسـيك المجاورة للتجسس على «كارتيلات» المخدرات القوية هناك[١٤١].

أوردت البوسـت، فـي حزيران/ يونيـو ٢٠١١، أن أسـطول إدارة الجمارك وحماية الحدود من الطائرات بدون طيار قد «نفذ ١٠٠٠٠ ساعة طيران، بما يشـكل معلماً مهماً». ولكن النتائج لم تكن على ذلك القدر من الأهميـة. أشـارت الصحيفـة بوضوح إلـى أن الأرقام المتمثلـة في ٤٨٣٥ مهاجـراً غير موثق، و٢٣٨ مهرباً للمخـدرات -الذين زعمت وزارة الأمن الداخلـي أنهـا اعتقلتهم بفضل المركبـات الجوية غيـر المأهولة- لم تكن أرقامـاً «مؤثـرة للغاية». يتمثل ما هو مؤثر في التكلفـة: ٧٠٥٤ دولاراً لكل مهاجر غير موثق أو مهرب تمّ اعتقاله.

تحدث توم باري، من مركز السياسة الدولية البحثي في واشنطن، قائلاً: «يتعين على الكونغرس ودافعي الضرائب أن يطالبوا بإجراء تحليل واقعي ما لكلفة وفوائد الطائرات بدون طيار. يخبرني حدسي بأنهم سيتوصلون لنتيجة مفادها أن تلك الطائرات لا تستحق ما يدفع من أجلها من مال».

ولكن السياسـيين في واشـنطن لا يظهرون الكثير مـن الاهتمام كما تبدو الحال عليه. تحدث مايكل كوسـتلنيك، المسؤول في إدارة الجمارك وحماية الحدود، إلى البوسـت قائلاً إنه لم يتعرض لضغوط على الإطلاق مـن أي مشـرع لتبريـر اسـتخدام إدارتـه للطائـرات بـدون طيـار. «يتمثـل السـؤال، عوضاً عن ذلك، في: لم لا يمكننا الحصول على المزيد منها في مقاطعتي؟».

يروج العديد من المشرعين، بالفعل، لصناعة الطائرات بدون طيار، وقد شكلوا تجمّعاً يمثلها (الذي يعرف رسميا بالتجمّع الداعم للأنظمة غير المأهولة) لحشد التأييد، على وجه الخصوص، لصناعة ما هو أكثر وأفضل من الطائرات بدون طيار، ورفع قيود التصدير، وتمييع القوانين الموضوعة من قبل إدارة الطيران الفيدرالية (الأف أى أى) التي تقيد استخدام الطائرات بدون طيار داخلياً[١٤٢].

تُعد إدارة الطيران الفيدرالية مسؤولة عن أمن المجال الجوي للبلاد، ويعود لذلك السبب في أنه يتعيّن على كل من يرغب بتسيير مركبة جوية غير مأهولة داخلياً أن يحصل على إذن من الإدارة. تتعامل الإدارة مع تلك القضية بحذر شديد بدافع من خوفها الناجم عن أن العديد من الطائرات المسيّرة عن بعد تفتقر إلى تقنية «الرصد والتجنب» الملائمة لمنع حوادث التصادم الجوي. لم تسمح الإدارة، بحلول العام ٢٠١٢، إلا للقليل من وكالات فرض القانون الداخلية باستخدام الطائرات بدون طيار، مع وضع قيود صارمة على ذلك.

ولكن إدارة الطيران الفيدرالية تتعرض لضغوط متزايدة من الكونغرس، مصنعي الطائرات بدون طيار، ووكالات فرض القانون لفتح الأجواء للمركبات الجوية غير المأهولة. قدّم الرئيس أوباما، في ١٤ شباط/ فبراير ٢٠١٢، هدية عيد الفالنتاين لمصنعي الطائرات بدون طيار، عبر توقيع مشروع قانون يلزم إدارة الطيران الفيدرالية، عبر توفير تمويل بقيمة ٦٣, ٤ بليون دولار، بوضع خطة دمج شاملة للطائرات بدون طيار في المجال الجوي للولايات المتحدة في غضون تسعة أشهر، وتنفيذها بصورة كاملة بحلول ١٥ أيلول/ سبتمبر ٢٠١٥. يلزم مشروع القانون الإدارة أيضا بتسريع فتح الأجواء للمستخدمين العموميين، كالعاملين في فرض القانون، الإطفاء، والطوارئ. يتعين على الإدارة، في غضون تسعين يوماً،

أن تسمح لهم بتسيير الطائرات بدون طيار التي يقل وزنها عن ٤,٤ أرطال، طالما بقيت تحت ارتفاع ٤٠٠ قدم، واستوفت الشروط الأخرى.

ابتهج لوبي الطائرات بدون طيار الأمريكي الذي ساعد على صياغة مشروع القانون، «الاتحاد الدولي لأنظمة المركبات غير المأهولة»، بالنقيض من شركات وطياري الطيران التجاري، الذين شعروا بالقلق من أن الاندفاع نحو دمج الطائرات بدون طيار لن يحرمهم من وظائفهم فحسب، بل سيؤدي لوقوع الحوادث أيضاً. تحدث لي موك، رئيس اتحاد طياري الخطوط الجوية، قائلاً: «يجدر ألا يتم السماح للطائرات غير المأهولة بالتحليق مع طائرات أخرى، إلى أن تظهر أنها لن تصطدم بها، أو بالأرض»[١٤٣].

قامت إدارة الجمارك وحماية الحدود، حتى قبل أن تصبح القوانين الجديدة سارية المفعول، باستخدامات غير تقليدية للغاية -وغير قانونية كما يمكن أن يقول البعض- لطائراتها غير المأهولة لمساعدة قوى فرض القانون العاملة محلياً، فيدرالياً، وفي الولايات. وكما أوردت صحيفة لوس آنجيليس تايمز في كانون الأول/ ديسمبر ٢٠١١، فقد أقر كوستلنيك، المسؤول في الإدارة، بأن طائرات البريديتور تُسيّر -بما يتجاوز إلى حد بعيد مجرد مراقبتها الحدود- «في العديد من المناطق حول البلاد، لا من قبل المشغلين الفيدراليين فحسب، بل العاملين في فرض القانون محلياً وفي الولايات، والعاملين في الطوارئ في أوقات الأزمات»[١٤٤].

يبدو أنهم عدوا الحادثة الآتية أزمة، كما أفترض، حين تمّ إرسال الطائرات بدون طيار إلى مقاطعة نيلسن، في نورث داكوتا، لمساعدة الشريف كيلي جانكي على البحث عن ست بقرات مفقودة في مزرعة عائلة براسرت، عند حلول المساء في ٢٣ حزيران/ يونيو ٢٠١١. أسهمت الطائرات بدون طيار البطلة في العثور على سارقي الماشية واعتقالهم، وأنقذت البقرات الست.

تتحرّق قوات الشرطة، التي تعج بالمخضرمين ممن قاتلوا في العراق وأفغانستان، للحصول على الأحدث من المعدات العسكرية في القرن الواحد والعشرين. وبينما تنتظر بترقب موافقة إدارة الطيران الفيدرالية، فإن بعض الدوائر قد التمست الإذن، ونالته، لاختبار أنواع مختلفة من الطائرات بدون طيار.

قامت دائرة شرطة مايامي دايد في فلوريدا بشراء طائرة بدون طيار تزن ٢٠ رطلاً[١٤٥]. تحدث مدير الدائرة جايمس لوفتوس للمراسلين، قائلاً: «تمنحنا الطائرة فرصة جيدة لتكون لنا عين للمراقبة، لا التجسس. لنميز بين الأمرين. تساعدنا المراقبة، بصورة صريحة، على القيام بما نحتاجه لإبقاء الناس آمنين».

حصلت دائرة شرطة مايامي أيضاً، في تشرين الثاني/ نوفمبر ٢٠١١، على موافقة إدارة الطيران الفيدرالية لتسيير طائرتين بدون طيار للمراقبة، تبلغ قيمة كل منهما ٥٠٠٠٠ دولار، وتشبهان، كما قيل، صفائح القمامة المعدنية، ليقتصر الارتفاع الذي يمكن أن تبلغاه، بكل الأحوال، على ثلاثمئة قدم لا أكثر[١٤٦]. يفاخر الرقيب آندرو كوهين قائلاً: «لا تستخدم أي وكالة أخرى لفرض القانون في البلاد هذا النوع من الطائرات. نحقق قدم السبق في ذلك»[١٤٧].

يختبر مكتب الشريف في مقاطعة ميسا، كولورادو، طائرة هليكوبتر دقيقة مسيّرة عن بعد، ومصممة لحمل أجهزة فيديو لاسلكية، كاميرات ثابتة، ومعدات تصوير حراري خفيفة. يستخدم مكتب الشريف عملية الاختبار لجمع معلومات يمكن أن تؤدي، في نهاية المطاف، إلى موافقة إدارة الطيران الفيدرالية على استخدام الهليكوبتر بصورة يومية، من قبل قوى فرض القانون، للقيام بعمليات البحث والإنقاذ، وتوفير تحديثات مباشرة للفرق التكتيكية أثناء الأزمات، أو لإرسال الهليكوبتر، ببساطة، لتصوير موقع جريمة ما.

قامت دائرة للشرطة تقع بالكاد خارج هيوستن، تكساس، في تشرين الأول/ أكتوبر ٢٠١١، بإنفاق ٣٠٠٠٠٠ دولار، من منحة فيدرالية للأمن الداخلي، لشراء طائرة هليكوبتر غير مأهولة، تزن ٥٠ رطلا، مزودة بكاميرا فاعلة، ومعدات تعمل بالأشعة تحت الحمراء. وبالرغم من أنها لم تسلح إلى الآن، فقد تحدث مايكل بوشر، المدير التنفيذي للشركة المصنّعة فانغارد للصناعات الدفاعية، إلى المراسلين قائلاً إن طائرة الطائرات بدون طيار تلك مصممة لتسلّح، ويمكن أن تجهّز في المستقبل «بما ندعوه أنظمة أقل فتكاً». تشمل تلك أسلحة يمكن أن تصعق المشتبه بهم بالكهرباء على الأرض، وأخرى تطلق رصاصاً صغيراً تدعى الستن باتنز[١٤٨].

أوضح بوشر قائلاً: «يمكنك أن تشتبك، بصورة فعلية، مع شخص ما من الأعلى بالطائرة عبر الستن باتنز. ستؤدي تلك الأسلحة، بصورة رئيسة، إلى شل المشتبه فيهم». ولكن الشريف تومي غايج دعا إلى عدم القلق، مؤكداً للمراسلين «بأننا لن نستخدم الطائرات بدون طيار لانتهاك خصوصية أي شخص. ستستخدم في المواقف التي نتعامل بها مع المجرمين». مواقف مثل مطاردة المشتبه فيهم الهاربين، أو مساعدة فرق «السوات» على مراقبة منطقة ما أثناء الاشتباك، أو أثناء التحقيقات الجنائية الأخرى، كتلك التي تتعلق بشحنات المخدرات المفترضة.

أردف غايج في المؤتمر الصحفي قائلاً: «سيشكك بنا البعض، بغض النظر عما نفعله كقوى لفرض القانون، ولكننا سنقوم بالأمور الصائبة، ويمكنني أن أؤكد لكم ذلك».

هل تشعرون بالاطمئنان؟ لا يشعر به اتحاد الحريات المدنية الأمريكي بكل الأحوال. يعتري القلق الاتحاد، على وجه الخصوص، من أن الطائرات بدون طيار تدفع بنا نحو «مجتمع للمراقبة»، تتم فيه متابعة، تعقب، تسجيل، وتمحيص كل ما نقوم به من قبل السلطات.

تنبأ الاتحاد، في تقرير عن المراقبة الجوية صادر في كانون الأول/ ديسمبر ٢٠١١، «بأن المؤشرات كافة تدل، كما يبدو، على أنه سيتم في النهاية إقحام المراقبة الجوية الروتينية في الحياة الأمريكية -وهو تطور سيغير بشدة من طبيعة الحياة المدنية في الولايات المتحدة». يثير ذلك القلق، على وجه الخصوص، استناداً إلى أن «قوانيننا المتعلقة بالخصوصية ليست فاعلة بما يكفي لضمان أن يتم استخدام التقنية الجديدة بصورة مسؤولة، وبما ينسجم مع القيم الديمقراطية»[١٤٩]. خلص التقرير إلى أنه استناداً إلى العوامل السائدة -التطور التقني، مصالح قوى فرض القانون، الضغوط السياسية وضغوط المصنّعين، والافتقار إلى الحماية القانونية- «فإنه من الواضح أن الطائرات بدون طيار تشكل تهديداً وشيكاً لخصوصية الأمريكيين»[١٥٠].

يحذر المحامي المختص في القانون الدستوري والكاتب غلين غرينوالد، قائلاً: «تعد إمكانية إساءة استخدام ذلك كبيرة، ويعد التجاوز في المراقبة التي يضمنونها فعلياً، والأثر الذي يحدثونه في ثقافة الخصوصية الشخصية - مع استخدام الدولة كاميرات فيديو متحركة في الجو، عالية التقنية، وخفية، التي تنتهك البيوت وغيرها من معالم الخصوصية- يعد ببساطة مخيفاً»[١٥١].

يُعد من المخيف بالقدر ذاته الإمكانية المتمثلة في عدم اقتصار استخدام تقنية الطائرات بدون طيار في الولايات المتحدة على وكالات فرض القانون المحلية، التي تتحرق للحصول على المعدات الحديثة بتمويل من وزارة الأمن الداخلي. يمكن أن تستخدم تلك التقنية في الديار قريباً، من قبل آخرين، إن رضي صنّاع السياسة الأمريكيون، أم لم يرضوا.

وكما قال رالف نايدر في مقال نشر في خريف العام ٢٠١١، فإن تقنية الطائرات بدون طيار قد أضحت «مهيمنة للغاية، وخارج أي إطار مقيد للقانون أو الأخلاق بحيث يمكن أن يرتد استخدامها -من قبل الحكومة

الأمريكية حول العالم- على البلاد بصورة مخيفة»[١٥٢]. تمّ، بعد يومين من نشـر المقال، اعتقال رضوان فردوس، البالغ من العمر سـتة وعشرين عاماً من ماساتشوستس، واتهامه بالتخطيط لمهاجمة البنتاغون ومبنى الكابيتول بطائرات بدون طيار صغيرة محملة بالمتفجرات[١٥٣]. تضمنت الخطة التي كشـفها لعملاء سـريين اسـتخدام ثلاث طائرات يتم التحكـم بها عن بعد، مشـابهة للطائرات بدون طيار العسكرية، وموجهة بواسطة معدات لتحديد المواقع بالأقمار الصناعية.

كان فـردوس، خريج جامعة نورث إيسـترن الحائز على شـهادة في الفيزيـاء، قد اسـتخدم مهاراتـه بالفعل لتحويـل ثمانية هواتـف خلوية إلى مفجـرات، ثم قام بتسـليمها لعملاء سـريين ظـن أنهم مرتبطـون بالقاعدة. شـجعه عملاء الأف بي آي، كما يبدو، على المضـي قدماً، ليزودوه ببنادق هجوميـة، قنابـل يدوية، ٢٥ رطـلاً من متفجرات السـي- ٤ البلاسـتيكية، وطائرات أف ٨٦ حتى، التي يتم التحكم بها عن بعد.

ووفقاً للشكوى الجنائية المقدمة في المحكمة، فقد كانت الطائرات كبيـرة بما يكفي لنقل «حمولات متعددة (بما يشـمل المتفجرات الفتاكة)، ويمكنهـا أن تقلع وتهبط في العديد مـن المواقع، وأن تقوم بأنماط مختلفة من الطيـران بما يفوق الطائرات التجارية، ممـا يقلل من إمكانية رصدها». نقل عن فردوس، في خضم الشكوى، قوله إن قبة الكابيتول كانت «ستفجر لتتحول إلى فتات».

لـو نجح فردوس فـي صنع وإطلاق طائرة بدون طيـار لتقوم بعملية تفجير انتحارية، فقد كان من شأنه، بما هو قابل للجدال، أن يهزم الحكومة الأمريكية في لعبتها لا أكثر. أعلن الجيش الأمريكي، قبل ما يقل عن شـهر مـن الكشـف عن المؤامـرة المزعومة، أنه سـيوقع مع المتعاقد العسـكري أيروفايرنمينـت عقداً بقيمة ٩ , ٤ ملايين دولار لتزويـده بطائرة بدون طيار

صغيرة، بحجم حقيبة للظهر، قادرة على الانقضاض على الأهداف بطريقة الكاميكازي[١٥٤].

تحدث جون فيلاسينور، أستاذ الهندسة الكهربائية في جامعة كاليفورنيا، لوس آنجيليس، إلى صحيفة نيويورك تايمز قائلاً: إن وقوع مثل تلك الطائرة في أيدي الإرهابيين يمكن أن يشكل تحدياً تصعب مواجهته إلى حد بعيد. أردف قائلاً: «لو حلقت تلك الطائرة فوق أسطح المنازل والأشجار، فسيكون من المستحيل، على وجه التقريب، أن يتم إسقاطها».

حذر من يدعون الخبراء في مجال الإرهاب، بالطبع، لسنوات من قيام المتطرفين بتفجير حقائب ملغومة في المدن الأمريكية. وبالرغم من الترويج الدائم لثقافة الخوف من قبل المؤسسة السياسية، فإن الحقيقة تتمثل في أن الناس في الشرق الأوسط لديهم ما يخشونه من أسلحة الحكومة الأمريكية بما يفوق خشية الأمريكيين من الأدوات الفتاكة في أيدي الإرهابيين.

يمكننا أن نقول، بكل الأحوال -بالرغم من أن مؤامرة فردوس قد أحبطت، وأن تهديدات سابقة قد تمّ التصدي لها-: إن الرسالة الآتية قد تمّ إيصالها إلى الديار: احذري أمريكا، ما تفعلينه يرتدّ عليك.

طيّارون بلا قمرة

«المـوت، الدمـار، المـرض، الرعـب. هذا ما تـدور الحرب حولـه بالمطلـق يا أنان. هذا ما يجعل منها أمـراً ينبغي تجنّبه. أحلتَهـا إلى شـيء بديع وغيـر مؤلـم. بديع وغيـر مؤلم للغاية بحيث بت تفتقر إلى الأسباب لإيقافها».

سلسلة ستار تريك

تحـدث العقيـد المتقاعـد كريـس تشـامبليس إلـى صحيفـة لـوس آنجيليـس تايمـز، قائلاً: «تهيّئ نفسـك، في الطريق إلى هنـا، لولوج الجزء المتعلـق بالقتال الجوي من حياتك. وتتهيأ، في الطريق إلى المنزل، للجزء المتمثل في لعبة كرة القدم منها»[١٥٥].

وتقوم بالقتل بينهما.

يمكن للعديد من النـاس أن يتعاملوا مع التجربة الاعتيادية المتمثلة في الانتقال من العمل وإليه، والكفاح الدائم في محاولة الفصل بين الوقت الذي يمضيـه المرء في المكتب والبيت. ولكن عملية الاسـترخاء بعد يوم عمـل شـاق تتجاوز، بالنسـبة لعدد متزايد مـن الأمريكيين، مجـرد محاولة

نسـيان تقارير النفقات، وما تفرضه السياسة التسلّطية في العمل، لتتمحور، في العديد من الحالات، حول محاولة نسيان المرء كم أزهق من الأرواح، وكم فقد من رفاقه الذين فشل في إنقاذ أرواحهم.

يمكن للعقيد تشـامبليس، الذي يقطن خارج قاعدة كريتش للقوات الجويـة في نيفـادا على بعد ما يقارب أربعين دقيقة من لاس فيغاس، يمكن لـه، بما يتناقض مع المفهـوم التقليدي لمقاتل الحرب في سـاحة المعارك الفعليـة، أن يوجـه طائـرة البريديتـور عن بعد لإطـلاق صـاروخ هيل فاير علـى مجموعـة من المشـتبه فيهم من طالبـان، على بعـد آلاف الأميال في أفغانسـتان، ليصـل إلـى بيته، بعد بضع سـاعات لا أكثر، فـي الموعد الذي يمكنه من متابعة حلقة معادة من مسلسـل فريندز. يوجد الآلاف من أمثاله، من الجنود والمدنيين، على حد سـواء، المُشْـهِمين في استخدام الحكومة الأمريكيـة الواسـع للمركبـات الجويـة غيـر المأهولـة لاغتيـال الأعـداء المفترضين في الجانب الآخر من العالم.

تشكل كريتش قاعدة صغيرة متقدمة في صحراء نيفادا القاحلة، على بعد عشـرين ميلاً إلى الشمال من سـجن للولاية، وتجاور كازينو مؤلفاً من طابق واحد. توجد سلسلة من الغرف، في بناء عادي، إلى الأسفل من مدخل لا يمكن تمييزه إلى حد بعيد، يحوي كل منها حاملاً للسيرفرات، و«محطة للتحكـم الأرضي» بالطائرات بدون طيار التي تحلق على بعد ٨٠٠٠ ميل. يجلس هناك مشـغل لطائرة الطائرات بدون طيار، وآخر للحساسـات التي تحملها، وهما يرتديان بزتين للطيارين، أمام سلسلة من الشاشات.

يمسك المشـغل في الغرفة عصا للقيادة بغية توجيه طائرة الطائرات بـدون طيار بينما تحلـق فوق أفغانسـتان، العراق، أو غيرهما من سـاحات المعـارك. يتحكـم مشـغل الحساسـات فـي الكاميـرات التـي تمكـن من رؤيـة سـاحة المعركة بصـورة كاملة بغية جمـع المعلومات الاسـتخبارية،

ومطاردة الأهداف. لا يقوم هذا الفريق بإطلاق الطائرة أو الهبوط بها -حيث يتم ذلك من قبل فريق مماثل على الأرض، وأقرب إلى ساحة المعركة -ولكن ما إن تصبح الطائرة في الجو، فإن الطاقم في الولايات المتحدة يتولى السيطرة.

يتم تشغيل معظم طائرات الجيش الأمريكي بدون طيار من قاعدة كريتش، وموقع آخر على بعد سبعة أميال لا أكثر إلى الشمال الشرقي من لاس فيغاس: قاعدة نيليس للقوات الجوية. ولكن الطائرات بدون طيار المسلحة تسير وتراقب عن بعد من عشرات القواعد العسكرية عبر الولايات المتحدة، بما يشمل الموجودة في أريزونا، كاليفورنيا، فلوريدا، إنديانا، ماريلاند، ميزوري، نيو مكسيكو، نيويورك، أوهايو، نورث وساوث داكوتا، وتكساس[١٥٦]. أضحت قاعدة القوات الجوية الأمريكية في جزيرة غوام الباسيفيكية حتى تسهم في عمليات الطائرات بدون طيار فوق آسيا.

يقوم الجنود، في قاعدة لانغلي للقوات الجوية في فيرجينيا، بمراقبة المعطيات بصورة مباشرة من الطائرات بدون طيار التي تحلق فوق أفغانستان -فيما يدعونه «تلفزيون الموت»[١٥٧]. أوردت صحيفة نيويورك تايمز أن الجنود يقومون، على أسس يومية، «بمراجعة ١٠٠٠ ساعة من صور الفيديو، و١٠٠٠ من صور التجسس الملتقطة من ارتفاعات عالية، ومئات الساعات من «استخبارات الإشارات» التي تتمثل في العادة بمكالمات الهواتف الخلوية». يحدق أولئك، لما يصل إلى اثنتي عشرة ساعة في اليوم، في عشر شاشات تلفاز فوق رؤوسهم، ليراقبوا سيلاً متواصلاً من الصور التي تنقل إليهم من ساحة المعركة، بينما يتواصلون عبر السماعات مع مشغلي طائرات بدون طيار في قواعد أخرى، ويتبادلون الرسائل الفورية مع قادة على الأرض. تحدث ملازم أول، في الخامسة والعشرين من العمر، إلى صحيفة نيويورك تايمز قائلاً: «أتواصل مع مشغلي

الطائرات عبر السماعات، وأطبع الرسائل الفورية، وأراقب الشاشات في الوقت ذاته. إنه عمل مكثف»[١٥٨].

يقوم مدنيون يعملون لحساب وكالة التجسس، في الوقت ذاته، في مقر السي آي أى المجاور، بالعمل عن قرب مع عملاء في الميدان، بالإضافة إلى متعاقدين عسكريين خصوصيين، في كل مكان من الصومال إلى باكستان لاستهداف كل من الشخصيات البارزة التي يشتبه بدعمها الإرهاب، كالمواطن الأمريكي أنور العولقي، ومن تنطبق عليهم بالكاد صفة المقاتلين[١٥٩].

نشأ، إلى جانب النمط الجديد من تقنيات القتل، نمط جديد أيضاً من الطيارين (المشغلين)، المدربين على أساليب القرن الحادي والعشرين المحاكية للألعاب، والمتمحورة حول تعدد المهام. حذر المقرر السابق للأمم المتحدة فيليب ألستون قائلاً: إنه مع وجود مشغلين للطائرات بدون طيار يتمركزون بعيداً للغاية عن ساحات المعارك، ويقومون بالعمليات بالكامل عبر شاشات الكمبيوترات، واستناداً إلى المعلومات التي يتلقونها سمعياً عن بعد، «فإن الخطر يكمن في تطور عقلية (بلاي ستايشن) للقتل»، ولكن ذلك يعبر بدقة عن آلية تصميم تلك التقنية[١٦٠].

يتحدث المنخرطون بقوة في برامج الطائرات غير المأهولة العسكرية قائلين: إن الانجذاب لثقافة ألعاب الشباب يمثل واحداً من الأمور التي يهدفون إليها بصورة صريحة[١٦١]. تحدث خبير في علم الروبوتات، يعمل لحساب المارينز، إلى المؤلف بي. دبليو. سينغر -الذي أورد ذلك في كتابه «وايرد فور وار»- قائلاً: «صممنا جهاز التحكم على غرار لعبة البلاي ستايشن لأنها ما كان يلهو به جنود البحرية، الذين يبلغون الثامنة عشرة - التاسعة عشرة، طيلة حياتهم»[١٦٢].

يمكـن أن يجعـل ذلك الفرق غيـر واضح بين العالميـن الافتراضي والفعلـي. وكمـا تحـدث مشـغل للطائـرات بـدون طيار فـي قطـر، قائلاً: «يماثـل الأمر لعبـة للفيديو. يمكن أن يتصف بشـيء من الوحشـية، ولكنه رائع للغاية»(١٦٣).

لـم تتغير نوعيـة آلات الحرب القتاليـة للجيش فحسـب، بل طبيعة النزاعات المسـلحة أيضاً، لا بالنسـبة لمـن يصابون بصواريـخ الهيل فاير، بالطبع، بل من يضغطون على الأزرار لإطلاقها. وكما أشـار سينغر، قائلاً: «لا يعنـي الذهاب للحرب، بالنسـبة للجيـل الجديد، أن يتم إرسـال المرء إلـى مكان موحش مـا للقتال في خندق موحـل، بل التوجـه للقاعدة يومياً بسيارتك «الكامري» لتجلس أمام شاشة الكمبيوتر، وتحرك الفأرة».

وبالإضافـة إلى النأي بالجنود عن عواقب أفعالهم، فقد غير نشـوء مفهـوم حـرب الطائـرات بـدون طيـار التي يتـم التحكـم بها عـن بعد من طريقة تدريب الجيش الجيل القادم من الطيارين، ليثير ما يسـميه المراسل المختـص في الشـؤون التقنيـة نوا تشـاكتمن «نزاعـاً ثقافياً عسـكرياً، بين ممارسـي ألعـاب الفيديو مـن المراهقيـن والطياريـن المخضرمين، على التحكم بالطائرات بدون طيار». لا يواجه مشغلو الطائرات بدون طيار، في نهايـة المطاف، أياً من مخاطر الموت أثناء القتـال. تنطبق عليهم، بالتالي، تسـمية «محاربو الحجرة» التـي تحط من قدرهم، ويطلقهـا من يواجهون تلك المخاطر.

أقـر العقيـد لوثر تورنر، الطيار الحربي السـابق الذي أصبح مشـغلاً للطائـرات بـدون طيـار، فـي حديثه إلـى صحيفة الواشـنطن بوسـت، بأن «تشغيل الطائرات بدون طيار عن بعد لا يتطلب أي قدر من الشجاعة»(١٦٤).

ولكن المستقبل يتمحور حول ممارسي ألعاب الفيديو.

كان سـلاح الجو، في العام ٢٠٠٤، يسيّر خمس دوريات، لا أكثر، علـى مـدار السـاعة بطائـرات البريديتور والريبـر في كل يـوم، ليصل ذلك الرقـم، بحلـول العام ٢٠١٠، إلـى أربعيـن[١٦٥]. كان سـلاح الجو، علاوة على ذلـك، بحلول العام ٢٠١١، يدرب من مشـغلي الطائرات بدون طيار مـا يفوق طياري المقاتـلات والقاذفات مجتمعيـن. كان هناك نحو ١١٠٠ مشـغل للطائـرات بدون طيار، و٧٥٠ مشـغلاً للحساسـات التـي تحملها، فـي سـلاح الجو بحلـول نهايـة العـام ٢٠١١ [١٦٦]، يقدر سـلاح الجو بأنه سـيحتاج إلى ٢١١٠ مشـغلين للطائرات بدون طيار، ونحو ١٥٠٠ مشغل للحساسات، على أقل تقدير، لقيادة أسطوله بحلول العام ٢٠١٥.

صـرح الدكتـور مارك تـي. مايبوري، كبيـر علماء سـلاح الجو، في عرض بتاريخ ٢٧ أيلول/ سبتمبر ٢٠١١، قائلاً: «تتمثل مشكلتنا الأولى في سلاح الجو، في ما يتعلق بملء الشواغر، بملئها لإدارة برنامجنا للمركبات غير المأهولة»[١٦٧].

تعاقـد البنتاغـون، لسـد احتياجاتـه، مـع جيـش مـن الموظفيـن الخصوصيين[١٦٨]. يقوم عشرة من متعاقدي الدفاع، على أقل تقدير، بتأمين الموظفين لمسـاعدة القوات الجوية، وحدات العمليات الخاصة، والسـي آي أى. يعمل أولئك كتقنيين وميكانيكيين، محللين استخباريين ومشغلين للطائرات بدون طيار، فيما يدعى «سلسـلة القتل» حتى في بعض الأحيان، حين يتم إطـلاق الصواريخ. يضع ذلك المتعاقديـن الخصوصيين -الذين يكـون ولاؤهـم، فـي المقـام الأول، لشـركاتهم، ولا يخضعـون للقانـون الموحد للعدالة العسكرية- يضعهم بقوة في خضم بعض من أكثر عمليات أمريكا العسكرية والاستخبارية حساسية.

يتمثـل الإجراء الآخر الذي اتخذه البنتاغون، لتلبية الطلب المتزايد، في التخفيض من سقف معايير القبول والتدريب لمن ينضمون إلى الجيش

لتشغيل الطائرات بدون طيار. لا يتعيّن على المتسبين للقوات الجوية، على سبيل المثال، أن يلبوا المتطلبات المتعلقة بالرؤية، أو الحالة الجسدية، أو الطول، التي تلتمس في العادة في الطيارين التقليديين، ولا يفرض عليهم أن يخضعوا للدورات القاسية المخصصة لأولئك الطيارين.

أقامت القوات الجوية، في العام ٢٠٠٩، برنامجين للاختبارات في قواعد جوية في نيفادا، لتدريب الجنود على أساليب حرب الطائرات بدون طيار، وقد وضع أحدهما، على وجه الخصوص، ليناسب من لم يقودوا طائرة على الإطلاق حتى[١٦٩]. وبينما يتدرب الطيارون التقليديون في العادة لسنتين قبل أن يقودوا الطائرات، فإن هذا يتمثل في دورة مكثفة لتسعة أشهر، مع تخصيص ستة أشهر لتعليم أساسيات الطيران، وبضعة الأشهر الأخيرة لتعليم قيادة الطائرات بدون طيار عبر محاكي الطيران.

يحظى مشغلو الطائرات بدون طيار، في برنامج آخر، بأربع وأربعين ساعة لتعليم الطيران في القمرة، قبل أن يتم إرسالهم إلى وحدات الطيران ليُجازوا، ويسمح لهم بأداء المهمات[١٧٠]. يتم ذلك بالمقارنة مع ٢٠٠ ساعة لتعليم الطيران، بالحد الأدنى، لمن يقودون طائرات حربية تقليدية.

يمثل اختصار التدريب المطلوب لتمكين جندي شاب من قيادة طائرة فتاكة في منطقة للقتال، يمثّل أمراً مثيراً للجدل. تحدث قائد مقاتلة حربية إلى صحيفة الواشنطن بوست، في العام ٢٠١٠، قائلاً: «كأننا نقوم بذلك «بتفريخ» الطيارين بغض النظر عن كفاءتهم». ووفقاً لمجلة التايم، فإن الجنرال السابق مايك موزلي، كقادة آخرين للقوات الجوية من قبله، ينتقد السماح لغير الطيارين بتشغيل الطائرات بدون طيار في ساحات المعارك بما يمكن أن تتطلبه من قتل، ويعتقد أن «الطيار المدرب وحده من يعد مؤهلاً، من الناحية الذهنية والأخلاقية، لرمي القنابل وإطلاق الصواريخ»[١٧١].

لا يتمحـور الأمـر فقـط، بـكل الأحـوال، حول مـا إذا كان مشـغلو الطائـرات بـدون طيار يتمتعـون بالتدريب الكافي لاسـتخدام القوة الفتّاكة بفاعليـة فـي الخارج، بل ما إذا كانوا قادرين أيضـاً على التعامل مع عواقب أفعالهـم. تمكـن الكاميرات العالية الدقة في الطائـرات بدون طيار أولئك، بالرغـم مـن أنهـم يتمركـزون بعيداً عن سـاحات المعـارك فـي الكثير من الأحيـان، تمكنهـم مـن رؤية ما يحـدث، بتفاصيلـه المروعة أحيانـاً، حين يقررون الضغط على الزناد.

أوضـح العقيد آلبـرت كاي. أيمار، قائد الجناح ١٦٣ للاسـتطلاع، المتمركـز في جنوب كاليفورنيا، أوضح للأسوشـيتيد بـرس قائلاً: «يحلق قائدو المقاتلات فوق الهدف بسـرعة ٥٠٠- ٦٠٠ ميل في السـاعة، ليلقوا قنبلـة تزن ٥٠٠ رطل، ثم يغادرون. لا ترى ما يحدث بعد أن تقصفه»[١٧٢]. يُعـد ذلك صحيحاً، فبالرغم من أن الطيارين اللذين ألقيا القنبلتين الذريتين علـى هيروشـيما وناغازاكي قد قتلا مئـات الآلاف من المدنييـن، فهما لم يريا النتائج بصورة مباشـرة. يرى من يشـغلون طائرات البريديتور والريبر، بالنقيض من ذلك، كل شيء تقريباً حين يطلقون الصواريخ. تحدث أيمار، بذلك الصدد، قائلاً: «تشاهد الأمر برمته حتى إصابة الهدف، ويكون شديد الوضوح، ومباشـراً، ومرتبطـاً بك. يبقى ما يحدث بصـورة فعلية، بالتالي، في أذهان مشغلي الطائرات بدون طيار لمدة طويلة».

أوضح المتحدث السـابق باسـم القيادة المركزية الأمريكية جوش رشـينغ، في برنامج قناة الجزيرة «ذا سـتريم»، كيف أن الأفعال التي تبدو غيـر شـخصية إلى حد بعيـد، كالقتل بالتحكّـم عن بعد، يمكـن أن تكون علـى النقيض مـن ذلك تمامـاً[١٧٣]. تحدث قائـلاً: إن مشـغلي الطائرات بـدون طيـار يراقبون، في بعض الأحيـان، أفرادًا وعائلاتهـم لمدة طويلة، ويشاهدونهم وهم يعيشون حياتهم اليومية، ويقومون بواجباتهم المنزلية.

«لم يختبر الإنسـان ذلـك من قبل على الإطلاق أن يراقب شـخصاً ما من الأعلـى، لمـدة طويلـة للغاية، مـن دون علم ذلك الشـخص، بمـا يماثل القديـر على وجه التقريب، ليُتخذ القرار فيما بعد، في يوم ما، بأنك يجب أن تقتله. سـتضغط الزر وتفعل ذلك بالتأكيد، ولكنك ستشـعر بأنك كنت تعـرف ذلك الشـخص بطريقة ما، وهو ما يمكن أن يجعل الأمر شـخصياً إلى حد بعيد».

عبر مشغل الطائرات بدون طيار مات مارتن، في كتابه «البريديتور»، عمـا شـعر به من ألم حين انتهى به المطاف بقتـل مدنيين. روى، في إحدى الحـالات، كيـف أنـه خطط بعنايـة لاسـتهداف مجموعـة مـن المتمردين المفترضين، الذين كانوا يتحلقون حول شاحنة. ظهر ولدان يركبان دراجة، بصـورة مفاجئـة، على الشاشـة. كان أحدهما يبلغ العاشـرة تقريباً، والآخر يصغـره، وكانـا يحـاولان أن يتوازنـا على مقـود الدراجة. كانـا يضحكان، علاوة على ذلك، ويتحدثان، ويقودان الدراجة بالقرب من الشاحنة.

أصيب مارتن بالذعر، وحاول إيقاف الصاروخ، ولكنه تأخر للغاية. كان مشغل الحساسات قد أطلقه بالفعل. «تمثل كل ما أمكننا فعله، بعد أن تسـمرنا في أماكننا بفعل الصدمة الناتجة عن اقتراب الكارثة، في التحديق في الشاشـة برعب شـديد بينما كان الصاروخ الصامت يندفع من السـماء نحوهمـا... رأيت الدراجة، بعد أن اتضحـت الرؤية مجدداً عقب حدوث الانفجـار، وقـد قذفـت لمسـافة عشـرين قدمـاً. كان واحد مـن الإطارين لا يـزال يـدور. كانـت جثتـا الولديـن مشـوهتين وملقيتيـن إلـى جانـب جثث المتمردين»[١٧٤].

حاول مارتن أن يريح ضميره عبر استحضار مقولة وزير الدفاع الأسبق روبـرت ماكنمـارا «يتعين عليـك في بعض الأحيـان أن تقوم بما هو شـرير لكـي تفعـل الخير». (هو ماكنمـارا ذاته الذي يتحمل الكثير من المسـؤولية

عن الحرب الفيتنامية، التي تعرف في فيتنام «بالحرب الأمريكية»، التي أدت إلى قتل أكثر من مليوني فيتنامي، وما يزيد عن خمسين ألفا من الجنود الأمريكيين).

تحدث الرائد براين كالاهان قائلاً: إن مشغلي الطائرات بدون طيار يُوجَّهون على الدوام إلى تجزئة حياتهم، والفصل بين الوقت الذي يمضونه في إطلاق الصواريخ في ساحات المعارك، والوقت الذي يمضونه -في اليوم ذاته- في البيت، مع عائلاتهم[١٧٥]. أوضح كالاهان، بذلك الصدد، قائلاً: «يتعين عليك، عندما يتعلق الأمر بمشاهدة القتل، أن تتكتم عليه، وتضعه في سياقه المناسب. نجيد ذلك إلى حد بعيد».

يحسُن بهم ذلك، لأن الأخطاء تشيع للغاية بالرغم من تزويد الطائرات بدون طيار بالأحدث من تقنيات التصوير، وبالرغم من الضوابط والمراجعات التي يتم التباهي بها كثيراً لقرارات استخدام القوة الفتّاكة. كما إنه سيصعب على المرء، «إن لم يُجد ذلك إلى حد بعيد»، أن يعود إلى عائلته في البيت بعد أن يقتل عائلة شخص آخر.

أجرت صحيفة لوس آنجيليس تايمز تحقيقاً مطولاً حول حادث مأساوي وقع في أفغانستان، وأدى إلى مقتل ما يقارب عشرين مدنياً[١٧٦]. ظن مشغلو الطائرات بدون طيار في القوات الجوية الأمريكية، في ساعات الصباح الأولى من ٢١ شباط/ فبراير ٢٠١٠، أنهم رصدوا غنيمة كبرى: قافلة لمقاتلي طالبان تتجه نحو مجموعة من الجنود الأمريكيين على بعد بضعة أميال لا أكثر، بما يفترض أن يشكل مثالاً نموذجياً متكاملاً على قوة مراقبة ودقة الطائرات بدون طيار في عملها.

تحدث مشغل لطائرات البريديتور في قاعدة كريتش للقوات الجوية في نيفادا -الذي يعد واحداً من المتمرسين بالقدر الأكبر في

الجيش الأمريكي، الذي أمضى أكثر من ألف ساعة في تدريب الآخرين على تشغيل المركبات الجوية غير المأهولة- تحدث في حينه قائلا: «يبلغ عددهم ثمانية عشر، وقد ترجلوا وأخذوا في الانتشار».

تحدث مشغل كاميرا طائرة الطائرات بدون طيار، قائلا: «إنهم يصلُّون. إنهم يصلُّون. هذا ما يدل عليهم بالتأكيد. إنه مظهر قوتهم، وما يفعلونه على الدوام».

عقّب المنسق الاستخباري لطاقم الطائرات بدون طيار، قائلاً: «سيقومون بأمر شنيع».

وبالرغم من أنهم كانوا واثقين من أنهم رصدوا هدفاً مهماً، وفقاً لمشغل الكاميرا، فإن الأمريكيين لم يطلقوا صواريخهم. كان لا يزال يتعين عليهم أن يتحققوا من الأمر ويبحثوه بصورة إضافية.

وبالإضافة إلى مشغل الطائرة، مشغل الكاميرا، وضابط الاستخبارات المتمركزين في قاعدة كريتش للقوات الجوية، فقد كان هناك فريق في قاعدة أغلين للقوات الجوية في أوكالوزا، فلوريدا، مكلف بالمراقبة الدقيقة لصور فيديو طائرة البريديتور، وإرسال ملاحظاته لمشغلي الطائرة. كان هناك أيضاً، في الوقت ذاته، نقيب في الجيش على الأرض في أفغانستان، يقود القوات الأمريكية بالقرب من المشتبه فيهم من طالبان، ويملك القرار النهائي حول إطلاق الصواريخ.

وبالرغم من أن الطاقم كان يشتبه بالقافلة، فإنه لم يكن قادراً على إطلاق الصواريخ حتى يحصل على ما يعده دليلاً قاطعاً على أنه يتعامل مع متمردين مسلحين. ظن مشغل البريديتور في نيفادا، في مرحلة ما، أنه رصد سلاحاً. ولكن مشغل الكاميرا لم يستطع أن يؤكد ذلك. اشتكى مشغل الطائرة قائلاً: «كنت آمل أن نميز وجود بندقية، ولكن لا بأس».

أورد مراقب في فلوريدا، فيما بعد، أنه رأى طفلاً أو أكثر في قافلة طالبان المشتبه فيها. أجاب مشغل الكاميرا، قائلاً: «تباً، أين؟! لا أظن أنهم يتنقلون بالأطفال في هذا الوقت».

تحدث مشغل الطائرة، قائلاً: «لم لم يقل إنه رأى طفلاً «على وجه الاحتمال»؟ لم يتسمون بهذه السرعة في تمييز الأطفال، لا البنادق؟»

أجابه مشغل الكاميرا، قائلاً: «أشكك بصورة فعلية في أنه قد ميز طفلاً. أكره ذلك حقيقة»، ليردف قائلاً: «حسناً، ربما كان مراهقاً».

أخبر مشغل الطائرة القوات على الأرض بملاحظات المراقبين، قائلاً: إنهم رصدوا وجود «بندقية وطفلين، على وجه الاحتمال، قرب عربة الدفع الرباعي». تحولت الرسالة الأصلية المتمثلة في «تمييز وجود طفلين»، بما أدى إلى تحريفها عبر تناقلها من شخص لآخر، إلى «تمييز وجود طفلين على وجه الاحتمال»، وأضحت «البندقية المحتملة» دليلاً قاطعاً على حمل القافلة أسلحة. قرر النقيب، في نهاية المطاف، أن الوقت قد حان لإطلاق الصواريخ، مشيراً إلى أنه قد «تحقق من الأمر بصورة قاطعة»، استناداً إلى «الأسلحة التي رصدناها، والخصائص السكانية للأفراد» -الخصائص السكانية لهم، لا هوياتهم- بالإضافة إلى محادثات هاتفية أجريت في مكان ما من المنطقة، وتم التقاطها.

كانت النتائج مأساوية. أوردت صحيفة التايمز أن «القتلى والجرحى تناثروا في كل مكان». لاحظ طاقم البريديتور، في أعقاب الضربة، وجود ثلاثة ناجين يحاولون الاستسلام.

تحدث مشغل الكاميرا، قائلاً: «من هؤلاء؟».

أجابه المنسق الاستخباري، قائلاً: «نساء وأطفال».

تساءل مشغل الطائرة، قائلاً: «تحمل تلك السيدة طفلاً، أليس كذلك؟».

أجابه المنسق الاستخباري، قائلاً: «الطفل، كما أظن، إلى اليمين. أجل».

حاول أفراد طاقم الطائرة، الذين ارتكبوا للتو مذبحة بحق مجموعة من المدنيين، أن يقنعوا أنفسهم بأنهم لم يرتكبوا أي خطأ، بأنهم كانوا يؤدون عملهم لا أكثر.

تحدث مراقب السلامة، قائلاً: «لا سبيل للتحقق من ذلك».

تحدث مشغل الكاميرا، قائلاً: «لا سبيل للتحقق من ذلك من هنا».

بالرغم من كل ما يتباهى به الجيش من قيود وضوابط، وما يقوم به مراقبوه ومنسقوه الاستخباريون، فإن طاقم طائرة البريديتور قد قتل رجالاً، نساءً، وأطفالاً أبرياء. قُتل في الحادثة، وفقاً للحكومة الأمريكية، خمسة عشر شخصاً، وجُرح اثنا عشر، بما يشمل ثلاثة أطفال، بينما قال الأفغان إن ثلاثة وعشرين شخصاً قد قتلوا، بما يشمل طفلين صغيرين في الثالثة والرابعة من العمر.

لا تكفي، للعديد من الجنود، الأربعون دقيقة التي يستغرقها وصولهم إلى المنزل لكي يسترخوا وينسوا حوادث مرعبة مماثلة حتى لو قتلوا مسلحين، لا مدنيين. وكما يتحدث العقيد كريس تشامبليس، قائلاً: «أن يذهب المرء إلى العمل، ويقوم بأمور سيئة للأشرار، ثم يذهب إلى المنزل، والكنيسة، ويحاول أن يكون عنصراً منتجاً في المجتمع، فإن تلك الأمور لا ينسجم بعضها مع بعض جيداً بالضرورة».

عندما يذهب الطيارون إلى المنزل، فإنهم لا يتحدثون عن الأشرار -أو المدنيين الأبرياء- الذين يقتلونهم، بل يتكتمون على ذلك. تحدث طيار، تمت الإشارة إليه «بالكابتن دان» لا أكثر، إلى منتجي برنامج وثائقي عن الطائرات بدون طيار، قائلاً: «تعلم عائلتي أنني أشغل مركبات جوية غير مأهولة، ولكنني لا أخبرهم، حين أذهب إلى المنزل، عن المهام التي أقوم بها. يمثل ذلك تحدياً في العمل يتعين عليك أن تواجهه في كل يوم»[177].

وبالرغم من أنهم يعانون بصمت، على وجه الاحتمال، من التوتر الناتج عن القتال، فإن العديد من الجنود يستسيغون فكرة المشاركة في مهمات قتالية بينما يبقون في الديار، لأن ذلك، وفقاً لما يقولون، يزيح العبء عن كاهل عائلاتهم، ويسهم في طمأنتها، ويمنحهم فرص إمضاء المزيد من الوقت مع أطفالهم[178]. لا تضطر عائلات مشغلي الطائرات بدون طيار إلى التعامل مع القلق الناتج عن التساؤل عما إذا كان أحباؤهم سيعودون أحياء إلى الديار.

يجلس مشغلو الطائرات بدون طيار بأمان، على بعد آلاف الأميال من الخطر الفعلي الناجم عن الحرب التي يخوضونها. يتمثل الخطر الوحيد الذي يواجهونه في «الذهني»، الذي يعد، مع ذلك، حقيقياً للغاية، ويمكن أن ينعكس، في حالات متطرفة، على الحياة في المنزل، ليتجلى في إساءة المعاملة، وتمزيق العائلات.

تشكل مشاهدة صور الفيديو المباشرة، في العديد من الأحيان، بالنسبة لمشغلي الطائرات بدون طيار وغيرهم من أطقمها، تشكل العامل الأكبر المرتبط باضطراب توتر ما بعد الصدمة. ينخرط الجنود على الأرض في معارك قاسية ومميتة، ويراقب مشغلو الطائرات بدون طيار ذلك، لينعكس عليهم بالضرر.

أورد تقرير رسمي عن مشغلي الطائرات بدون طيار في القوات الجوية، في كانون الأول/ ديسمبر ٢٠١١، أن ما يقارب النصف قد أبلغوا بتعرضهم «لتوتر عملياتي شديد»، بالمقارنة مع ستة وثلاثين بالمئة من «مجموعة ضابطة» تتألف من ستمئة منتسب للقوات الجوية في وظائف تتعلق بالأمور اللوجستية أو الدعم[١٧٩]. يعاني ثلث مشغلي الطائرات بدون طيار في القوات الجوية تقريباً، الذين يبلغ عددهم ١١٠٠، من «الإجهاد»، مع تقديرات بأن سبعة عشر بالمئة «مكتئبون سريرياً»، بالرغم من أن ذلك الاكتئاب يمكن أن يعود، بنسبة كبيرة منه، إلى أداء مهام سابقة.

يتملك مشغلي الطائرات بدون طيار التي تساند القوات الأمريكية في مناطق الحرب كأفغانستان، يتملكهم ما هو أفضل من الشعور لأنهم ينجزون، وفق ما يحسون به، عبر حماية القوات على الأرض. يقوم الجنود والمارينز الذين يحاصرون بنيران المتمردين في أفغانستان، في العديد من الأحيان، باستدعاء الطائرات بدون طيار لمساندتهم، ويتواصلون بصورة مباشرة مع مشغلي تلك الطائرات لتحديد الأهداف بدقة. يتحدث العقيد مكدانلد، المشارك في وضع الدراسة، قائلاً: «يسيّر أولئك طائراتهم في الأعلى، ويطلقون صواريخهم على الأعداء. يحبون ذلك، ويشعرون بأنهم يحمون جنودنا، ويقيمون، بالتالي، علاقة افتراضية مع القوات على الأرض»[١٨٠].

تحدث شانن روجرز، الرائد في القوات الجوية، إلى مجلة التايم في العام ٢٠٠٥، قائلاً: «قد نكون في فيغاس جسدياً، ولكننا نحلق فوق العراق من الناحية الذهنية. نشعر بأن ذلك حقيقي»[١٨١].

تحدث العقيد بيت غرستن، قائد الجناح الجوي ٤٣٢ في قاعدة كريتش، إلى صحيفة ستارز آند سترايبز في العام ٢٠٠٩، قائلاً: «يقلل العديد من شأن ما نقوم به، قائلين «تبعدون ثمانية آلاف ميل عن موقع

الحدث، فما أهمية عملكم؟»، ولكننا لا نبعد ثمانية آلاف ميل في الحقيقة، بل ثماني عشرة بوصة. نحن أقرب، من عدة نواح، إلى موقع الحدث مما كنا عليه في أي من الأوقات أثناء الخدمة»[١٨٢].

تحدث مشغل الحساسات جيسي غرايس إلى الصحيفة المختصة بالشؤون العسكرية، قائلاً: «شهدت مقتل أفراد من قواتنا من قبل». شهد غرايس، في إحدى الحوادث، مقتل خمسة من رفاقه بعبوة ناسفة. لم يكن بإمكانه أن يفعل شيئا سوى المراقبة. أردف، بذلك الصدد، قائلا: «شعرت بأنني عاجز. كانت تجربة مؤلمة، وقد صدمتني. كنت قد بلغت التاسعة عشرة في حينه للتو، وقد وقعت الحادثة في يوم إحياء ذكرى قتلى الحرب. لا أنسى ذلك». يشهد العديد من مشغلي الطائرات بدون طيار حوادث مماثلة، ويشعرون بالذنب وكأنهم يقاتلون على الأرض إلى جانب رفاقهم من ضحايا تلك الحوادث.

تحدث الرائد براين كالاهان، قائلاً: «لو أخطأت في شيء ما، أو في رمية، فأتمنى لو أنني أنا كنت على الأرض، لا هم. أشعر في بعض الأحيان بأنني أخذلهم»[١٨٣].

توصلت دراسة القوات الجوية إلى أن أكبر مصدر لتوتر مشغلي الطائرات بدون طيار يتمثل في طول مدة العمل، وكثرة التغييرات في نوباته جراء نقص العاملين. تعمل أطقم الطائرات بدون طيار ما بين عشر ساعات إلى اثنتي عشرة ساعة في نوباتها. يحول التنقل بين نوبات العمل النهارية والمسائية، في كل ثلاثة أسابيع، دون اندماجهم بصورة كاملة في الحياة المدنية[١٨٤].

تحدث طيار حربي سابق، يدرس في أكاديمية القوات الجوية، قائلاً: «يشعر أفراد أطقم الطائرات بدون طيار نتيجة لذلك، على وجه

العمـوم، بالتعب، الاسـتياء، وخيبة الأمل. يعد ذلـك جنونياً. لا يمكنك أن تدير قوة جوية بتلك الطريقة من دون أن تنهك العاملين لديك».

يسـتحضر مشـغل الطائرات بدون طيار مات مارتـن كيف أنه -بعد أيام طويلة وأشهر متعاقبة من التحديق في الشاشات- بات ضجراً، محبطاً، ومشـتبهاً بكل من كان يراقبهم. وكما يعد مألوفاً بالنسـبة للعسـكريين، فقد بـات يأمل أن تكون الأهـداف التي يتتبعهـا لمتمردين بصـورة فعلية، لكي يحظى «ببعض الإثارة».

رصـد مارتن، في أحد الأيام، عـدداً من الرجال في حديقة في مدينة الصدر في بغداد، وتسـاءل عما إذا كانوا يشـكلون خليـة إرهابية ويعقدون اجتماعـاً، أو أنهم مجـرد مجموعة من الرجال الذيـن يدخنون ويرقصون. استمر، بكل الأحوال، في مراقبتهم لساعات.

كتـب مارتن قائلاً: «نهض أحدهم عـن الأرض، في نهاية المطاف، وتوجـه إلـى كوخ قريـب، لأظن أننـي تيقنت من أمـره أخيـراً، وأنه ذاهب لجلب أسـلحة». عاد الرجل، بما يدعو للأسـف، بكـراس مطوية، ليصاب مارتـن بخيبـة الأمل، ويردف قائـلاً: «أملت، طيلة مـدة المراقبة، أن يُخرج أحدهـم قاذفاً للصواريخ. كان ذلك سـيعني، على أقـل تقدير، أنني أوظف بشكل جيد الوقت الذي تحلق طائرة البريديتور فيه، ومواردها. أضف إلى ذلـك أن قصف الأشـياء يعد ممتعاً بصورة أكبر مـن مراقبة رجال يتحلقون في العتمة، ويدخنون السجائر، ويرقصون، ويمسكون أيدي بعضهم»[١٨٥].

تتمثل مشـكلة كبيرة أخرى تتعامـل معها أطقم الطائرات بدون طيار فـي زيـادة كمية المعلومات. تغرق حساسـات الطائرات بـدون طيار، التي تقوم بالتمحيـص في كميات هائلة من المعطيات الخام لمسـاعدة الجيش علـى تحديد ما يضربه ويتجنبه، تغرق في بحر من المعطيات اللامحدودة.

ولا يتعلق الأمر بها فحسب. يتحدث عالم الأعصاب آرت كرايمر، الباحث المتعاقد مع الجيش لمساعدة الجنود على التعامل مع زيادة المعلومات التي لا تؤدي إلى الإصابة بالتوتر فحسب، بل تتسبب في أخطاء مأساوية أيضاً، يتحدث قائلاً: «تؤثر زيادة المعلومات في مستويات الجيش كافة، من الجنرال إلى الجندي على الأرض»[١٨٦].

يدرك الجيش، كما تبدو الحال عليه، هذه المشكلة. يتحدث العقيد أريك ماثيوسن، قائد قوة مهام الأنظمة الجوية غير المأهولة، التابعة للقوات الجوية، قائلاً: «من الواضح أننا دفعنا بوحداتنا إلى ما يقارب نقطة الانهيار». ولكن لا يبدو أن الجيش يقوم بالكثير حيال ذلك.

تمّ رفض طلب مقابلة، من أجل هذا الكتاب، تقدمت به إلى المركز الوطني لاضطراب توتر ما بعد الصدمة التابع لوزارة شؤون المحاربين القدامى، وقد أعلن المتحدث باسم المركز «أنه يفتقر إلى خبير فيما يبحثه الكتاب للتعامل مع طلبي». وبالرغم من أن هناك العديد من المقابلات والكتب التي تتناول ما يصيب مشغلي الطائرات بدون طيار من أعراض مرتبطة باضطراب توتر ما بعد الصدمة، فإنه لا يوجد خبير حكومي يمكنه التحدث عن الأمر.

يفكر الجيش، كما تبدو الحال عليه، في حل آخر؛ استبدال آلات قاتلة أوتوماتيكية مستقلة بالطيارين[١٨٧].

يشير العقيد المتقاعد توماس آدمز إلى أن الدور البشري في حرب الطائرات بدون طيار يتحول بالفعل، وبصورة سريعة، إلى «الإشراف على وجه العموم، والتدخل لتسيير الأمور في حال حدوث عطل في المنظومة لا أكثر»[١٨٨]. يعتقد آدمز، مع ذلك، أن ما تتصف به الحرب الحديثة من سرعة، إرباك، وزيادة في المعلومات، سيؤدي قريباً إلى إخراج العملية

برمتها من «النطاق البشري». يردف آدمز، بذلك الصدد، قائلاً: «ستكون الأسلحة في المستقبل سريعة، صغيرة، ومتعددة للغاية، وستوجد بيئة معقدة إلى حد بعيد بحيث يصعب على البشر التحكم بها. تأخذنا التقنيات الجديدة سريعاً إلى حيث لا نرغب في الذهاب على وجه الاحتمال، ولكن لا يمكننا تجنب ذلك على الأرجح».

ستتعاظم النزعة إلى الاستقلالية الأكبر بالتأكيد بينما ينتقل الجيش من مشغل يسيّر طائرة بدون طيار واحدة عن بعد، إلى مشغّل يسيّر عدة طائرات بدون طيار عن بعد في الوقت ذاته. يتحدث رانلد سي. آركن، الذي قام بدراسة عن الموضوع لحساب مكتب أبحاث الجيش، قائلاً: «تعد الاستقلالية الفتّاكة حتمية»[١٨٩].

يعتقد آركن أن الطائرات بدون طيار المستقلة يمكن أن تبرمج لتلتزم بالقانون الدولي. يعارض آخرون ذلك بشدة، ويشككون في قدرة الروبوتات على اتخاذ قرارات تتعلق بالموت والحياة.

ولكن يوجد أمر واحد مؤكد: لن تعاني الطائرات بدون طيار المستقلة من اضطراب توتر ما بعد الصدمة. ويعود لذلك السبب في أن الجيش سيزيد على الأرجح -بغض النظر عن مدى أخلاقية ذلك- من اعتماده على آلات لا تملك عواطف وضمائر طياريها المزعجة.

ضحايا بالتحكم عن بعد

«لم يسمع أفراد عائلة خان شيئاً على الإطلاق. كانوا نائمين منذ ساعة حين أصاب صاروخ هيل فاير كوخهم المبني من الطين. أصيب القرويون بالاختناق، بفعل الدخان الأسود والغبار، بينما كانوا يحفرون بين الأنقاض. بترت ساقا زيراك الذي يبلغ من العمر أربعة أعوام، وأصيبت شقيقته ماريا، البالغة من العمر ثلاثة أعوام، بحروق شديدة. كان كلاهما ميتاً بكل الأحوال. عمد عرفان، ابن عمهما البالغ من العمر ١٦ عاماً، حين رآهما، إلى إحاطتهما بذراعيه برقة، وضم جسديهما المحطمين بقوة إلى صدره، قبل أن يقبل وجهيهما بحنان، ويصاب بحالة من الذهول»[١٩٠].

صحيفة لوس آنجيليس تايمز

«لم يسبق لنا في تاريخ الحرب على الإطلاق أن تمكنا من التمييز بصورة جيدة بين المقاتلين والمدنيين بقدر ما مكنتنا الطائرات بدون طيار من ذلك»[١٩١].

افتتاحية وول ستريت جورنال

يصعب أن يتم إيجاد من هم أقل حظاً من الضحايا المنتمين إلى المناطق القبلية، المدارة فيدرالياً، في شمال غرب باكستان، التي يتدبر سكانها معيشتهم بشق الأنفس في أراضيها المقفرة، القاحلة، والنائية، التي لا يعلم مواطنوهم حتى الكثير عنها، وتعد مجهولة إلى أبعد الحدود لمن يقطنون في أمريكا البعيدة. بات انعزال تلك المناطق، في العقد الذي أعقب ١١/ ٩ على وجه التحديد، يشكل عبئاً قاتلاً على سكانها، الذي يتمثّل في عدد متزايد على الدوام من الأرواح الضائعة.

أخذت مناطق شمال وجنوب وزيرستان، بدءاً من العام ٢٠٠٤، حين وسعت السي آي أى من بحثها عن المقاتلين ليتجاوز الحدود الأفغانية إلى باكستان، أخذت تضرب بالصواريخ الموجهة من المركبات الجوية غير المأهولة.

تحوم تلك المركبات فوق المناطق المستهدفة قبل أن تضربها بالصواريخ -لينشر أزيزها المزعج والمشؤوم الرعب فوق مدارس وبيوت القرى، فوق الأعراس والمآتم. لا يعلم القرويون على الإطلاق متى يمكن أن تطلق صواريخها: عند الفجر قبل أن تستيقظ العائلة لأداء الصلاة، أو حين يتوجه الرجال إلى المسجد، أو في منتصف النهار حين يخبز الخبز على الأفران، ويلعب الأطفال في ساحات الدور.

بدأت الهجمات بالطائرات بدون طيار في باكستان، التي تتم وفقاً لبرنامج السي آي أى السري، الذي لم يعترف به البيت الأبيض في عهد أوباما بصورة رسمية على الإطلاق، بدأت في العام ٢٠٠٤، وأخذت تزداد بصورة كبيرة بمرور السنين. بلغت الحرب المروّعة التي تتم بالتحكّم عن بعد، في ١٤ تشرين الأول/ أكتوبر ٢٠١١، بلغت مرحلة جديدة حين تمّت الضربة رقم ثلاثمئة بالطائرات بدون طيار في ساعات الفجر الأولى، لتقتل ستة مسلحين مزعومين(١٩٢).

وبما أن الدخول إلى المنطقة قد حظر من قبل قوات الأمن الباكستانية، فلم يتمكن الصحفيون من نقل الحقيقة في ما يتعلق بحجم الخسائر في الأرواح، الممتلكات، والأرزاق في شمال غرب باكستان المبتلى بالطائرات بدون طيار. تعتمد بعض التقارير على مصادر محلية، وصحفيين غير مدربين يعملون مع وكالات الأنباء، بينما تعتمد تقارير أخرى على وكالات الاستخبارات الباكستانية والأمريكية، التي تنزع إلى القول بأنها تقتل مسلحين في عملياتها كافة. يعود إلى ذلك السبب في وجود إحصائيات متباينة للغاية للخسائر بين المدنيين.

تبدأ تلك الإحصائيات بالرقم صفر، المهين من الناحية الفكرية، الذي صرح به جون أو. برينن، كبير مستشاري الرئيس أوباما لمكافحة الإرهاب، في حزيران/ يونيو ٢٠١١. تحدث برينن عن السنة السابقة قائلاً: «لم يكن هناك أي حالة موت، كضرر جانبي، بسبب الكفاءة والدقة الاستثنائيتين للقدرات التي نقوم بتطويرها»[١٩٣]. عمد السيد برينن، في وقت لاحق، إلى تغيير تصريحاته إلى حد ما، قائلاً: «لم تجد الحكومة الأمريكية، لما يزيد عن سنة، لحسن الحظ، بسبب حرصنا ودقتنا، لم تجد دليلاً ذا صدقية على سقوط قتلى، كأضرار جانبية، نتيجة عمليات مكافحة الإرهاب الأمريكية خارج أفغانستان أو العراق». يعكس تصريحه، أكثر من أي شيء آخر، رفض الحكومة الأمريكية، الذي ينم عن التصلب، للتحقيق في نتائج الهجمات التي تشنها، أو الإقرار بها.

ووفقاً لإحصائيات لدى مؤسسة أمريكا الجديدة، بين عامي ٢٠٠٤- ٢٠١١، فإن ما يتراوح بين ١٧١٧ و٢٦٨٠ شخصاً قد قتلوا، وقد كان من بينهم ما يتراوح بين ٢٩٣ و٤٧١ مدنياً[١٩٤]. يزيد مكتب الصحافة الاستقصائية، الذي يقع مقره في المملكة المتحدة، من تلك الأرقام، ليقول إن ما بين ٢٣٧٢ و٢٩٩٧ شخصاً قد قتلوا في تلك المدة، وإن من بينهم ما يتراوح بين ٣٩١ و٧٨٠ مدنياً، بما يشمل ١٧٥ طفلاً[١٩٥].

تعـد أرقـام المكتـب أكثر دقة علـى الأرجح، اسـتناداً إلـى أنه يمثل واحـداً من المجموعات القليلة التي تحظـى بمصادر على الأرض بصورة فعلية. يسـاعد المكتب، في الواقع، على إيصال أصوات الضحايا أنفسـهم إلـى العالم خارج المنطقـة المنكوبة بالحرب، لتحدي الروايات الرسـمية عن حرب الطائرات بدون طيار، والخديعة المتمثلة في أن الطائرات بدون طيار تشكل أداة فاعلة لقتل المسلحين من دون أضرار جانبية.

يشـكك شـهزاد أكبـر، المحامـي الباكسـتاني الـذي يمثـل ضحايـا الطائـرات بدون طيار، والذي أنشـأ مؤسسـة الحقوق الأساسـية، يشـكك فـي تلـك الأرقام حتى، ويزعـم أن الغالبية العظمى ممن قتلـوا هم مدنيون عاديـون. يتحدث أكبر، بذلك الصدد، قائلا: «لدي مشـكلة مع هذه الكلمة «مقاتل». من الممكـن أن يكون معظم الضحايا الذين يوصفون بالمقاتلين متعاطفيـن مـع طالبان، ولكنهم ليسـوا منخرطين في أي أفعـال إجرامية أو إرهابية». يردف أكبر قائلاً إن الأمريكيين يحتجون، في الكثير من الأحيان، بحقيقـة أن شـخصاً ما يحمل سـلاحاً لإثبات أنه مقاتـل. «إن كان ذلك هو المعيـار، فسـيتعين على الولايـات المتحدة أن ترتكب إبـادة جماعية، لأن الرجـال كافة فـي تلـك المنطقة يحملـون بنادق آليـة، ويؤمنون بالشـريعة الإسـلامية. يمثل ذلك جزءاً من ثقافتهم. متـى كان بإمكاننا أن نقتل الناس استناداً إلى معتقداتهم؟». يعتقد أكبر أن من يصنفهم الأمريكيون على أنهم «أهـداف عالية القيمة» هم من يجدر أن يعـدوا مقاتلين، بينما يجدر أن يعد الآخرون جميعاً ضحايا مدنيين.

يتفـق نور بهرام، المصـور الذي يخاطر بحياته علـى الدوام لتصوير مـا يحدث نتيجة لضربات الطائرات بدون طيار، يتفق مع ذلك قائلاً: «ربما يتم القضاء على مسلح واحد من بين كل ١٠- ١٥ شخصاً يقتلون»[١٩٦].

تفضل الحكومة الأمريكية أن تتشبث بالأسطورة المتمثلة في أن ضربات الطائرات بدون طيار تقتل المسلحين فحسب. ووفقاً للرواية الرسمية، فإن المناطق القبلية في باكستان تعج بالمقاتلين المتخفين، الذين يخططون لأعمال قتل جماعية في كهوف المنطقة المقفرة، التي تؤوي أسوأ الإرهابيين في العالم، وإن أولئك، الأسوأ في العالم، هم من يقتلون فحسب.

ينجو المسؤولون الأمريكيون بفعلتهم المتمثلة في سرد تلك الرواية، استناداً إلى أن وسائل إعلام المصالح تهتم بعرض قصص الحكومة الملفقة وغير المثبتة «كأخبار» بأكثر من التحدث إلى الناس على الأرض لكشف الحقيقة بصورة فعلية. يخرج مسؤول حكومي أمريكي مجهول، بصورة دورية، عقب كل ضربة طائرة بدون طيار تنفذ، كما يُزعم، لقتل حفنة من المسلحين، يخرج للتحدث إلى الصحافة، والتأكيد للمراسلين بهدوء أن الأشرار وحدهم من يقتلون في حروب أمريكا بالطائرات بدون طيار، لينطلي ذلك على الصحافة.

تخادع الحكومة الأمريكية الصحافة أيضاً عبر تسليط الضوء على من تعدمهم بلا محاكمة من قادة المقاتلين الخطرين المفترضين، ليشكل ذلك انتصارات تساعد على التقليل من مخاوف من يهتمون بمسألة القتلى المدنيين.

عمدت الحكومة الأمريكية ووسائل إعلام المصالح، في ٧ آب/ أغسطس ٢٠٠٩، إلى إبراز الخبر المتمثل في تنفيذ طائرة بدون طيار ضربة في قرية زانغرا جنوب وزيرستان، أدت إلى مقتل بيت الله محسود زعيم حركة طالبان باكستان، والعقل المدبر المزعوم لاغتيال رئيسة وزراء باكستان السابقة بنازير بوتو[١٩٧].

ووفقاً لتقارير تلك الوسائل، فقد كان محسود في بيت والد زوجته، يتلقى علاجاً وريدياً من مرض السكري، حين أصاب صاروخ أطلق من طائرة «بريديتور» المبنى، وقتله. لم يذكر الكثير عن زوجته، والدها، وثمانية أشخاص آخرين قتلوا أيضاً. ولم يذكر بالمطلق أن تلك الضربة الناجحة قد تمّت بعد خمس عشرة ضربة أخرى فاشلة لقتل محسود، أدت، عوضاً عن ذلك، إلى قتل ما بين ٢٠٤ و٣٢١ شخصاً، بما يشمل أعضاء غير بارزين في طالبان وزعماء قبليين مسنين وأطفالاً أبرياء[١٩٨]. تمثل كل ما سمعه الشعب الأمريكي في أن العدالة قد تحققت الآن عبر قتل الشرير محسود.

تمّ، بعد مضي عامين وتنفيذ العديد من ضربات الطائرات بدون طيار التي لم يعلن عنها بالقدر ذاته، في ٣ حزيران/ يونيو ٢٠١١ -وبعد مضي شهر لا أكثر من غارة بطائرة هليكوبتر شنتها قوات «السيلز» البحرية الخاصة، وأدت إلى قتل أسامة بن لادن في منزله في أبوت أباد- تمّ قتل زعيم بارز آخر في القاعدة أيضاً، إلياس كشميري، بواسطة طائرة بريديتور أمريكية[١٩٩]. عُد كشميري، الذي كان يشار إليه بالمقاتل الأكثر خطورة في باكستان، عد مسؤولاً عن عدة هجمات على قوات الأمن الباكستانية، بما يشمل هجوماً شن قبل أسبوع لا أكثر على قاعدة بحرية باكستانية في كراتشي، دمرت فيه طائرتان مضادتان للغواصات[٢٠٠]. زعم أيضاً بأن كشميري كان العقل المدبر للهجمات الإرهابية في مومباى، الهند، في العام ٢٠٠٨، التي أدت إلى مقتل ١٦٣ شخصاً. تمّ الترحيب بمقتله من قبل القوات الأمريكية والباكستانية باعتباره يشكل نصراً، بالرغم من أن الأخيرة كانت قد أعلنت عن مقتله من قبل بهجوم نفذته طائرة بدون طيار في العام ٢٠٠٩.

يمثل ما حدث بالفعل في هجوم العام ٢٠٠٩ ذاك واحداً من المآسي العديدة التي لم يسلّط الضوء عليها[٢٠١] قامت طائرتان بدون طيار،

فـي ٧ أيلول/ سـبتمبر ٢٠٠٩، بالتحليـق طيلـة اليـوم فـي أجـواء ميرالـي تحصيل في شـمال وزيرسـتان. كان شـهر رمضان قد حل في حينه، وكان النـاس في المنطقة غاضبين من مراقبـة الطائرات بدون طيار لهم أثناء أداء شعائرهم الدينية. كانوا خائفين أيضاً، ولكن من شأن إظهار المرء الخوف فـي ثقافـة البشـتون أن يعني أنه جبـان، ويلحق بـه العار، لـذا كان الجميع يكتمون خوفهم.

كان سـعد اللـه، الطالب البالغ من العمر خمسـة عشـر عاماً، يشـعر بالسعادة في ذلك اليوم، على وجه الخصوص، لأن جديه، أعمامه، وأخواله سـيحضرون للإفطار في منزله، ولأن أمه كانت تعـد وجبته المفضلة. رأى سـعد الله الطائـرة غير المأهولـة في السـماء، وتبادل المزاح مـع أصدقائه بشـأن «البانغانا»، الاسـم الذي يطلقه السـكان في المنطقـة على الطائرات بدون طيار استناداً إلى ما تسببه من ضجيج متواصل.

بـات المنـزل، في المسـاء، يعـج بالرجال كافة فـي العائلـة؛ جدَّيْه، أعمامـه، أخوالـه، وأبنائهم. أنهى الجميـع إفطارهـم، وتوجهوا إلى سـاحة الدار لأداء الصلاة.

كان المحظوظـون هـم من عادوا إلـى الداخل قبل شـن الضربة، لا سـعد الله، الذي فقد وعيه تحت أنقاض السـقيفة. اكتشـف فيما بعد، حين اسـتيقظ في المستشـفى في بيشـاور، أنه فقد البصر في إحدى عينيه بسبب الشظايا، وأن ساقيه قد بترتا. علم سعد الله أيضاً أن عمه المسنّ، الذي كان مقعداً، قد قتل، كما اثنان من أبناء أعمامه، قادان الله جان، وصابر الدين.

تحدث سعد الله، قائلاً: «كنت أحلم بأن أكون طبيباً. ولكن لا يمكنني الآن أن أسـير إلى مدرستي القديمة حتى». يدرس الفتى المكلوم، بالنتيجة، الدين في مدرسة القرية، ولـم يعد ينظر بالكثير من الأمل إلى المستقبل.

أوردت وسـائل الإعلام، في الوقت ذاتـه، أن الضربة كانت ناجحة، وأنها أدت إلى قتل مجموعة من المسـلحين، بما يشـمل إلياس كشـميري، الذي لم يقتل بالفعل إلا بعد مضي عامين.

* * *

لا تعـد الضجـة التـي تثار حـول عمليـات القتـل بالطائـرات بدون طيار لقادة طالبان والقاعدة، كبيت الله محسـود وإلياس كشـميري، لا تعد مسـتغربة لأنها تعبّر عن الاستراتيجية والخطاب الهادفين إلى تلميع حرب الطائـرات بدون طيـار باعتبارها أفضل حل متاح للتحديات الاسـتراتيجية مـن قبل اللاعبيـن من غير الـدول، المختبئين فـي معاقل نائية مـن العالم. يحول التركيز الشـديد على رجال من أمثال محسـود وكشـميري –اللذين لا يحترمان الحياة البشرية وفق المقاييس كافة، بما يستحق الإدانة– يحول دون طرح أي من الأسئلة حول تلك التكتيكات وآثارها في من لا يتصفون بالقدر ذاته من الدناءة؛ كالرجال، النساء، والأطفال الأبرياء. يشكل السؤال الآتي: «ألا تريدون أن يموت الأشـرار؟»، الذريعة المسـتخدمة لقمع تلك الشكوك المزعجة الملحة حول الطائرات بدون طيار وضحاياها الخفية.

يمـوت العديـد، بما لا يعـد مفاجئاً، مـن غير أولئك الأشـرار –فتية الملصقـات البغيضين من أعضـاء القاعدة وطالبان، الذيـن يجعل موتهم، كمـا تبـدو الحال عليه، كل شـيء آخر مبـرراً وغير جدير بالنقـاش. بدأ من وقعوا ضحايا لهجمات الطائـرات بدون طيار، الذين دمرت منازلهم وقتل أحباؤهم من قبل تلك الطائرات الغازية، بدؤوا يتحدثون بصورة تدريجية، بالرغـم من قمـع أصواتهم بقوة من قبـل قوات الأمن المحليـة، ولا مبالاة وسائل الإعلام بهم.

كان مـن بينهـم كريـم خـان، القاطـن فـي قريـة ماشـكل الصغيـرة قـرب ميـر علي فـي شـمال وزيرسـتان. أدت ضربـة بطائـرة بـدون طيار،

في ٣١ كانون الأول/ ديسمبر ٢٠٠٩، بينما كان معظم الأمريكيين يضعون لوائح بما سيقومون به في السنة الجديدة، ويتهيئون لأمسية من الاحتفالات لتوديع العقد الأول من الألفية، أدت إلى تدمير مقر اجتماعات الجيرغا، أو المجلس القبلي، في مجمع كريم خان،[٢٠٢] الذي عملت عائلته على استضافتها منذ سنوات، لاتخاذ القرارات، فيما بين أعضاء الجيرغا، حول مسائل تتعلق بقريتهم الصغيرة، من جمع الأموال للرعاية الصحية للمسنين، إلى التوسط لحل النزاعات بين سكان القرية.

لم يكن هناك، بكل الأحوال، اجتماع للجيرغا في تلك الأمسية، ولم يكن خان في القرية حتى، بل في إسلام أباد على بعد مئات الأميال. كان شقيقه آصف إقبال، وابنه زين الله خان البالغ من العمر ثمانية عشر عاماً، كانا في المنزل، بكل الأحوال، يتحدثان في ساحته حين حلقت طائرة بدون طيار في الأجواء، لتنذر -بظلالها القاتمة، وأزيزها المزعج- سكان قرية ماشكل بالشؤم.

ولكن الطائرة لم تكتف بالتحليق في تلك الليلة، ومراقبة تحركات القرويين على الأرض، كما تفعل في العادة، بل أطلقت صاروخاً على القرية بصورة مباشرة. تبيّن، بعدما انتهت حالة الفوضى الناجمة عن الانفجار، وأرخى الليل سدوله على الدماء والأنقاض، أن جسدي شقيق خان وابنه قد تحولا إلى أشلاء.

لم يعلم خان بمقتلهما حتى حلول الصباح على وجه التقريب، حين رن هاتفه النقال إلى جانب سريره، ليتم إعلامه بالخبر. هرع الرجل إلى المنزل ليشيع شقيقه وابنه الحبيبين، ويقوم بدفنهما -في أول يوم من العام الجديد ٢٠١٠- تحت التراب البارد الجاف في القرية التي أحباها. زعمت تقارير إخبارية أن المستهدف بطائرة الطائرات بدون طيار كان حاجي عمر، القائد في طالبان، ليؤكد السكان أنه لم يكن بالقرب من القرية حتى في

تلك الليلة. لم تقع المأساة التي خلّفت جرحاً لن يندمل إلى الأبد في حياة عائلة كريم خان، لم تقع إلا نتيجة لغلطة.

عندما يسمع الأمريكيون، بالتالي، قصصاً عن مقاتلين أشرار كإلياس كشميري وبيت الله محسود، فإنهم لا يسمعون أي قصص عن ضحايا مثل آصف إقبال وزين الله خان.

لم يكن آصف إقبال مقاتلاً، في الحقيقة، أو متعاطفاً مع المقاتلين حتى، بل عمل معلماً في مدرسة في قرية داتخيل المجاورة، بعدما نال شهادة الماجستير في الأدب الإنكليزي من الجامعة الوطنية للّغات الحديثة. شغل آصف تلك الوظيفة ثماني سنوات، ليعلم الأطفال بما أمكنه أن يوفر من موارد بسيطة. وقف الرجل، لما يقارب العقد تقريبًا، في وجه تهديدات طالبان، ومحاولاتها إغلاق المدرسة، وتحدّى القيود التي تفرضها قوات الأمن الباكستانية. واجه إقبال -بشجاعة- ما لا يحصى من التحديات لتعليم الأطفال في بلد ممزق بالحرب، مدافعاً عن الفوائد المستقبلية للتعليم مقابل القوة الحالية للسلاح.

بات ذلك الرجل المثقف، الذي آمن بأن المستقبل سيأتي بالأفضل، بات ميتاً الآن، بعدما شكل هدفاً لمعتدٍ بعيد لم يعرفه أبداً، معتدٍ لن يواجه أي عقاب لضغطه زر الإطلاق من دون أن ينظر جيداً، من دون أن يتحقق من الهدف، ويتثبت منه ثانية. ترك إقبال عائلة صغيرة. أضحت من كانت عروسه قبل ثلاث سنوات أرملة الآن، مفجوعة للغاية بحيث عجزت عن الكلام لأسابيع بعد الهجوم. جلس في حضنها محمد كفيل، الطفل البالغ عامين الذي لن يتذكر والده إلا عبر ما تريه إياه أمه من صور مهترئة، وقصاصة من جريدة تصف الهجوم، وما يرويه له الأعمام وأبناؤهم الكبار من ذكريات.

قتـل في تلـك الليلة أيضاً ابن كريـم خان، زين الله خـان، المتخرج حديثـاً في المدرسـة الثانويـة. كان الفتى قد عـاد إلى القرية مسـتلهماً عمه الشـاب، ونـال وظيفة حارس في المدرسـة الصغيـرة ذاتهـا. كان زين الله مصممـاً، كعمه، على إقنـاع المجتمع بقيمة التعليم. وقد فـارق الحياة إلى جانب مرشـده في تلـك الليلة، تاركاً وراءه المئات مـن الطلاب المفتقرين إلى فرصة اسـتكمال دراسـتهم، الفتيان الذين باتوا يمقتون الطائرات بدون طيار التي قتلت معلمهم، ويتوقون للانتقام.

قتـل رجـل ثالث في تلك الليلـة أيضاً، الذي كان ينـزل بالصدفة في مجمّـع كريـم خان. كان يعمل فـي البناء، وقـد أتى إلى القرية ليشـارك في ترميم مسـجدها. شـعر الرجل بالكثير مـن التعب بعد العمـل بحيث عجز عـن العـودة إلى بيته الـذي يبعد أميـالاً، ليتـم الترحيب به -بكـرم الضيافة التقليدي- في منزل خان.

كان من شأن من سقطوا في الهجوم على قرية ماشكل في تلك الليلة أن يقعـوا ضحايـا للتعتيم كمئات القتلـى المجهولين بصواريـخ الطائرات بـدون طيـار، الذين يصنّفون ضمن التسـمية اللاإنسـانية العبثيـة «الأضرار الجانبية»، لو لـم يكن كريم خان صحفياً.

تعهد الرجل، بعدما دفن ابنه وشـقيقه في ذلك اليوم الحزين، بأنهما لن ينسيا أبداً. عمد، على امتداد تلك السنة، إلى جمع عائلات الضحايا في أنحاء شـمال وجنوب وزيرستان كافة، ليسـلّط الضوء على آلامهم الناتجة عن الطائرات بدون طيار التي يتجاهلها الحس الأخلاقي للعالـم، ومعاناتهم الخفية، ومحنتهم التي يتم التعتيم عليها من قبل الضرورة المهيمنة المتمثّلة في قتل الإرهابيين.

حقق خان، في تشرين الثاني/ نوفمبر ٢٠١٠، نصره الصغير الأول. قام، بمساعدة محام في إسلام أباد يعمل في مجال حقوق الإنسان، يدعى شهزاد أكبر، قام بإرسال مذكرة قانونية إلى السفارة الأمريكية في إسلام أباد، يفصل فيها وقائع القتل الجائر لشقيقه وابنه، ويتهم السي آي أى بالانتهاك الصارخ للإعلان العالمي لحقوق الإنسان، عبر استهدافها وقتلها مدنيين أبرياء بهجمات الطائرات بدون طيار[٢٠٣].

تحدث كريم خان، بعد مضي بضعة أسابيع، مع اقتراب الذكرى السنوية الأولى للهجوم، من أمام مركز للشرطة، حيث قدم شكوى للتو، يطالب فيها بمنع رئيس محطة السي آي أى في إسلام أباد من مغادرة باكستان إلى أن يُسأل عن التهم الموجهة إليه، تحدث، وهو يقف على درجات مدخل المركز، قائلاً: «قدمنا طلباً للسلطات بعدم السماح لجانثن بانكس بالهرب من باكستان»[٢٠٤]. تحدث محاميه شهزاد أكبر قائلاً إن موكله قد علم بهوية السيد بانكس، التي يتم إبقاؤها طيّ الكتمان في العادة، عبر تقارير صحفية محلية. أوردت صحيفة باكستانية محلية أيضا أن اسم مدير المحطة لم يكن على قائمة من يحظون بالحصانة الدبلوماسية، وقالت إنه يجب أن يخضع للمساءلة عن الفظائع بحق المدنيين الباكستانيين الأبرياء التي يتسبب بها برنامج السي آي أى للطائرات بدون طيار[٢٠٥].

وبالرغم من أن اتهامات عائلة ضحايا الطائرات بدون طيار لمسؤول السي آي أى قد تصدرت العناوين الرئيسة في باكستان، فإن كريم خان لم يفز بتلك الجولة. تم السماح لجانثن بانكس، لو كان ذلك اسمه الحقيقي حتى، بمغادرة البلاد. أخذ عمل كريم، مع ذلك، في حشد عائلات الضحايا في الأيام والأشهر الآتية، أخذ يحقق غاياته ببطء، مع بدء سياسيين محليين في باكستان، ومنظمات دولية لحقوق الإنسان، كالمجموعة الحقوقية في المملكة المتحدة «ريبريف»، ومنظمة الحقوق الدولية «سيفيك»، في الاهتمام بصورة أكبر بالمسألة.

قامت مؤسسة الحقوق الأساسية التي يقع مقرّها في باكستان، في تشرين الأول/ أكتوبر ٢٠١١، بمساعدة المجموعة الحقوقية البريطانية ريبريف، قامت بإحضار مجموعة من عائلات ضحايا الطائرات بدون طيار من شمال وجنوب وزيرستان إلى إسلام أباد. تمّ جمع أكثر من ٣٥٠ قروياً، بما يشمل أكثر من ستين من عائلات ضحايا الطائرات بدون طيار التي تعيش على الحدود الباكستانية- الأفغانية، تحت مسمّى «جيرغا وزيرستان الكبير»، للقاء مجموعة من الغربيين. حظي القرويون، للمرة الأولى، بفرصة التعبير عن رؤيتهم لحرب الطائرات بدون طيار التي تشن في منطقتهم، ولا يسلّط الضوء عليها. انتهى اجتماع الجيرغا ببيان من الباكستانيين يدين أشكال الإرهاب كافة، بما يشمل ضربات الطائرات بدون طيار التي تشن من قبل السي آي أى.

كان من ضمن المجموعة فتى خجول في السادسة عشرة، يدعى طارق عزيز. تمّ تدريب طارق على أساسيات التصوير من قبل محامي حقوق الإنسان شهزاد أكبر، لكي يتمكن من توثيق الدمار الناتج عن الضربات في قريته، والقرى المجاورة[٢٠٦]. امتلك طارق دافعاً شخصياً: قتل ابن عمه أنور الله، قبل ثمانية عشر شهراً، بضربة شنتها طائرة بدون طيار بينما كان يقود دراجته النارية في قرية نوراك.

امتلك طارق خبرة كبيرة أيضاً في ما يتعلق بالطائرات بدون طيار. يستذكر نيل ويليامز، المحقق البريطاني العامل مع ريبريف، الذي كان حاضراً في الاجتماع القبلي، قائلاً إنه سأل طارق عما إذا كان قد شاهد طائرة بدون طيار في أي من الأوقات. يردف ويليامز قائلاً: «توقعت أن يقول «أجل، أرى واحدة في الأسبوع»، ولكنه قال إنه كان يشاهد عشر طائرات، أو خمس عشرة طائرة، في كل يوم. أضاف قائلاً أيضاً إنها كانت تدفعه للجنون في الليل، لأنه كان يعجز عن النوم».

عـاد طـارق، بعد انتهـاء الاجتمـاع، إلى قريتـه في وزيرسـتان، وقد لقي التشـجيع، في جهوده التوثيقية، من قبل الناشـطين والصحفيين الذين تعهدوا بتسليط الضوء على محنة سكان تلك المنطقة. ولكن لم يكن له، أو لأي مـن الأجانب الذين التقاهم، أن يتخيل أن أول توثيق للقتل بالطائرات بدون طيار، بعد اجتماعهم في إسلام أباد، سيتمحور حول طارق نفسه.

ذهـب طارق، بعـد ثلاثة أيـام من الاجتمـاع، برفقة ابـن عمه وحيد الرحمـن البالـغ من العمر اثنتي عشـرة سـنة، ليقل عمته المتزوجـة حديثاً. أصـاب صاروخان سـيارة الفتيين، على بعد مئتي يـاردة لا أكثر من منزلها، ليؤدي ذلك إلى مقتلهما على الفور.

ووفقـاً لمكتب الصحافـة الاسـتقصائية، فقد مثّل طـارق وابن عمه الضحيتيـن رقـم ١٧٤ و١٧٥ من الأطفـال، الذين سـقطوا نتيجة لضربات طائرات السي آي أى بدون طيار[٢٠٧].

كان طـارق عزيـز الأصغر من بين سـبعة أبناء، الذين نشـأوا في ظل حيـاة صعبة على الحدود المقفرة بين أفغانسـتان وباكسـتان. كان والده قد غادر منذ سـنوات، ليعمل سـائقاً لشيخ في الإمارات، ويرسل المال لعائلته كلما أمكنه ذلك. لم يكن ابن عمه وحيد بأحسـن حالاً، حيث كانت عائلته تعتمـد على راتبه الشـهري البالغ ٢٣ دولاراً، الذي يتقاضـاه لقاء عمله في متجر، لتلبية احتياجاتها الأساسية.

تـمّ إيـراد خبر مقتل الفتييـن، بفضل الاجتماع المهـم الذي عقد في إسـلام أباد قبل أيام - بالنقيض من ضحايا الطائرات بدون طيار الآخرين، الذيـن لا تذكـر قصصهم أبـداً، أو يحد عليهم خارج قراهم- تـمّ إيراده في الصحف عبر العالم. عمد المحامي الأمريكي كلايف ستافرد سميث، الذي كان قـد التقى الفتى للتو في إسـلام أباد، إلى كتابـة مقالة مؤثرة في صحيفة

نيويورك تايمز، قائلاً: «يتمثل خطئي في أنني نظرت إلى حرب الطائرات بدون طيار في وزيرستان من ناحية قانونية بحتة؛ باعتبارها انتهاكاً غير قانوني صارخ لسيادة باكستان، بما يماثل قصف الرئيس نيكسون كمبوديا في العام ١٩٧٠ . ولكن المسألة باتت بصورة مفاجئة الآن واقعية وشخصية للغاية. كان طارق فتى جيداً وشجاعاً. صافحت يده الدافئة مؤخراً بمودة، لتغدو باردة -بعد ثلاثة أيام- في موته، ليخمد ذلك الجسد جراء ما فعلته حكومتي. تمزّقت عائلة طارق، التي كانت تأمل في وقت قريب للغاية أن تشاركنا من أجل السلام، تمزّقت بفعل صاروخ أمريكي، بما يجعل، على الأرجح، أي جهد نقوم به من أجل المصالحة عقيماً»(٢٠٨).

أقرّ مسؤول أمريكي لمحطة أى بي سي نيوز بأن الهجوم لم يتم عن طريق الخطأ؛ اختارت السي آي أى ذلك الهدف لأنها كانت تفترض أن الشخصين اللذين كانا في السيارة مقاتلان(٢٠٩). أصيب براتاب شاترجي، الصحفي في مكتب الصحافة الاستقصائية الذي التقى طارق في اجتماع إسلام أباد، أصيب بالدهشة جراء ذلك، قائلاً: «لو كان ذلك الفتى البالغ ستة عشر عاماً إرهابياً مشتبهًا فيه بالفعل، فلِمَ لم يتم اعتقاله في إسلام أباد؟ كان من السهل للغاية أن يتم العثور عليه في الفندق، واعتقاله»(٢١٠).

أشارت صحيفة وال ستريت جورنال، في ٤ تشرين الثاني/ نوفمبر ٢٠١١، بعد يومين من الهجوم الذي أدى إلى مقتل الفتيين، إلى حدوث خلاف في إدارة أوباما بشأن الهجمات بالطائرات بدون طيار، قائلة إن العديد من المسؤولين البارزين في وزارتي الدفاع والخارجية يطالبون بأن تكون الضربات أكثر انتقائية، بينما يطالب مسؤولو السي آي أى بمنحهم الحرية الكاملة في ملاحقة المشتبه فيهم من المقاتلين. أدى الخلاف إلى القيام بمراجعة مستقلة للبرنامج في صيف العام ٢٠١١، شارك فيها الرئيس أوباما نفسه. وافقت السي آي أى، وفقاً للصحيفة،

على القيام بسلسلة من «التنازلات غير المعلنة»، بما يشمل إشراك وزارة الخارجية بصورة أكبر في اتخاذ القرارات المتعلقة بالضربات، إعلام القادة الباكستانيين مسبقاً بالمزيد من العمليات، وتعليقها حين يزور المسؤولون الباكستانيون الولايات المتحدة[٢١١].

من المؤسف للغاية أنه لم يكن هناك مسؤولون باكستانيون يزورون الولايات المتحدة حين كان طارق عزيز ووحيد الرحمن في طريقهما إلى منزل عمتهما.

* * *

وبالرغم من أن الذين قتلوا وعائلاتهم المحزونة يعدون بالآلاف، فإن تبعات حرب الطائرات بدون طيار تؤثر في الملايين.

لنتحدث عما هو مباشر من تلك التبعات: فرق الموت المرتبطة بالقاعدة وطالبان، التي تدعى مجاهدي خراسان، وتظهر بعد هجمات الطائرات بدون طيار لمطاردة المخبرين الذين تشتبه بأنهم يساعدون الأمريكيين على تحديد الأهداف[٢١٢]. يُدفع للمخبرين، الذين يكونون قرويين فقراء في الكثير من الأحيان، نحو ١٠٠ دولار لقاء المعلومات عن المقاتلين وبيوتهم الآمنة.

يهجم أربعون إلى ستين رجلاً مقنعاً ومدججاً بالسلاح على قرية ما، بغية الانتقام، ليخطفوا ضحاياهم. يتم ضرب معظم المختطفين، وتعذيبهم، وقتلهم، مع نشر أشرطة فيديو لإعدامهم تحذيراً للآخرين. يتحدث شهزاد أكبر، بذلك الصدد، قائلاً: «يوجد وجه للشبه، بما يلفت النظر، بين خراسان والأمريكيين. يستخدم كل منهما التعذيب للحصول على معلومات من محتجزيه، الذين يقولون أي شيء لكي يتجنبوا التعذيب. يظفر كل منهما بالتالي، في نهاية المطاف، بمن يصفهم بالأشرار».

تحـدث أحـد القرويين إلـى صحيفة لـوس آنجيليس تايمـز، قائلاً: «توجـد الطائرات بدون طيار في السـماء، ويوجد مجاهدو خراسـان على الأرض. يشـعر القرويـون بالكثيـر مـن الرعـب. يأتـي مجاهدو خراسـان فـي غضون ٢٤ سـاعة، بعد كل ضربـة طائرة بـدون طيار، ليقتـادوا الناس بعيـداً»[٢١٣]. تشـعل هجمات الطائـرات بدون طيار نيـران العنف والانتقام التي لا يمكن إطفاؤها.

يوجـد، بالإضافـة إلـى ما سـبق، مئـات الآلاف مـن الضحايـا غير المباشـرين؛ القرويون العالقون بين الطائرات بدون طيار المسيّرة من قبل السـي آي أى، الممارسـات الشـنيعة من قبل طالبان الباكستانية، وعمليات الجيش الباكسـتاني «لتطهير» المنطقة من المقاتلين المزعومين. أدت تلك التوليفة المتفجرة إلى تدمير القرية تلو الأخرى، ولا يبدو أن محنة السـكان المحليين تثير ما يذكر من اهتمام تلك الأطراف.

وبالرغم من أن الجيش الباكسـتاني قـد أعلن أن العديد من المناطق باتـت آمنـة لعـودة العائلات، فقـد حال غياب مسـاعدات إعـادة الإعمار، وتواصـل الهجمـات بالطائـرات بـدون طيار فـي المنطقة، حـال دون قيام العديد من العائلات بذلك.

أدى تدفق العديد من اللاجئين إلى التأثير في شـريحة أكبر - سكان كراتشـي، المدينة الجنوبية المعروفة بمينائها. لا توجد طائرات بدون طيار مرئية تحلق فوق تلك المدينة الكبيرة التي يبلغ عدد سكانها نحو ١٨ مليون نسـمة، ولكن الظروف اقتضت أن تستوعب، بشـوارعها القذرة المزدحمة في الأسـاس، أعـداداً هائلـة من العائـلات الهاربة مـن النزاع في الشـمال الغربي[٢١٤]. قدر تقرير لمنظمة آمنستي إنترناشونال عدد النازحين بما يزيد عن مليون شخص.

أشـعل تدفـق اللاجئيـن شـرارة العنـف العرقـي فـي كراتشـي بيـن المهاجرين، المنتمين إلى اللاجئين الأصليين من الهند، والبشـتون، الذين ينتمـي إليهـم المهاجرون الجـدد من المناطق الشـمالية الغربيـة. قتل أكثر من ١٠٠٠ شـخص، في العـام ٢٠١١، في اشـتباكات متقطعة بين أحزاب سياسية تمثل البشتون والمهاجرين، أو الناطقين بالأوردية.

اتصفت كراتشـي بسلبية أخرى تتمثل في أنها تشكل نقطة الانطلاق لإمـدادات الناتـو التي تشـحن إلى القـوات الأمريكية في أفغانسـتان. عنى ذلـك أن المدينة قد شـهدت أيضـاً اضطرابات سياسـية جدية مـع محاولة المحتجيـن على هجمـات الطائـرات بدون طيـار، والاحتـلال الأمريكي لأفغانستان، قطع طرق إمداد الناتو من ميناء المدينة.

يمكننا أن نرى بالتالي، في حالة باكسـتان، التبعات الواضحة لحرب الطائرات بدون طيار. تؤدي الخسـائر المباشـرة الناتجـة عن الهجمات إلى إثارة الاضطرابات السياسـية والنزاعات العرقية الدموية في كراتشـي، التي تتفاقم جراء تدفق مئات الآلاف من اللاجئين إلى المدينة. سـتتواصل، على الأرجح، المشكلات البنيوية الكبيرة الناجمة عن حرب الطائرات بدون طيار لسنوات، حتى بعد انسـحاب قوات الولايات المتحدة والناتو من المنطقة. تمثّـل محنـة اللاجئين فـي مدينة كراتشـي الفقيـرة، المعوزة إلـى الموارد، والمبتـلاة بالنزاعـات في الأسـاس، تمثّل في صميمها الكارثـة الناتجة تالياً عن نمط من الحروب، الذي يقدم بصورة متكررة ومتواصلة كعصا سـحرية يمكنها، من دون أي تبعات أو تكاليف، أن تقضي على الإرهاب.

أعلـن المسـؤولون الأمريكيون، فـي الوقت ذاته، مع اقتـراب نهاية العام ٢٠١١، واستمرار هجمات الطائرات بدون طيار في باكستان بإحداث الدمار، أعلنوا أن عدد الأهداف «العالية القيمة»، التي تمثل قيادات القاعدة في باكستان، قد تضاءل إلى اثنين[٢١٥].

* * *

تسببت هجمات الطائرات بدون طيار الأمريكية في إيقاع ضحايا أبرياء أيضاً في أفغانستان، العراق، اليمن، الصومال، وليبيا. تدفن قصص أولئك في العادة، كما في باكستان، مع أجسادهم. لم يثر قتل مراهق أمريكي حتى، بالطائرات بدون طيار، الكثير من النقاش.

ولد عبد الرحمن أنور العولقي، الذي كان يبلغ السادسة عشرة، في دنفر، ولكنه غادر إلى اليمن مع عائلته في العام ٢٠٠٢. أظهرته صفحته على الفايسبوك كمراهق عادي باسم، يرتدي نظارات، ويحب الراب، الهيب هاب، والسباحة[٢١٦]. لم يكن والده أنور العولقي، بالنقيض من ذلك، رجلاً عادياً، بل واحداً من المروجين البارزين لفكر القاعدة.

انتقلت عائلة العولقي، كما أسلفت، من الولايات المتحدة إلى اليمن في العام ٢٠٠٢. كان عبد الرحمن يعيش مع أمه في العاصمة صنعاء، ليهرب من المنزل، وفقاً لما تقول، في تشرين الأول/ أكتوبر ٢٠١١، في محاولة للعثور على أبيه. قتل الفتى، بعد مضي أسبوع على ذلك، بهجوم لطائرة بدون طيار.

وبما أن قتل أمريكي في السادسة عشرة لم يثر أي جدل فعلي في الإعلام الأمريكي حول اللامشروعية الواضحة لهجمات الطائرات بدون طيار؛ فإن قتل اليمنيين أو الصوماليين البائسين لن يحرك ساكنا بالتأكيد.

لا تعد الولايات المتحدة البلد الوحيد الذي يقتل بالتحكّم عن بعد. تحدث تقرير نشر في صحيفة الواشنطن بوست، في كانون الأول/ ديسمبر ٢٠١١، تحدث بالتفصيل عن استخدام الجيش الإسرائيلي للطائرات بدون طيار فوق قطاع غزة، حيث يعيش مئات الآلاف من الفلسطينيين في أحياء مكتظة. يزداد بؤسهم في الوجود بسبب الخوف من المراقبة الدائمة والاستهداف المفاجئ من قبل الطائرات غير المأهولة[٢١٧].

نشـرت منظمة هيومن رايتـس واتش، في العـام ٢٠٠٩، العديد من التقاريـر عـن اسـتهداف المدنيـين بالطائـرات بدون طيـار أثنـاء الاجتياح الإسرائيلي لغزة في العام ذاته. كانت إحدى الأمهات، في إحدى الحالات، تجلـس على السـطح بينما كان ابنها الصغير مؤمـن يركب الدراجة. حدث انفجـار قـوي بصـورة مفاجئـة، لتنظر نهلـة علاو إلـى ابنها برعـب، بعدما تمكنت من تمييزه بين الغبار والدخان. «كانت سـاقاه مسحوقتين، وصدره مثقَّبًا بفتحات صغيرة يسيل الدم منها. حملته وأنا أصرخ. كان يلفظ أنفاسه الأخيرة. تحدثت إليه قائلة: «لا تخف يا حبيبي»[٢١٨].

أورد المركز الفلسـطيني لحقوق الإنسان أن الصواريخ المطلقة من الطائـرات بدون طيار أدت إلى مقتل ٨٢٥ شـخصاً، مع وجود نسـبة كبيرة من المدنيين بينهم، الذين قتلوا نتيجة استهدافهم بالخطأ، أو بسبب الشظايا الناتجة عن الهجمات. تمثل حرب الطائرات بدون طيار، مع خداع الشعب الأمريكـي بالخطـاب الـذي يعد قتـل الإرهابييـن ضرورة للأمـن القومي، ويتجاهل صرخات الضحايا المكتومة من قبل التواطؤ المحلي والجبروت الإمبريالـي، تمثـل واحدة من أكبر المهـازل بحق العدالة فـي عصرنا هذا. لا تقتـل تلـك الحرب مواطنيـن أمريكيين ومدنيين أبريـاء وتمنح الحصانة لقاتليهم فحسـب، بل تحيـل حياة مئات الآلاف مـن الآخرين إلى جحيم، وتشردهم، وتقطع أرزاقهم أيضا.

تمثّـل الأفعـال العدوانيـة المعتّم عليهـا تلك، بالنسـبة للأمريكيين، تجاوزاً للديمقراطية. لم يعد إعلان الحرب يتم من قبل مسؤولين منتخبين يتصرفـون بالنيابة عن الشـعب الأمريكي، بل من قبـل متعاقدين مجهولين وسـفاحين حكوميين يقتلون بشـكل ممنهج مـن دون الحاجة للرجوع إلى ذلك الشـعب، أنـا وأنت، الذيـن يضغطون باسـمه، بمنتهى السـهولة وبلا عناء، على زر الإطلاق.

القتل بالطائرات بدون طيار:
أهو قانوني؟

«لو فعلت شيئاً لمدة طويلة بما يكفي، فسيقبل العالم به. يستند القانون الدولي برمته الآن إلى المفهوم المتمثّل في أن الأفعال المحرّمة اليوم تصبح مباحة غداً إن تمّ القيام بها من قبل ما يكفي من الدول... يتقدم القانون الدولي عبر الانتهاكات. نحن من أوجد نظرية الاغتيال المستهدف، ومن يتعين عليه أن يمضي بها قدماً. كان هناك من المعوقات، في البداية، ما حال دون إحلالها بسهولة ضمن الإطار القانوني. باتت، بعد ثماني سنوات، تمثل جوهر الشرعية»[٢١٩].

العقيد دانيال رايزنر، الرئيس السابق للقسم القانوني في جيش الدفاع الإسرائيلي

«لم نعد في رياض الأطفال في ما يتعلق بهذا: نقوم به (القتل المستهدف) منذ العام ٢٠٠١، ويوجد «بروتوكول» راسخ للغاية في هذا الإطار»[٢٢٠].

بروس ريدل، ضابط السي آي أى السابق

اعتادت الحكومة الأمريكية، حين كانت تريد اغتيال شخص ما في الخارج، أن تستعين، ببساطة، بنخبة من القتلة الذين يمكن أن يستخدموا كل شيء، من السيغار المتفجر إلى الرصاص التقليدي، لتصفية أهدافهم. ولكن كان من شأن استخدام الأفراد للقتل أن ينطوي على مخاطر كبيرة، بالنسبة للقاتل، الذي يمكن أن يقتل أو يعتقل، ومن يأمرون بالقتل، الذين يمكن أن يصابوا بالخزي، على أقل تقدير ، ويتم اتهامهم حتى، على وجه الاحتمال.

ولكن الزمن تغير. تفضّل الحكومة الأمريكية الآن، حين يتعلق الأمر بتنفيذ اغتيالات برعاية الدولة، أن تشن ضربات الطائرات بدون طيار السهلة والمريحة، تحت الغطاء القانوني الذي أوجدته لحربها العالمية على الإرهاب. ازداد الاعتماد على الطائرات بدون طيار -الذي بدأ في عهد الرئيس جورج دبليو. بوش- للقيام بعمليات قتل خارج إطار القانون، ازداد بصورة كبيرة في عهد خليفته الرئيس أوباما، الذي لم يستخدم تلك الطائرات في العراق وأفغانستان فحسب، بل بعيداً عن أي ساحة للقتال حيث تحارب الولايات المتحدة رسمياً.

يعادل ما أجازه الرئيس أوباما من ضربات الطائرات بدون طيار في باكستان، الحليف الاسمي للولايات المتحدة، في السنتين الأوليين من رئاسته لا أكثر، يعادل أربعة أضعاف ما أجازه الرئيس بوش منها في ولايتيه الرئاسيتين بأكملهما. وبغض النظر عمن يكون في البيت الأبيض، فإن الذريعة تكون ذاتها على الدوام: تشن الضربات في إطار الدفاع عن النفس.

شدد المسؤولون الأمريكيون، بصورة فعلية، في ظل كل من الإدارتين الجمهورية والديمقراطية، على أن الحكومة تملك الحق في اغتيال أي شخص تعتقد أنه يشكل تهديداً للولايات المتحدة، والقيام

بذلك في أي مكان. لا حاجة لأن تكون الحكومة الأمريكية في حرب معلنة مع أي بلد تنفذ فيه عمليات القتل تلك، ولا ضرورة لأن تقدم أي دليل -فيما هو مدني أو عسكري من المحاكم، أو أمام الرأي العام- على ارتكاب المستهدف جريمة. تجهل الحكومة الأمريكية، في الواقع، في الغالبية الساحقة من الحالات، وفقاً لصحيفة لوس آنجيليس تايمز، تجهل هويات من تقتلهم حتى.

لم تكن الحال على ذلك قبل ١١/ ٩. عمد السفير الأمريكي لدى إسرائيل، مارتن إنديك، في الواقع، قبل شهرين لا أكثر من هجمات ١١/ ٩، عمد إلى إدانة قتل إسرائيل المستهدف للفلسطينيين، قائلاً: «تعارض حكومة الولايات المتحدة بشكل واضح للغاية، كما هو معلن، الاغتيالات المستهدفة. تمثل عمليات قتل خارج إطار القانون، ولا نؤيد ذلك»[٢٢١]. تمّ تبني الممارسات التي انتقدت الحكومة الأمريكية إسرائيل بسببها، تمّ تبنيها بعد وقت قصير كجزء من الحرب الأمريكية على الإرهاب، ولم يعد أحد في الحكومة يدعوها اغتيالات.

باتت الافتراضات بالبراءة، محاكمات المحلفين، والإعلانات الرسمية للحروب، باتت تمثل أموراً قانونية مزعجة عفا عليها الزمن. يؤكد الرؤساء الأمريكيون الآن على حقهم في أن يكونوا القضاة، المحلفين، والجلادين، بما يجعلهم يملكون رخصة للقتل بحكم الأمر الواقع، ويجنبهم الخضوع للقيود والضوابط التي تزعجهم. أضحى القانون الوحيد الذي يهمهم بصورة فعلية «قانون ١١/ ٩».

يتمثل الأساس القانوني لهجمات الطائرات بدون طيار، فيما يتعلق بالقانون الداخلي، في قانون التفويض باستخدام القوة العسكرية (أي يو أم أف) للعام ٢٠٠١، الذي مرره الكونغرس بعد أيام لا أكثر من ١١/ ٩. يفوض القانون الرئيس «باستخدام كل ما يلزم ويُعد ملائماً

مـن القـوة» لملاحقة المسـؤولين عـن الهجمـات الإرهابية. أعـاد قانون تفويـض الدفاع الوطني، للعام ٢٠١٢، التأكيد على سـلطات الرئيس وفقاً لقانون العام ٢٠٠١.

سـعى هارلد كو، كبير المستشـارين القانونيين فـي إدارة أوباما، في خطـاب أمام الجمعية الأمريكية للقانـون الدولي، في آذار/ مارس ٢٠١٠، سـعى إلـى الـرد علـى الانتقاد الـذي يـزداد حـدة، المتمثـل فـي أن القتل بالطائـرات بدون طيار، خارج إطار القانون، ينتهك المعايير الدولية، قائلاً: «تخوض الولايات المتحدة نزاعاً مسلحاً مع القاعدة، بالإضافة إلى طالبان والقـوى المرتبطـة بهمـا، رداً علـى هجمـات ١١/ ٩ المروعـة، ويمكنهـا أن تسـتخدم القـوة انسـجاماً مع حقهـا الطبيعي في الدفاع عـن النفس وفق القانون الدولي، بما يشمل القيام بعمليات قتل باستخدام المركبات الجوية غيـر المأهولـة»[٢٢٢]. ولكـن العديد مـن الخبـراء القانونييـن يختلفون مع ما قاله كو، والسياسات التي يبررها.

ما «حق الدفاع عن النفس» هذا؟

تملـك الدول كافـة، وفق القانـون الدولـي، حق الدفاع عن نفسـها ضد أي هجوم وشـيك. لو قام بلد ما، على سـبيل المثال، بحشد قواته على الحدود مع بلد آخر، في استعداد واضح لغزو ذلك البلد، فإنه يحق للأخير قانونيـاً أن يقـوم بعمل «اسـتباقي» دفاعاً عن النفس. ولكـن ذلك العمل لا يبـرر -كما أكدت الحكومـة الأمريكية ذاتهـا، أثناء مـداولات حول قضية قانونية في القرن التاسـع عشـر، بما سـاعد على وضع قاعدة شكلت سابقة في حينه- إلا إذا كان «الدفاع عن النفس ضرورياً بما هو فوري ومُلِحّ، ولا يترك فرصة للاختيار بين الوسائل، ولا وقتاً للتداول في الأمر»[٢٢٣].

وبكلمات أخرى، لا يمكن للقادة السياسيين في بلد ما، من الناحية القانونيـة، أن يسـتخدموا القـوة الفتّاكة لمجـرد اعتقادهم بأن فـرداً أو بلداً مـا يمكـن أن يقـرر، في مرحلـة ما مـن المسـتقبل، أن يلحق بهـم الأذى. يعـود لذلك السـبب فـي أن غزو العراق فـي العـام ٢٠٠٣ -الذي زعمت إدارة بـوش أنـه عمـل «وقائي» في إطار الدفـاع عن النفس- يمثـل انتهاكاً واضحـاً للقانـون الدولي، كما أقر بذلك المسـؤول في البنتاغون ريتشـرد بيرل حتى[٢٢٤]. لربما كان صدام حسـين دكتاتوراً متسـلطاً، ولكن لم يكن هنـاك أي دليل، على الإطـلاق، على أنه ينوي ضـرب الداخل الأمريكي، أو يملك القدرة على ذلك.

تشـكل حـروب الطائـرات بدون طيـار، بمـا يتصف بقـدر أكبر من الجرأة على وجه الاحتمال، تشـكّل تحدياً للقانون. يوجد نوعان لضربات الطائرات بدون طيار: الضربات التي تستهدف شخصيات معينة لأنها تكون مدرجـة علـى «لائحة القتل» باعتبارها تشـكل تهديداً للولايـات المتحدة، والضربات التي لا تسـتند إلى وجود مشـتبه بهم من الإرهابيين المعروفين الذيـن يتوعـدون بتدمير أمريكا، بل توجه اسـتناداً إلى مـا إذا كانت صفات المقاتليـن تنطبق على الأشـخاص المسـتهدفين في نظر مشـغل الطائرات بدون طيار الذي يبعد آلاف الأميال. رفضت الحكومة، لتزيد الأمور سوءاً، أن تصـرّح عـن الكيفية التي تعـرف بهـا المقاتلين. تنـدرج معظم ضربات الطائـرات بدون طيـار، بكل الأحوال، بالرغم من التعتيـم الذي يحيط بها، ضمن النوعية الثانية من الضربات.

وحتى عندما تقتل الحكومة الأمريكية مقاتلين مسـلحين، فليس من الواضح ما إذا كانت تلك الهجمات تحد من التهديدات ضد أمريكا بصورة فعلية. يسـعى معظم أعضاء طالبان الموجودين في أفغانسـتان وباكسـتان، على سبيل المثال، إلى إخراج قوات الاحتلال الأجنبية من بلادهم، لا شن هجمات إرهابية دولية.

ينطبق الأمر ذاته على المقاتلين في الصومال. بدأت إدارة أوباما، في العام ٢٠١١، في استخدام طائرات البريديتور في ذلك البلد لمهاجمة المشتبه بهم من أعضاء ميليشيا الشباب، المجموعة التي تهدف إلى إقامة دولة إسلامية، والتي تقاتل الآن الحكومة المدعومة من الغرب، وغير المنتخبة[٢٢٥]. وبالرغم من أنه لا يمكن لأحد أن يعد أعضاء المجموعة ناشطين مناهضين للعنف من أجل السلام، فإنها لا تشكل تهديداً للداخل الأمريكي. أقرت إدارة أوباما بذلك حتى، وكما أوردت صحيفة الواشنطن بوست، في كانون الأول/ ديسمبر ٢٠١١، فإن قيادة العمليات الخاصة المشتركة التابعة للجيش الأمريكي قد أبدت رغبتها الشديدة، لبعض الوقت، في زيادة عدد ضربات الطائرات بدون طيار في الصومال، بما يشمل معسكرات حركة الشباب، التي يعد من المعروف أن مواطنين أمريكيين قد ذهبوا للتدرب فيها، لتسمح الإدارة، مع ذلك، وفقا للصحيفة، «بشن عدد قليل من الضربات لا أكثر، خوفاً من أن تؤدي حملة أكبر إلى تحويل حركة الشباب من تهديد إقليمي إلى عدو مصمم على تنفيذ هجمات على التراب الأمريكي»[٢٢٦].

وبكلمات أخرى، فقد أقرّت إدارة أوباما بأن حركة الشباب لا تشكل خطراً مباشراً على الولايات المتحدة، وأن حملة طائرات بدون طيار كبيرة ومتواصلة؛ وحدها يمكن أن تغير ذلك. ينفي ما سبق، بالتالي، أن استخدام الطائرات بدون طيار لا يتم إلا من أجل الدفاع عن النفس، حيث تقر الحكومة الأمريكية ذاتها، كما تبين، بأن استخدامها يهدد بزيادة الخطر المتمثل في شن هجمات على أمريكا.

من يشكلون أهدافاً مشروعة؟

وحتى لو كان هناك من يثير مشاعر العداء لأمريكا، أو يؤيد الجهاد ضد الغرب، فهل يمكنك، من الناحية القانونية، أن تقتله لأجل ذلك؟ لا. توجد قواعد تعيّن من يمكنك استهدافه[٢٢٧]. لو كنت في نزاع مسلح، فيعد القتل المستهدف قانونياً، بصورة محددة للغاية، إن كان من تستهدفه «محارباً»، «مقاتلاً»، أو كان -في حالة المدنيين- «يشارك بصورة مباشرة في أعمال عدائية». تعني عبارة «يشارك بصورة مباشرة» أن يخوض المرء القتال بصورة مباشرة -ويحمل سلاحاً أو قنبلة بيده- أو أن ينشط في التخطيط أو التوجيه لعمليات عسكرية مستقبلية، لا أن يكون قد خطط لعمليات في الماضي فحسب، أو أن يوفر الدعم المالي أو المعنوي، أو غير ذلك من المساعدات غير القتالية.

وعندما لا تكون في خضم نزاع مسلح، فإن القواعد تكون أكثر صرامة حتى. يتعين أن يكون القتل ضرورياً لحماية الأرواح، وأن لا تكون هناك وسائل أخرى -كاعتقال المستهدف أو إيقافه بطريقة غير فتاكة- لمنع ذلك التهديد للأرواح.

يعد تعيين الهدف المشروع عسيراً، على وجه الخصوص، حين تكون الولايات المتحدة منخرطة في جزء من العالم لا يحيط فهمها به بصورة تامة، وتكون معلوماتها الاستخبارية عنه مغلوطة في الكثير من الأحيان. تستهدف الطائرات بدون طيار، بصورة متكررة، المنزل أو المجموعة الخطأ ممن يحضرون الأعراس، أو يشاركون في الاجتماعات القبلية.

نعرف أن الحكومة ترتكب أخطاء، العديد منها في تصنيف الناس على أنهم «إرهابيون». أكد وزير الدفاع الأسبق دونالد رمسفيلد للشعب الأمريكي،

في عهد الرئيس بوش، أن المعتقلين في غوانتانامو يمثلون جميعا «الأسـوأ من بين الأسـوأ»، ليتبين أن المئات منهم أبرياء تمّ بيعهم للجيش الأمريكي مـن قبل صائدي الجوائز. لم يجدر بالشـعب الأمريكي أن يصدق ما تقوله إدارة أوباما عمن يتم اغتيالهم بالطائرات بدون طيار؟

هل يمكن لحكومة أن تقتل مواطنيها من دون محاكمة؟

قامـت طائـرة بريديتور أمريكيـة تحلق فوق اليمن، فـي ٣٠ أيلول/ سـبتمبر ٢٠١١، بإطـلاق صـاروخ هيـل فايـر علـى سـيارة تقـل مواطنين أمريكيين، سـمير خـان وأنـور العولقـي. كان كلاهما يروجـان لمجموعة إرهابيـة تسـتلهم القاعـدة. كان سـمير خان المحـرر «لإنسـايت»، المجلة الإنكليزيـة التـي تـروّج للقاعدة في شـبه الجزيـرة العربية، ولـم يكن على «لائحة الاغتيال». مثّل قتل الرجل ضرراً جانبياً، لا أكثر، في خضم الهجوم الأمريكي على العولقي، الإسـلامي المتشـدد الذي تـمّ وضعه على لائحة اغتيال سرية قبل أكثر من عام.

لـم تتكرم إدارة أوباما على الإطلاق بتقديـم أي دليل ضد العولقي. أحيطت الأسـباب التي جعلته يوضع على لائحة قتل رئاسـية بالسـرية. لم يتم إعلام الشـعب الأمريكي أبداً بأي دليل علـى تورط العولقي في أعمال إرهابيـة -لا مجرد إلقاء خطب بغيضة- ولـم يتـم اتهامه على الإطلاق بأي جريمة حتى. قاومت وزارة العدل في إدارة أوباما محاولات والد العولقي لدفـع الحكومـة إلى مجـرد القيام بذلـك، وانحازت المحكمـة إلى جانب الإدارة، لتقـول إن قرار الرئيس باغتيال مواطـن أمريكي، من دون محاكمة أو تبرير، «غير قابل للمراجعة القضائية».

أثـار قـرار القاضـي أسـئلة جديـة لـم يُجَـب عنهـا. ألا يجـدر ألا يتـم السـماح للحكومـة، خارج إطـار النزاع المسـلح، بـأن تقـوم «بالقتل

المستهدف» لمواطن أمريكي إلا كملاذ أخير للتعامل مع تهديد وشيك للحياة أو السلامة الجسدية ؟ لِمَ لم تأمر المحكمة الحكومة بالإفصاح عن المعيار القانوني الذي تعتمده لوضع المواطنين الأمريكيين على لوائح قتلها ؟ لم تستلزم الموافقة القضائية حين تقرر الولايات المتحدة استهداف مواطن أمريكي فيما وراء البحار عبر مراقبته إلكترونياً، ولا تستلزم حين تقرر الحكومة استهداف ذلك المواطن عبر قتله؟

يتحدث جميل جعفر، نائب مدير الشؤون القانونية في اتحاد الحريات المدنية الأمريكي، قائلاً: «لو عد حكم المحكمة صحيحاً، فإن الحكومة تملك السلطة، بما لا يمكن مراجعته، للقيام بالقتل المستهدف لأي أمريكي يعده الرئيس تهديداً للأمة، وفعل ذلك في أي مكان. يصعب أن يتخيل المرء وجود ما يفوق ذلك في تعارضه مع الدستور، أو خطورته على الحرية الأمريكية. يجدر بنا أن نذكر أن السلطة التي تمنحها المحكمة للرئيس اليوم لن تكون قائمة في هذه الحالة فحسب، بل في حالات مستقبلية أيضاً، ولن تقتصر على الرئيس الحالي، بل سيملكها كل رئيس في المستقبل. يُرتكب خطأ جسيم عبر السماح بممارسة هذه السلطة الهائلة من دون القيود والضوابط التي تفرض في كل سياق آخر»(٢٢٨).

أعلن باراك أوباما، المحامي المختص في القانون الدستوري، بعد مقتل العولقي بصورة مباشرة، أن الاغتيال يشكل «ضربة كبرى» للقاعدة. شدد النائب الجمهوري بيتر كينغ، رئيس لجنة الأمن الداخلي في مجلس النواب، على أن الضربة القاتلة لم تتعارض مع القانون، قائلاً: «كانت قانونية بالكامل. لو حمل مواطن السلاح ضد بلده، فسيصبح عدواً له».

ولكن كان يحق للعولقي وفق القانون الأمريكي، كأي مواطن أمريكي آخر، أن يعامل كبريء حتى تثبت إدانته، وأن يحظى بمحاكمة محلفين، حتى لو كانت غيابية. لربما كان العولقي خائناً انضم إلى العدو، ولكن الدستور يلزم بأن تتم إدانته وفقاً «لشهادة اثنين من الشهود»، أو «اعتراف في محكمة علنية»، وليس من قبل السلطة التنفيذية.

وبما أن العولقي لم يكن في منطقة حرب فعلية -كالعديد من المشتبه فيهم الآخرين بتهمة الإرهاب، الذين لم يتهموا رسمياً على الإطلاق، وتمت تصفيتهم بالقتل المستهدف- فقد كان يتعيّن على الحكومة الأمريكية، وفقاً للقانون الدولي، أن تستنفد المحاولات كافة لاعتقاله واحتجازه، قبل اللجوء إلى القوة الفتاكة. رفضت إدارة أوباما القيام بذلك، لتشير إلى أن القوة الفتّاكة تمثّل خيار الحكومة الأول، لا الأخير.

طالب مشرعون، مختصون في السياسة، ومسؤولون حكوميون سابقون، على امتداد الطيف السياسي، بعد مقتل العولقي، طالبوا بالمزيد من الشفافية في ما يتعلق بالبرنامج الأمريكي للطائرات بدون طيار [٢٢٩].

استجابت السي آي أى بعد مضي أسبوعين، عوضاً عن إظهار الشفافية، بشن ضربة طائرات بدون طيار أخرى في جنوب شرق اليمن، أدت إلى مقتل تسعة أشخاص، بما يشمل ابن العولقي الأمريكي البالغ من العمر ستة عشر عاماً. تحدث المسؤولون الأمريكيون قائلين إن من أعطوا الأوامر بالقتل لم يكونوا على علم بوجود المراهق الأمريكي ضمن المجموعة. ولكن حتى لو كانوا يعلمون ذلك، فليس من الواضح ما إذا كانوا سيوقفون الهجوم، ناهيك عن أنه لم يتخذ بحقهم أي إجراءات تأديبية، وهم من تسببوا بقتل أمريكي صغير لم يكن يشكل تهديداً للولايات المتحدة.

لِمَ لا يتم اعتقال المشتبه فيهم بتهمة الإرهاب؟

تـمّ، فـي عهـد إدارة بـوش، اعتقـال المئـات ممـن صنّفـوا «أعـداء محاربيـن»، بعيـداً عـن سـاحات القتـال، وسـجنهم -لمدد غيـر محددة، مـن دون تهمـة أو محاكمـة- فـي غوانتانامـو بـاى، وسـجون فـي العراق وأفغانسـتان. قامت السـي آي أى باعتقال واحتجاز مئات آخرين في مواقع سـرية حـول العالـم. سـبّب ذلـك إشـكالاً، كما تبيّـن، حيـث أدان الخبراء القانونيـون الاحتجاز إلى أجل غير مسـمى باعتباره يشـكّل تحدياً للمعايير الدوليـة، ناهيـك عـن أن العديد مـن المحتجزين كانـوا أبرياء بمـا لا يقبل الجـدل. أوقع ذلك الحكومة الأمريكية في أزمة علاقات عامة خطيرة على المـدى الطويل، لتتفاقم جراء الأوضاع اللاإنسـانية المؤلمة في السـجون، وفق وصف من احتجزوا بغير حق.

يصـرّ باراك أوباما على عدم ارتكاب الخطأ ذاته. تختلف سياسـته في مكافحة الإرهاب بوضوح عن سياسـة سـلفه، ولكن ليس علـى النحو الذي يتمناه الناشطون في حقوق الإنسان. يدعوها البعض عقيدة «اقتل، ولا تعتقل».

يصـف نـوا فلدمن، أسـتاذ القانون الدسـتوري والدولـي في جامعة هارفـرد، يصـف الأمـر علـى النحو الآتـي، قائلاً: «لاحـظ فريـق أوباما أن احتجـاز المشـتبه فيهـم بتهمـة الإرهاب قد عـرّض إدارة بوش إلـى الكثير مـن النقـد القاسـي (بما يشـمل النقد الـذي وجهه الفريـق ذاتـه). لا يتفوه الإرهابيـون القتلـى، بالنقيض من ذلك، بشـيء، ولا يوكلون من المحامين أيضاً من يصرخ دفاعا عن حقوقهم الإنسانية»[٢٣٠].

تـمّ التعبيـر بوضـوح عـن عقيـدة أوبامـا، «اقتـل، ولا تعتقـل»، من قبـل وزيـر العـدل أريـك هولدر في جلسـة اسـتماع فـي الكونغـرس، في آذار/ مـارس ٢٠١٠[٢٣١]. أجـاب هولـدر، حيـن سـئل عن إمكانيـة إجراء

محاكمة لأسامة بن لادن، قائلاً إن السائل «يفترض شيئاً لن يحدث أبداً. ستتلو حقوق أسامة بن لادن لجثته»[٢٣٢].

تمّ قتل ابن لادن الأعزل في مهمة وفّرت الدعم لها طائرات مراقبة بدون طيار أدارها فريق من قوات «السيلز» البحرية الخاصة، فيما أشارت الناشونال جورنال إلى أنه «لم يكن حادثاً»[٢٣٣].

أضافت الجورنال أيضاً أن «ضابطاً عسكرياً رفيع المستوى مطلعاً على الهجوم قال إن فريق «السيلز» كان يعلم أن مهمته لا تتمثل في اعتقال ابن لادن حياً».

يتجسد الدرس المستقى من غوانتانمو باي وسنوات بوش، كما تبدو الحال عليه، في الآتي: يُعد قتل الإرهابيين المزعومين خارج إطار القانون -مع كل ما يتصف به من سوء- أفضل من اعتقالهم. ويحول دون التعرض للإحراج دولياً، على المدى الطويل، وللحملات العلنية من قبل ناشطي حقوق الإنسان المتعجرفين. ولا حاجة لأحد، بما يشمل أعضاء المحاكم العسكرية حتى، إلى أن يقيم الأدلة التي تستند عملية القتل إليها.

هل يمكن للولايات المتحدة أن تقوم بهجمات الطائرات بدون طيّار أينما شاءت؟

لا. كان فيليب ألستون، الخبير في القانون الدولي في جامعة نيويورك، والمقرر الخاص السابق للأمم المتحدة للإعدامات التي تتم خارج إطار القانون، أو على عجل، أو بصورة اعتباطية، كان واضحاً للغاية في تقرير وضعه في أيار/ مايو ٢٠١٠. «لا يمكن لاستخدام الطائرات بدون طيار للقتل المستهدف، خارج إطار النزاع المسلح، أن يكون قانونياً على الإطلاق»[٢٣٤].

تؤكد الولايات المتحدة، التي تستخدم الطائرات بدون طيار بالقدر الأكبر للقيام بالقتل المستهدف، أن هجماتها مبررة قانونياً لانخراطها في حرب عالمية ضد القاعدة، والمجموعات الإرهابية المرتبطة بها. سيكون ما تقوم به السي آي أى مبرراً، بالتالي، وفق ذلك المنطق، إن أطلقت صاروخ هيل فاير على إرهابي مشتبه فيه في شقة في هامبورغ، أو مطعم في لندن، أو مسجد في نيويورك. لِمَ تكتفِي بإلقاء القنابل على البلدان الفقيرة وشعوبها البائسة من غير العرق الأبيض؟

أشار تقرير ألستون إلى أن ذريعة الولايات المتحدة الفضفاضة، المتمثلة في النزاع العالمي المسلح، تتجاوز بعضاً من أهم المسائل القانونية، بما يشمل: «نطاق النزاع المسلح الذي تؤكد الولايات المتحدة انخراطها فيه، المعايير المعتمدة لاستهداف وقتل الأفراد، وجود ضمانات إجرائية فعلية لقانونية ودقة عمليات القتل، ووجود آليات للمحاسبة».

يتمثّل ما يثير القلق بالقدر الأكبر، وفقاً لألستون، في رفض الولايات المتحدة «الإفصاح عمن قتلتهم، وأسباب قيامها بذلك، والأضرار الجانبية الناتجة عن قتلهم. تتجسد النتيجة في نبذ المعايير القانونية الواضحة لتحل محلها رخصة مبهمة للقتل، وخلق فراغ كبير في ما يتعلق بالمحاسبة».

يتفق خبراء آخرون مع ذلك. قدمت ماري ألين أوكانل، الأستاذة في كلية نوتردام للحقوق، قدمت شهادة في جلسة استماع في الكونغرس، في نيسان/ أبريل ٢٠١٠، قائلة: «لا يعد استخدام الطائرات بدون طيار قانونياً خارج مناطق القتال. تمثّل الشرطة قوة فرض القانون الملائمة خارج تلك المناطق، ويتعيّن على الشرطة، على وجه العموم، أن تحذر قبل استخدام القوة الفتّاكة»[٢٣٥].

يُعد النزاع المسلّح، فيما يعنيه ذلك، بمعزل عن تأكيد الحكومة الأمريكية أن حربها على الإرهاب عالمية في نطاقها، يُعد حقيقياً وقابلاً للتعريف قانونياً. لو كان جيش ما يخوض معركة فعلية، في ساحة قتال حقيقية، فلا يتعيّن عليه في تلك الحالة، من الناحية القانونية، أن يعتقل مقاتلي العدو ويوجه اتهامات لهم. ولكن بعيداً عن المعارك، في ساحات الحروب الفعلية، فإن قوى فرض القانون، لا الجيوش أو وكالات الاستخبارات، من تعد الجهة الملائمة -والقانونية- لملاحقة من يزعم بارتباطهم بالإرهاب. يعني ذلك أنه من غير القانوني، خارج نطاق ساحة الحرب الفعلية، أن يتم استخدام طائرات بدون طيار مسلحة، التي تمثّل أدوات حربية لا تصلح لاعتقال المشتبه فيهم أحياء.

خاطب اتحاد الحريات المدنية الامريكي الرئيس أوباما، في رسالة وجهها إليه في نيسان/ أبريل ٢٠١٠، قائلاً: «لا يمثّل العالم برمته منطقة حرب، ولا يمكن استخدام التكتيكات الحربية -التي يمكن أن يسمح بها في ساحات المعارك في أفغانستان والعراق- في أي مكان في العالم يصدف أن يوجد مشتبه بالإرهاب فيه»(٢٣٦).

ولكن ماذا لو قبل بلد بشن ضربات الطائرات بدون طيّار ضمن أراضيه؟

يجادل البعض على أن ضربات الطائرات بدون طيار قانونية، خارج مناطق الحروب الفعلية، إن قبلت الحكومات بشنها ضمن أراضيها، استناداً إلى أنه لا يمكن لأحد أن يزعم، في تلك الحالة، أن السيادة الوطنية تنتهك.

ووفقاً لبرقية مسرّبة صادرة عن وزارة الخارجية الأمريكية، فقد وافق الديكتاتور اليمني على قيام الطائرات بدون طيار، وغيرها من

الطائـرات الأمريكيـة، بشـن ضربات ضمـن أراضي بلـده، قائـلاً بما بات معروفـاً: «سـنواصل القـول بأننـا مـن يشـن الغـارات، لا أنتـم»[٢٣٧]. كان موقـف الحكومـة الباكسـتانية أكثر تعقيـداً. وافقت، في البداية، في السـر، لتقـوم بإدانـات علنية مع ذلـك. أوردت برقية دبلوماسـية أمريكية، نشـرها موقـع ويكيليكـس، أن رئيس الوزراء يوسـف جيلاني قد قـال: «لا يهمني إن فعلـوا ذلـك طالما كانوا مصيبين في اسـتهدافهم. سـنحتج في الجمعية الوطنية، ثم نتجاهل الأمر»[٢٣٨]. تمّ، في أواخر العام ٢٠١١، سحب القبول الضمنـي حتـى، بعدما أدت ضربـة جوية للناتـو إلى مقتل أربعة وعشـرين جندياً باكسـتانياً عـن طريق الخطأ[٢٣٩]. ردت الحكومة الباكسـتانية بإخلاء قاعدة طائرات بدون طيار تابعة للسي آي أى قرب حدودها مع أفغانستان، والتهديد بإسقاط أي طائرة بدون طيار تنتهك مجالها الجوي.

لا يهـم كثيـراً فـي الحقيقـة، بكل الأحـوال، مـن الناحيـة القانونية، ما إذا وافقت حكومة ما أو رفضت. لا تمثّل السيادة إلا واحداً من الجوانب القانونيـة المتعـددة التي يسـتند إليها المناهضـون للقتل بالطائـرات بدون طيـار خـارج إطار القانون. يتجسـد جانب آخـر في حق المتهـم. وبالرغم مـن أن بعـض الحكومات يمكـن أن تعطي الضوء الأخضر لشـن ضربات طائرات بدون طيار ضمن أراضيها، فقد أشارت الأستاذة الجامعية أوكانل، في شـهادتها أمام الكونغـرس، إلى أنه: «لا يمكن لتلـك الحكومات، بكل الأحـوال، أن تمنح ما لا تملك من الحقـوق». وبكلمات أخرى، لا يجعل سـماح حاكم ما لحكومة أجنبية، ببسـاطة، بأن تقتل فـرداً ما ضمن أراضي بلـده، لا يجعل ذلك قانونياً. «لا يمكن للدول، في الأسـاس، أن تسـتخدم -أو تسمح باستخدام- القوة العسكرية ضد أفراد على أراضيها حين تكون إجراءات فرض القانون فيها ملائمة».

من يملك الحق بشن تلك الهجمات؟

لا يملك أحد الحق، خارج مناطق الحرب الفعلية، وفق القانون الدولي، بشن ضربات الطائرات بدون طيار. يحق للعسكريين ببزاتهم النظامية فحسب، بكل الأحوال، في مناطق الحرب، وفق القانون، أن يستخدموا القوة الفتّاكة، وهو ما يمثّل الحقيقة التي أوردتها الحكومة الأمريكية ذاتها لكي تعلن أعداءها من طالبان في أفغانستان «محاربين غير شرعيين».

وبينما كانت القوات الجوية الأمريكية وقيادة العمليات الخاصة المشتركة تشن الكثير من العمليات بالطائرات بدون طيار، فقد لعبت السي آي أى، الوكالة المدنية، دوراً مهما في ذلك. ووفقاً لغاري سوليس، أستاذ القانون في جامعة جورج تاون، ومؤلف كتاب «قوانين النزاع المسلّح»، فإن ذلك يُعد غير قانوني بوضوح.

كتب سوليس في مقالة نشرت في الواشنطن بوست في آذار/ مارس ٢٠١٠، قائلاً: «يُعد عناصر السي آي أى، بالنقيض من نظرائهم العسكريين، وبما يماثل المقاتلين الذين يستهدفونهم، يُعدّون، وفق القوانين الدولية للنزاعات المسلحة، محاربين غير شرعيين. يقاتل أولئك من دون بزات نظامية، بما لا يختلف عمن يستهدفونهم من المتمردين، ويشاركون بصورة مباشرة في أعمال عدائية، مستخدمين القوة المسلحة بما يتناقض مع قوانين وأعراف الحرب. وحتى لو كانوا يجلسون في لانغلي، فإن طياري السي آي أى يُعدّون مدنيين يخرقون قاعدة التميز، التي تشكل مفهوماً رئيساً في النزاع المسلّح، لمشاركتهم بصورة مباشرة في أعمال عدائية»(٢٤٠).

لا يُعدّ أولئك وحدهم، علاوة على ذلك، من يخرقون القانون. أوردت صحيفة نيويورك تايمز، في آب/ أغسطس ٢٠٠٩، أن طائرات

درون السي آي أي تسلّح، في الواقع، من قبل متعاقدين خصوصيين من بلاك ووتر، أو «أكاديمي» كما تعرف الآن[٢٤١]. وقد كشفت معلومات تمّ الحصول عليها من قبل خدمة مكلاتشي تريبيون الإخبارية، وفق قانون حرية المعلومات، أن اثني عشر متعاقداً دفاعياً، على الأقل، يستجلبون العاملين في جوانب برنامج الطائرات بدون طيار كافة، بما يشمل ما يدعى «سلسلة القتل» قبل إطلاق الصواريخ[٢٤٢].

كتب العقيد دواين تومبسن، كبير المحامين في قسم قانون العمليات في القوات الجوية، كتب في مطبوعة تتناول القوانين العسكرية في العام ٢٠٠٨، محذراً من أن السماح لموظفين غير عسكريين بنقل المعلومات المتعلقة بالاستهداف بصورة مباشرة إلى الطيارين يمكن أن ينتهك قوانين الحرب الدولية[٢٤٣].

لا يخضع المدنيون للقانون الموحّد للعدالة العسكرية، الذي يحمل الموظفين العسكريين المسؤولية عن جرائم الحرب، أو الانتهاكات لقواعد الاشتباك في ما يتعلق باستخدام القوة. كتب تومبسن، قائلاً: «يتعين أن يكون من ينقلون المعلومات المتعلقة بالاستهداف، في العمليات الفعلية الوشيكة، إلى من يسببون ضرراً فعلياً لجنود أو معدات العدو، يتعيّن أن يكونوا عسكريين ببزات نظامية».

ماذا لو فعلها بلد آخر غير الولايات المتحدة؟

يعتقد المؤيدون لفكرة الاستثنائية الأمريكية أن ما تفعله أمريكا صحيح لمجرد أنها من تفعله. ولكن فيما عدا الإشارة إلى جورج واشنطن والعلم الأمريكي، فسيكون من العسير على المدافعين عن القتل الأمريكي بالطائرات بدون طيار خارج إطار القانون أن يقيموا الحجة بصورة مبدئية

علـى من يمكــن أن يقوم من الدول الأخرى بشــن ضربـات طائرات بدون طيار أحادية ضد أعدائه المفترضين.

تــمّ التحذيـر مـن ذلك فـي تشـرين الأول/ اكتوبـر ٢٠١١، في بيان لكريسـتوف هاينز، المقـرر الخاص للأمـم المتحدة للإعدامـات التي تتم خـارج إطار القانـون، أو على عجل، أو بصورة اعتباطيـة [٢٤٤]. حذّر هاينز، الخبيـر فـي قانون حقوق الإنسـان في جامعـة بريتوريا في جنـوب أفريقيا، حذّر بقوة من اللجوء إلى القتل خارج إطار القانون بالطائرات بدون طيار، مشـيراً إلى أن «اسـتخدام مثل تلك الوسـائل من قبل بعض الدول للقضاء علـى أعدائهـا في دول حول العالم يدفع إلى التسـاؤل عمـا يمكن أن يمنع دولاً أخرى من القيام بالممارسات ذاتها».

يمكــن للحجـة المتمثلة فـي أن اسـتثنائية أمريكا تمنحهـا الحق في اسـتخدام أساليب غير مباحة لدول أقل استثنائية، يمكن أن تفيد في برنامج حواري صباحي على قناة أمريكية، أو افتتاحية لصحيفة الواشنطن بوست، ولكن الخطر في العالم الواقعي يكمن، كما يشـير هاينز، في نشـوب حرب عالمية بلا حدود، لا يكون فيها أحد آمناً.

وكما تشير منظمة هيومن رايتس واتش، فإنه لو طبق منطق الولايات المتحـدة من قبل دول أخرى، فيمكن أن تعلن الصين، على سـبيل المثال، أن ناشـطاً إيغورياً مـا يعيش في نيويورك يمثل «عدواً محارباً» بالنسـبة لها، وتطلق صاروخاً على مانهاتن، أو أن تقوم روسـيا بتسميم شخص ما يعيش فـي لنـدن، ويرتبط، على حد زعمهـا، بالمقاتلين الشيشـان، وتؤكد أنها لم تخرق القانون بذلك [٢٤٥].

لنتحـدث، بالإضافـة إلـى ما سـبق، عـن لويـس بوسـادا كاريليس، الأمريكـي الكوبـي الـذي يعيـش فـي مايامـي، ويعرف بأنـه إرهابـي [٢٤٦].

كان بوسادا - الذي أدين بتفجير طائرة كوبية في العام ١٩٧٦، ما أدى إلى مقتل ثلاثة وسبعين شخصاً- كان قد اعترف بصورة علنية بتنفيذ أعمال إرهابية بهدف الإطاحة بالحكومة الكوبية، بما يشمل سلسلة من التفجيرات في هافانا في التسعينيات من القرن المنصرم (التي أدى إحدها إلى مقتل سائح إيطالي). تمّ اعتقاله في بنما، في العام ٢٠٠٠، وبحوزته أكثر من ثلاثين رطلاً من متفجرات السي - ٤، واتهامه بالتخطيط لاغتيال فيدل كاسترو وهو يلقي كلمة أمام مئات الطلاب في جامعة بنما، لينال عفواً بعد أربع سنوات، ويدخل الولايات المتحدة بصورة غير شرعية.

وبالنظر إلى السابقة التي أرستها الحكومة الأمريكية بقيامها بالقتل المستهدف في الخارج، فيمكن للحكومة الكوبية -على ضوء فشل النظام القضائي الأمريكي، على وجه الخصوص، في جلب بوسادا للعدالة- أن تدعي امتلاكها الحق في إطلاق صاروخ هيل فاير على وسط مدينة مايامي لقتل رجل أقرّ بأنه إرهابي، وعدو صريح لها.

لا يُعد ذلك بالتأكيد حقاً مشروعاً، ولكن كما يقوض استخدام الولايات المتحدة للتعذيب من قدرتها على إدانته في مكان آخر، فإن الأمر ذاته ينطبق أيضاً على استخدامها الطائرات بدون طيار لاغتيال أعدائها المفترضين. وبينما يمكن للمؤيدين لفكرة الاستثنائية الأمريكية أن يدافعوا عن حق أمريكا في استخدام تلك الأساليب، فيتعين أن يتأنوا قليلاً على ضوء الإمكانية المتمثلة في استخدام دول أخرى الأساليب ذاتها.

ماذا عن الخسائر بين المدنيين؟

يتجسد مفهوم رئيس، في قانون النزاع الدولي، في مبدأ التناسب. يعني ذلك أنه يتعين عليك أن توازن بين أهمية الهدف العسكري والضرر

الـذي يمكن أن يصيب المدنيين أثنـاء العملية، وأن تقوم بكل ما هو ممكن لتفادي الأخطاء، وتقليل الخسائر بين المدنيين إلى الحد الأدنى.

لا يخـوض الجنود الحرب اليوم في سـاحات المعـارك، بل المدن والأرياف التي تعج بالبيوت، الأسـواق المزدحمة، الأطفال الذين يلعبون، والمشـاة. لا يرتـدي مـن يقاتلهـم الأمريكيـون، عـلاوة على ذلـك، بزات نظاميـة، ولا يقاتـل العديد منهم إلا فـي الليل، بينما يعملـون مزارعين، أو سـائقي أجـرة، أو في مهن أخـرى في النهـار. لا تتمثل المشـكلة الكبرى، بالتالي، في قتال العدو بقدر إيجاده.

يتبـدى دور الطائرات بدون طيار هنا. ولكـن بينما يمكن لكاميراتها عاليـة الحساسـية أن ترصـد مـن يحمـل المتفجـرات، وتطلـق الصواريخ «لتحييده»، فإن تلك الصواريخ كثيراً ما تقتل سـائق السـيارة أيضاً، أو أفراد الأسرة، أو المارين بالصدفة.

كتـب لويس مورينـو أوكامبو، كبير المدعين فـي المحكمة الجنائية الدوليـة، قائـلاً: «يجيز القانـون الدولي الإنسـاني وقانون روما الأساسـي للمتحاربين شـن هجمات متناسـبة ضد أهداف عسكرية، حتى حين يكون من المعروف أن بعض الخسائر ستقع بين صفوف المدنيين. تقع الجرائم، بالنقيض من ذلك، إن كان هناك هجوم متعمد ضد المدنيين، أو هجوم ضد هدف عسـكري مع العلم بأن الخسـائر المدنية الناجمة عنه سـتكون كبيرة بوضوح بالمقارنة مع الغاية العسكرية المنشودة»[٢٤٧].

تتمثل الأسئلة الرئيسة، بالتالي، في: من يعرف كلمة «كبيرة»؟ لـو أصاب صاروخ هدفه العسـكري، وقتل شـخصاً بريئاً واحـداً مع ذلك، فهـل تمثل تلك خسـارة كبيرة؟ لو أدى إلى مقتل شـخصين بريئين ومقاتل واحد، فهل تعد تلك خسارة كبيرة؟ ثلاثة أشخاص أبرياء؟ من يقرر ذلك؟ وهل يطرح أحد هذه الأسئلة حتى، بما يعد أكثر أهمية؟

تسود الحصانة من العقاب مع غياب ما يكفي من الأصوات المتسائلة، المغيبة في خضم الغموض القانوني، وذرائع الأمن القومي المهيمنة.

لم يقم وزير العدل أريك هولدر بمقاربة تلك المسائل القانونية حتى آذار/ مارس ٢٠١٢، متحدثاً إلى طلاب الحقوق في جامعة نورث وسترن. قال هولدر إن الدستور قد فوّض الرئيس لحماية الأمة من أي تهديد بهجوم وشيك، وإنه لا توجد حدود جغرافية «لأننا نخوض حرباً مع عدو غير محاط بتلك الحدود، ينقل عملياته من بلد إلى آخر». واصل هولدر الحديث ليبرر قتل المواطنين الأمريكيين حتى في بلدان أجنبية بأن الدستور لا يكفل لهم الحق المتمثّل في عملية قضائية، بل «العملية المطلوبة». لم يأتِ الرد الأمثل على هولدر من المجتمع القانوني، بل مقدم البرامج التلفزيونية الكوميدية ستيفن كولبرت.

تحدث، بذلك الصدد، قائلاً: «أجل، لم يكن الآباء المؤسسون متطلبين. محاكمة بالمحلفين، محاكمة بالنار، الأحجار، الأوراق، المقصات. من يكترث لذلك؟ لا تعني العملية المطلوبة إلا أن تقوم بعملية ما». أردف الرجل موضحاً أن العملية الوحيدة القائمة، من وجهة نظره، تتمثّل في أن الرئيس يلتقي مستشاريه ليقرر من يقتل، ثم يقوم بقتله. تنهد كولبرت في النهاية، قائلاً: «إن كنّا سننتصر في حربنا الدائمة مع الإرهاب، فلا بد أن نتكبّد الخسائر. وقد شاء القدر أن يكون الدستور من بينها».

الأخلاق الخاسر الأكبر

«كانـت الطائـرات بـدون طيّـار مرعبـة. مـن المسـتحيل أن تتمكـن، مـن الأرض، مـن أن تحـدد مـن أو مـا تتعقبـه وهي تحوم في الجو. يذكـرك أزيزها البعيد، على الدوام، بالموت الوشـيك. تطلـق الطائـرات بدون طيـار صواريـخ تفوق في سـرعتها الصوت. لا يسـمع ضحاياها علـى الإطلاق صوت الصواريخ التي تقتلهم»[٢٤٨].

دايفيد رود، مختطف من قبل طالبان في العام ٢٠٠٩

يقول البعض إن الطائرات بدون طيار تحفظ الأرواح، بما لا يقتصر على أرواح الطيارين. يشـير أنصارها إلى أنهـا تحفظ أرواح الجنود بفضل الدعـم الجوي الحاسـم الذي توفـره للقوات البرية، وتحفـظ المدنيين في مناطق النزاع لأنها أكثر دقة من الطائرات التي تقصف من ارتفاعات أعلى، أو المدفعيـة بعيـدة المدى. يجادل أولئـك أيضاً على أنـه إن كان بإمكانك أن تقتـل قـادة المجموعـات المتطرفة التـي تتبنى العنف بالقنابـل الدقيقة، وتحول دون توسيع رقعة النزاعات بالتالي، فإن ذلك يعد أخلاقياً.

تمحـور الإجمـاع حول ذلك بالطبـع في لقاء جمعنـي بممثلين عن وزارة الخارجيـة والبنتاغون. تحدث جيف هوكينز من مكتب الديمقراطية وحقوق الإنسان في وزارة الخارجية، قائلاً: «هناك حرب قائمة الآن، وتمثّل الطائرات بدون طيار الطريقة الأكثر حرصاً، دقة وإنسانية لخوضها». أجاب فيما بعد، حين سئل عـن رد الفعل المعادي للأمريكييـن، قائلاً: «أمضيت ثلاث سـنوات فـي باكسـتان. يُـروج للكثير مـن نظريـات المؤامرة بشـأن الولايات المتحدة، والمشاعر المعادية لها في ذلك البلد بكل الأحوال. إن لم يغضبوا من الولايات المتحدة بسبب الطائرات بدون طيار، فسيغضبون منها، ببساطة، بسبب شيء آخر».

كانـت مورين وايت، التي تتعامل مع اللاجئين في وزارة الخارجية، وعملت سـابقاً مع هيومـن رايتس واتش، كانت متحمسـة للطائرات بدون طيـار، وقـد شـددت علـى أن المشـكلة الحقيقية تتمثـل في الترويـج لها. تحدثـت، بذلك الصدد، قائلة: «فشـلنا في إيـراد الحجج المقنعة بشـأنها. أنشـأت طالبان حركة شـريرة في المناطق القبلية من باكستان، تقوم بترويع المدنيين، والتسـبب بنزوح الآلاف مـن الناس. يمثّل قتل قادتها بالطائرات بـدون طيـار أمـراً حاسـماً. تعـد تلـك آليـة دقيقـة، مسـتهدفة، وناجحـة. تشـكل الطائـرات بدون طيار، مـن وجهة نظر عسـكرية، حلماً تحقق على أرض الواقع».

ولكـن الحقيقة تعد أكثر تعقيداً، حيـث تؤدي الطائرات بدون طيار، بالسـهولة ذاتها التي تقتل بها بعض الأشرار، إلى الدفع بالولايات المتحدة لشن الحروب.

تأثـرت كل العائـلات التي كان لهـا أبناء يخدمون أثنـاء الحرب في فيتنام، وكذا أصدقاؤهـم، معارفهم، أقاربهم، المجتمع برمته بصورة رئيسة، أو بما يشمل، على أقل تقدير، من لم يتمكنوا من تجنب الخدمة العسكرية.

ينطبق الأمر ذاته على الحرب العالمية الثانية، حين خدم ملايين الأمريكيين في الجيش، وانخرط من لم يفعلوا ذلك بصورة كبيرة في أنشطة الدعم لهم. لا توجد خدمة عسكرية إلزامية اليوم، بكل الأحوال، ولا يلتحق بالجيش إلا ما يقل عن واحد بالمئة من السكان.

يقل عدد من ينخرطون -ومن يموتون، لحسن الحظ- من الأمريكيين في حروب اليوم. يشكل موت كل جندي أمريكي مأساة رهيبة بالتأكيد، ولكن عدد القتلى الأمريكيين في حروب ما بعد ٩/١١ لا يقارن بعددهم في الحروب السابقة، بما يعود في جزء منه إلى تطور الرعاية الطبية. قتل أكثر من ٤٠٠٠٠٠ جندي أمريكي في الحرب العالمية الثانية، وأكثر من ٥٠٠٠٠ جندي في فيتنام، مقابل ما يزيد عن ستة آلاف جندي، لا أكثر، في عقد من الحروب في أفغانستان والعراق بين عامي ٢٠٠١-٢٠١١. تتمثل نتيجة سلبية للتطوع والخسائر الأقل، بكل الأحوال، في تضاؤل الحس القومي بضرورة التحقق مما إذا كانت الحروب جديرة بأن تُخاض.

أدت الأزمة الاقتصادية التي بدأت في العام ٢٠٠٨ إلى المزيد من التساؤل عما إذا كانت أمريكا قادرة على تمويل ميزانية البنتاغون الضخمة للغاية، وإلى تآكل الدعم الشعبي للتدخل العسكري الأمريكي في أفغانستان والعراق. ولكن ذلك لم يأتِ في صدارة اهتمامات الأمريكيين الذين كان الملايين منهم عاطلين عن العمل. تمكن الكونغرس، بالتالي، من الاستمرار في توفير المال للحرب، عاماً بعد عام، بما يتناقض مع إرادة الغالبية.

وهكذا يحيط التعتيم بالنزاعات بصورة أكبر، مع حلول الطائرات بدون طيار محل عدد متزايد من القوات على الأرض. تتمثّل المفارقة في أنه بينما يخوض الجيش الأمريكي نزاعات أكثر وأطول مما خاضه في

أي من الأوقات من تاريخنا، فإن عدداً أقل من الناس يشتركون في ذلك، ويتأثرون ويهتمون به. يعلم الشعب بالكاد حتى عن تلك النزاعات. يماثل ذلك الحمّى البسيطة التي يعتاد الجسم على التعايش معها، ويتجاهلها.

ويبدو من استطلاع للرأي، أجرته صحيفة الواشنطن بوست ومحطة أي بي سي نيوز في شباط/ فبراير ٢٠١٢، أن الشعب الأمريكي لا يتجاهل هجمات الطائرات بدون طيار فحسب، بل يؤيدها أيضاً. أجاب ثلاثة وثمانون بالمئة، حين سئلوا عما إذا كانوا يؤيدون استخدام الطائرات بدون طيار غير المأهولة ضد المشتبه فيهم بالإرهاب عبر البحار، أجابوا بالإيجاب، بما يشمل سبعة وسبعين بالمئة ممن يدعون أنفسهم ديمقراطيين ليبراليين. يتمثّل ما يثير الدهشة بصورة أكبر في أن تسعة وسبعين بالمئة قد أيدوا استخدام الطائرات بدون طيار ضد المشتبه فيهم بالإرهاب حتى لو كانوا مواطنين أمريكيين يعيشون في بلدان أخرى[٢٤٩].

يحذّر الفيلسوف بيتر سينغر، بذلك الصدد، قائلاً: «يمكن أن يشكل استخدام الروبوتات مفارقة قاتمة، حيث يمكن أن تغوينا لخوض المزيد من الحروب، بينما يبدو أنها تقلل من الكلفة البشرية لها»[٢٥٠].

يمكن أن تمثل الطائرات بدون طيار الأداة الأكثر تطوراً للقتل، وهي تقل سوءاً بالتأكيد عن القنبلة الذرية، على سبيل المثال. ولكن السهولة التي يمكن استخدامها بها، بالنقيض من السلاح النووي، تهدد بجعل الحروب يسيرة إلى أبعد الحدود. يمثل ذلك مشكلة، وفقاً ليوسف لبيد، أستاذ العلاقات الدولية في جامعة نيو مكسيكو، التي تبعد ساعة واحدة عن مركز التدريب الرئيس لمشغلي الطائرات بدون طيار في قاعدة هولومن للقوات الجوية[٢٥١]. تحدث لبيد إلى الغلوبل بوست، قائلاً: «يمكن أن تقلل الطائرات بدون طيار من الخسائر التي يتكبدها الجنود، أو المخاطر التي يتعرضون لها في ساحات المعارك، ولكن إن كان ذلك يعني أن

القتل سيصبح سهلاً، أو أن المجتمعات لن ترى ضيراً في شن الحروب، فإن ذلك يمثّل مشكلة خطيرة للغاية».

لا حاجة، مع حرب الطائرات بدون طيار، لتوحيد البلاد في مواجهة نزاع ما، أو الدعوة لبذل التضحيات، أو إجراء نقاشات مضنية في الكونغرس. يرتبط ذلك بالتأكيد بقرار الرئيس أوباما المُشْهِمة عسكرياً في الإطاحة بنظام الزعيم الليبي معمر القذافي.

أصدر مجلس الأمن التابع للأمم المتحدة، في ١٧ آذار/مارس ٢٠١١، القرار ١٩٧٣ الذي ينص على إنشاء منطقة حظر للطيران، واستخدام «الوسائل الضرورية كافة» لحماية المدنيين في ليبيا[٢٥٢]. أقرّ الرئيس أوباما، بعد أسابيع لا أكثر، استخدام طائرات البريديتور، المزودة بصواريخ هيل فاير، لضرب مجمّع القذافي، والقوات الموالية له. تمّ اعتقال الأخير، بعد مضي ستة أشهر، وقتله. وبينما تولى المجلس الوطني الانتقالي الحكم بصورة شكلية، فقد كان أمراء الحرب، الإسلامويون، الزعماء القبليون، والديمقراطيون يتنازعون على السلطة.

أجاز الرئيس أوباما استخدام القوة في ليبيا من دون الرجوع للكونغرس، وأصرّ على أنه لم يكن بحاجة لموافقته، استناداً إلى أنها كانت حرباً جوية لا أكثر، وأن الولايات المتحدة لن ترسل قوات برية. زعمت الإدارة، في تقرير للكونغرس، أن العمليات العسكرية الأمريكية في ليبيا تنسجم مع «قرار سلطات الحرب»، وأنها لا تتطلب موافقة الكونغرس لأنها لا تندرج ضمن الأعمال القتالية التي يشير القرار إلى أنها تحتاج لتلك الموافقة[٢٥٣]. «لا تستلزم العمليات الأمريكية في ليبيا قتالاً متواصلاً، أو تبادلاً فاعلاً للنيران مع قوات معادية، أو وجود قوات برية أمريكية، ولا تتسبب في وقوع خسائر، أو تهديد جدي بذلك»[٢٥٤].

لا تستلزم العمليات الأمريكية «قتالاً متواصلاً»، أو «تبادلاً فاعلاً للنيران»، ولا تتسبب في «تهديد جدي» بوقوع خسائر أمريكية، لأن القتال سيتم بالطائرات بدون طيار. لا يمكن للقوات البرية الليبية أن تتبادل النيران مع طائرات تستهدفها من على ارتفاع ٥٠٠٠٠ قدم، ولا يمكن لها بالطبع أن تقتل من لا يستقل تلك الطائرات من الطيارين. وبالرغم من قيام أعضاء في الكونغرس من الحزبين بتفنيد تلك الحجج، فإن الإدارة لم تتزحزح عن موقفها - ولم يكن هناك عواقب قانونية لذلك.

أرسى تدخل الولايات المتحدة في ليبيا سابقة في ما يتعلق بوضع تعريف غريب للحرب، لا يطبق إلا في حال تعرّض القوات الأمريكية للخطر. يجسد ذلك مثالاً واضحاً على «الحرب السهلة»، بما يتيح المجال لتدخلات أمريكية مستقبلية بقرارات رئاسية.

اتسمت حملة ليبيا بالخطورة أيضاً لسببين آخرين، حيث عزّزت، أولا، من الفكرة المتمثّلة في أن الضربات الجوية عالية التقنية لا تسبّب الخسائر بين المدنيين. زعم الأمين العام لحلف الناتو آندريس فوغ راسموسن، قائلاً: «نفذنا هذه العملية بالكثير من الحرص، من دون خسائر مدنية مؤكدة»[٢٥٥]. قام مراسلو صحيفة نيويورك تايمز، بالنتيجة، بدحض ذلك الادعاء، عبر تحقيق غير مكتمل على الأرض، كشف عن مقتل العشرات من المدنيين بالضربات الجوية، بما يشمل، على أقل تقدير، تسعة وعشرين شخصاً بين نساء وأطفال، كانوا نائمين في بيوتهم، في الكثير من الحالات، عند تنفيذ الضربات. رفضت الولايات المتحدة والناتو الاعتراف بوقوع أخطاء، أو تعويض الضحايا، كما تمّ إرغامهما على ذلك في أفغانستان.

عزّز المثال الليبي، ثانياً، فكرة أخرى متمثّلة في أن الأسلحة عالية التقنية تحقق النجاح، وهو ما لا يصح دائماً. كانت تلك الفكرة واقعية

فـي ليبيـا - حيث لـم يكن من الواضـح، من دون غطـاء الناتو الجوي، ما إذا كان بإمـكان الثـوار أن يحققوا الانتصار علـى الأرض. أضف إلى ذلك أن الضربـات الجويـة كانت تدعم ثورة شـعبية. ولكن يجدر بالمرء ألا ينسـى علـى الإطلاق الدروس المسـتقاة من نكبـة الولايات المتحدة فـي فيتنام، وحماقة الاحتلال السوفييتي لأفغانستان. يزخر التاريخ بالأمثلة عن انتصار أعداد قليلة من المقاتلين، بأبسط أنواع الأسلحة وحروب العصابات، على القـوات الأجنبيـة الغازية بأقوى أنواع الأسـلحة، لأنهم يقاتلون في سـبيل قضية يؤمنون بها بصورة حقيقية.

يمكـن للمزايـا التقنية أن تحيد سـريعاً حين يتكيـف الطرف الآخر معهـا بصورة خلاّقة. يمكن الاسـتدلال علـى ذلك بالمثال المتجسـد في الثـورة الأمريكيـة، التـي هزمت أعظم قوة عسـكرية في العالـم عبر جيش متواضع يشـن حـرب عصابـات، أو المقاتليـن العراقيين الذيـن يتصدون للعربات الأمريكية الثقيلة بزرع قنابل بسيطة على جانب الطرق، أو حزب اللـه الذي يتصدى للطائرات بدون طيار الإسـرائيلية عبـر امتلاك طائرات بدون طيار بدوره.

لا تتمثّـل واحدة من المشـكلات المتعلقة بالاعتماد على الأسـلحة عاليـة التقنية فـي أنها يمكن أن تمنح حسـاً زائفاً بالتفوّق فحسـب، بل إنها توجـد دوافع قويـة أيضاً لاسـتخدامها. يتوق الجيش، بعد إنفـاق الملايين على شـراء منظومات الأسـلحة الحديثة، وتدريب من يستخدمونها، يتوق لاختبارهـا فـي معـارك حقيقية، ويرغـب من يتلقـون التدريب فـي اختبار مهاراتهـم، ناهيـك، بالطبع، عن مصنّعيها الذين يتحرّقون لرؤية أسـلحتهم تستخدم، لكي يتم شراء المزيد منها.

يملك بعـض من المتعاقدين الخصوصيين، الذين يتم اسـتخدامهم للمشاركة في برنامج الطائرات بدون طيار التابع للسي آي أى، يملك دافعاً

آخر. اكتشف جاشوا فاوست من مركز أبحاث «مشروع الأمن الأمريكي» أن هناك «حصصاً للمراجعة» للموظفين الذين يتم التعاقد معهم، في بعض برامج الاستهداف، بمعنى أنه يتعيّن عليهم أن يراجعوا عدداً معيناً من الأهداف المحتملة في مدد محددة من الزمن. يوضّح فاوست، بذلك الصدد، قائلاً: «يتوقف استمرار توظيفهم، بما أنهم متعاقدون، على قدرتهم على تلبية معايير الأداء المطلوبة. يملك أولئك دافعاً مادياً، بالتالي، لاتخاذ قرارات مصيرية حول أهداف القتل المحتملة، لكي يبقوا في وظائفهم لا أكثر. لا يمكن احتمال ذلك الوضع بالتأكيد، ولكن بما أن النظام يفتقر إلى الشفافية أو المراجعة الخارجية، فمن المستحيل، على وجه التقريب، أن تتم مراقبته أو تعديله»[٢٥٦].

طرح بحث أجرته وزارة الدفاع البريطانية عن المركبات الجوية غير المأهولة، طرح أسئلة قلّما تسمع في دوائر الحكومة الأمريكية. «لو أزلنا خطر فقدان جنودنا من حسابات صنّاع القرار عند النظر في خيارات إدارة الأزمة، فهل نجعل من استخدام القوة المسلحة أكثر جاذبية؟ وهل يلجأ صنّاع القرار للحرب كخيار سياسي بأسرع كثيراً من السابق؟». تمضي الوثيقة لتشير، ولو بطريقة غير مباشرة، إلى أن أحد أسباب التدخل العسكري الأجنبي في باكستان واليمن يكمن بدقة في توافر الطائرات بدون طيار. «وبما أن تلك الأنشطة تتم بصورة حصرية من قبل طائرات غير مأهولة -بالرغم من توافر طائرات مأهولة فاعلة للغاية- وأن استخدام القوات البرية بما يهددها قد تم تجنبه، فإن ذلك يشير إلى أن استخدام القوة مرهون بصورة كلية بوجود القدرة غير المأهولة -من غير المرجح أن يتم استخدام قدر مماثل من القوة لو لم تكن تلك القدرة متوافرة»[٢٥٧].

لم يكن لباكستان على الإطلاق أن تسمح بدخول طائرات مأهولة مجالها الجوي، تماماً كما ترفض وجود قوات قتالية أجنبية على أراضيها.

وبما أن الطائرات بدون طيار غير مأهولة، على وجه التحديد، فقد شعرت الحكومة الباكستانية بأن ذلك يمكنها من إرضاء الحكومة الأمريكية، ويمنحها، في الوقت ذاته، ذريعة أمام شعبها للقول بأن سيادتها لم تنتهك بصورة ما.

* * *

يتجاوب الناس في الولايات المتحدة مع هذه النزعة لاستخدام القوة لأنهم يعيشون في حالة من الخوف. تمّ تعريض الشعب الأمريكي، منذ ١١/ ٩، إلى حملة منسّقة هائلة من التخويف، التي باتت اعتيادية للغاية بحيث لا يمكن ملاحظتها، إلا حين يطلب منك، على وجه الاحتمال، أن تخلع حذاءك من قبل أمن المطار. يتم إثارة الخوف من الإرهاب وتضخيمه بصورة روتينية من قبل السياسيين، بما يشمل الرئيس أوباما، عبر الإشارة بصورة متواصلة إلى أحداث ١١/ ٩.

يجد القبول الحكومي الرسمي للاحتجاز لمدة غير محددة للمواطنين الأمريكيين، عبر قانون تفويض الدفاع الوطني، والتأييد من قبل العديد من السياسيين للاحتجاز والتعذيب في غوانتانامو، يجد الدعم في خوف الشعب الأمريكي من الإرهاب. تعزز تلك السياسات الخوف أيضا، عبر التأكيد على أن تلك الانتهاكات الصارخة لحقوق الإنسان تعد ضرورية استناداً إلى ما نواجهه، كما هو مفترض، من أعداء متوحشين كثر، وتمكن الحكومة، في مجتمع يتباهى بأنه الديمقراطية الأكبر في العالم، من أن تخرق بصورة واضحة القواعد التقليدية للسلوك الإنساني، كالقوانين الدولية، التي تمثّل معايير نشأت من المعاناة الإنسانية الهائلة عبر عقود من الحرب.

تزيد قابلية الناس، على الأرجح، لمعارضة عنف الدولة حين تتم مواجهة خوفهم من قبل غريزة إنسانية رئيسة أخرى: التعاطف مع من

يجرحـون ويقتلـون. ولكن الحكومـة الأمريكية والإعـلام يقومان بصورة منهجيـة، منذ ١١/ ٩، سـواء عبـر اتفاق محـدد أم تفاهـم ضمني، بحجب صـور جرحـى وقتلى الحـرب عن الشـعب الأمريكي، التي يمكـن أن تثير مشاعر التعاطف لديه. تكشفت صور التعذيب في سجن أبو غريب، ولكن صـوراً أخـرى تـمّ التعتيـم عليها. لـم يكن من الممكـن، لسـنوات، أن يتم تصويـر نعوش الجنـود الأمريكيين حتى. وبالرغم مـن أن الآلاف قد قتلوا وتعرّضوا لإصابات بليغة جراء هجمات الطائرات بدون طيار، فإن الشعب الأمريكي لم ير بعد صور ما تسببت به تلك الهجمات.

كان الأمر مختلفاً أثناء حرب فيتنام. أدى استدعاء وقتل أعداد كبيرة مـن الجنود الأمريكييـن، بالتأكيد، إلـى تقوية الحركـة المناهضة للحرب، ولكـن الأمريكيين بـدؤوا، حين طـال أمدها، في رؤية ومعرفـة المزيد عن الفيتناميين، والطريقة التي كانوا يعاملون بها على أيدي الجنود الأمريكيين. صرخ مارتن لوثر كينغ بانفعال، في خطبته الشهيرة في العام ١٩٦٧، قائلاً: «نـرى حقـول الأرز فـي بلد آسـيوي صغيـر تـداس بالأقدام وتحـرق وفق الأهواء والنزوات. نرى أمهات يغمرهن الأسـى، مع أطفال باكين يتشبثون بأذرعتهن، بينما يرون أكواخهم الصغيرة تحترق بألسنة اللهب».

تجعـل الطائرات بدون طيـار الحرب اليوم، عوضاً عن أن تكشـف للشـعب الأمريكـي مـدى فظاعتهـا، تجعلهـا تبـدو مسـلية، لمـن يطلقون الصواريـخ علـى أقل تقديـر. يحـوي موقع اليوتيـوب المئات مـن مقاطع الفيديـو التـي تتضمن مشـاهد للقتـال في العـراق وأفغانسـتان، التي التقط الكثير منها بواسـطة الطائرات بدون طيار، التي يتم تسـييرها، في الأساس، باستخدام جهاز تحكم صمم على غرار لعبة البلاي ستايشن.

بـدأت وزارة الدفـاع حتـى في وضع مقاطـع للعمليـات على موقع اليوتيوب، كوسـيلة لترويج الطائرات بدون طيـار داخلياً، وإرهاب العدو.

تحوّل القدرة على نسـخ مقاطع فيديو القتال إلى أجهزة الكمبيوتر المنزلية والهواتـف المحمولـة، تحوّل الحـرب إلى نوع من التسـلية. يدعو الجنود تلك المقاطع «دعارة الحرب»، وقد راجت إلى حد بعيد، ليشاهدها ما يزيد بكثير عن عشرة ملايين شخص.

تعـزّز مقاطـع الفيديو التـي تظهـر الأمريكيين وهم يفجـرون أعداء مجهوليـن، تعـزّز الصـورة النمطيـة العنصرية «للأوغـاد البائسـين» الذين يستحقون أن يحرقوا. هاكم أمثلة لردود أفعال بعض ممن يشاهدون مقاطع الفيديو، حيث كتب أحدهم الآتي، معلقاً على مقطع من أفغانسـتان بعنوان «الجحيم آت على الإفطار»:

أحب رائحة المسلم المحترق في الصباح.

ألا يحسـن بهم أن يوصوا مسـبقاً ببعض منهن؟ الحوريات لأولئك الجهاديين الإرهابيين القتلة!

الله كابووم!*

أحب هذا الهراء، فجروهم أيها الأشقياء إلى أشلاء!

اقتلوهم جميعا ودعوا الرب يعاقبهم!

أظهـر مقطع آخـر تفجير عراقي، على وقع موسـيقى التكنو، ليكتب أحـد المشـاهدين قائلاً: «مقطع رائـع! ارقصي أمريكا. أيـن يمكن أن أجد الموسـيقى؟». كتب آخر مسـتهزئاً: «انتظروا بينما أحضر بعضا من الفشار. أود رؤية المزيد من البرابرة يفجرون».

* عبـارة للاسـتهزاء بالمقاتليـن الإسـلاميين حين يقومـون بالقصـف، أو يتعرضون له. (المترجم).

نمثّل نحن، الثقافة المتحضرة، من يملك آلات القتل عالية التقنية، بينما يمثل الطرف الآخر البرابرة لأنه لا يزال يقتل بأساليب قديمة، تشمل السكاكين. يُعد قطع جهادي ما رأس عدوه مثيراً للاشمئزاز، ولكن هل يفوق ذلك في سوئه ضغط زر لقتل شخص معاد عن بعد، وعائلة كاملة إلى جانبه على وجه الاحتمال؟ تحدثت محامية السي آي أى السابقة فيكي ديفول، بذلك الصدد، قائلة: «لا ينظر الناس إلى ضربة البريديتور، التي تقتل العديد من الأشخاص، بالسوء ذاته الذي ينظرون به إلى قطع رقبة شخص واحد، ولكن القتل الآلي يظل قتلاً»(٢٥٨).

تحدث أحد قادة حماس، حين تمّ انتقادها لإطلاقها صواريخ بدائية الصنع على إسرائيل روعت المدنيين، تحدث قائلاً: «لو كنا نملك الأسلحة عالية التقنية التي يملكها الإسرائيليون، لكنا وجهنا صواريخنا لضرب القواعد العسكرية الإسرائيلية، لا المدنيين. ولكننا لا نملكها»(٢٥٩).

يجادل بعض الأخلاقيين والقادة الدينيين على أن الطائرات بدون طيار تمثل طريقة ساقطة أخلاقياً، على وجه الخصوص، لشن الحروب، لأنها تنتهك مبادئ نظرية الحرب العادلة بالقتال بطريقة لا تحيّد المدنيين، أو تسمح بالتحقق من ذلك. عندما يتم تنفيذ العمليات العسكرية عبر مرشح كاميرا فيديو بعيدة، فلا يكون هناك إمكانية لإجراء تواصل بصري مع العدو، وإدراك حجم الكلفة البشرية للهجوم بصورة كاملة.

طوّرت وزارة الدفاع، في العام ٢٠٠٣، برنامجاً حاسوبياً جديداً يهدف، كما هو مفترض، لتمكين الجيش من تقدير الكلفة البشرية للهجمات بصورة أفضل. يُعد ذلك البرنامج معقّداً، ويظهر حجم الضرر الذي يمكن أن ينتج عن إلقاء القنابل من الطائرات، استناداً إلى أنواع تلك القنابل والطائرات، والارتفاعات التي تبلغها. يظهر القتلى في البرنامج على هيئة نقاط تشبه الحشرات المسحوقة، وتشير تسميته، بـ«Bugsplat»،

إلى ذلك. باتت تلك التسمية أيضاً تشكل مصطلحاً «داخلياً» للإشارة إلى قتلى الطائرات بدون طيار، وأطلقت تسمية مماثلة، «سكورترز»، على من يحاولون الهروب مسرعين من الهجمات. وبينما يمكن أن يبدو القتلى، والمروعون الهاربون للنجاة بحياتهم، كحشرات من الأعلى، فإن تلك التسميات لا تشير بالتأكيد إلى احترام الحياة.

كتبت «الكريستشن سنتشوري»، المجلة البروتستانتية البارزة، في افتتاحيتها قائلة إنه بالرغم من أن هجمات الطائرات بدون طيار قد قتلت بلا شك إرهابيين وقادة للقاعدة، فإنها «تثير أسئلة مقلقة للملتزمين بمبدأ الحرب العادلة، المتمثل في أنه لا يجدر على الإطلاق أن يتم استهداف المدنيين»(٢٦٠). أردف محررو المجلة، في إشارة مباشرة إلى واحد من جوانب حرب الطائرات بدون طيار، الذي يجعلها شعبية للغاية بين العسكريين والسياسيين -المتجسد في أنها تشكل خياراً آمناً للجيش لأنها تحفظ أرواح الأمريكيين- أردفوا قائلين: «من الأفضل، وفقاً لمبادئ الحرب العادلة، أن يخاطر طرف ما بحياة مقاتليه، على أن يخاطر بحياة غير المقاتلين من الطرف الآخر».

يشير البعض إلى أنه إن كان الجيش يرغب بالفعل في حماية المدنيين، فلا يجدر به أن يستخدم الطائرات بدون طيار بل القوات البرية، التي تُعد قادرة بصورة أكبر على التمييز بين الأبرياء والمقاتلين. وبالرغم من أن اجتياح البلدان يمكن أن يعرّض القوات البرية لما هو أكبر من المخاطر وأكثر من الخسائر، فإن ذلك ما ينص عليه منطق الحرب العادلة بصورة دقيقة.

مضى بول أف. أم. زال، المؤلف والرئيس الفخري لكلية الثالوث الأقدس الكنسية لرجال الدين، مضى أبعد من ذلك حتى في نقده الطائرات بدون طيار -في مجلة «كريستيانيتي توداى»، التي أسسها القس الإنجيلي بيلي غراهام- متهماً إياها «بإخصاء العدو»(٢٦١).

كتب زال قائلاً: «أستخدم كلمة «إخصاء» عن عمد، لأن ضحايانا يعيشون في مجتمعات يُعد إذلال الرجال فيها أسوأ من الموت على وجه التقريب». يوصل القناصون في السماء الناس على الأرض إلى حالة من العجز المطلق، لأنهم يعجزون عن التصدي للطائرات بدون طيار غير المأهولة. أردف زال قائلاً: «لا يماثل ذلك قتال داوود لجالوت، بل قول الفلسطينيين القدماء لنظرائهم الإسرائيليين إنه من غير المسموح أن يخلقوا بطلاً ينصرهم على الأرض حتى». وبالرغم من أن ذلك يمكن أن يمثّل استراتيجية جيدة كما تبدو الحال عليه، فقد أكد زال أنه يوجد رغبة دائمة في الانتقام «تنشأ بسبب جسم فضي يومض بعيداً في السماء، ويقتل من دون إنذار، أو سبيل للنجاة».

يبدو أن ذلك الجسم الفضي يمضي إلى ما هو أبعد حتى. يمكن أن ينتهي المطاف بالطائرات بدون طيار، قريبا للغاية، بأن تقتل بصورة مستقلة، من دون أي تدخل إنساني مباشر. تحدث مهندس في القوات الجوية إلى مجلة البوبيولار ساينس، قائلاً: «يمكننا أن نستشرف قيام الأنظمة غير المأهولة بأي مهمة نؤديها اليوم على وجه التقريب»[٢٦٢]. تتنبأ الواشنطن بوست، استناداً إلى تجارب جديدة للجيش، بأن الطريقة الأمريكية للقتال يمكن أن تتمحور في المستقبل حول الطائرات بدون طيار التي «ترصد، تعين، وتقتل العدو استنادا إلى حسابات تجريها البرمجيات، لا القرارات التي يتخذها البشر»[٢٦٣]. يمكن للسمات الإنسانية كالحس السليم والتعاطف، التي يقل أثرها في الأساس في الحروب، أن تنعدم بالكامل حتى في نزاعات القرن الواحد والعشرين.

يمكن أن ينجرف المرء في سعيه لاستقلالية الطائرات بدون طيار، حيث يبدأ بما هو مستقل من الإقلاع والملاحة، ثم انتقاء الأهداف، لينتهي به المطاف بجعلها تقتل من دون تدخله. وبالرغم من أن مسؤولي

البنتاغون يؤكدون على أن العنصر البشري سيبقى في العملية بصورة ما، فإن دوره سيكون ثانوياً. يتحدث الخبير في علم الروبوتات نويل شاركي، بذلك الصدد، قائلاً: «لن يبقى البشر «في العملية»، بل سيراقبون «من خارجها» بالأحرى تنفيذ قرارات معينة. سيمكن التقدم في مجال الذكاء الاصطناعي، في الوقت ذاته، الأنظمة من اتخاذ قرارات قتالية من دون تدخل البشر»(٢٦٤).

وبينما تروّع تلك الفكرة شاركي، فإن رانلد آركن، من مختبر الروبوتات المتحركة في معهد جورجيا للتقنية، يجدها رائعة. تحدث آركن، في مقابلة مع مجلة البوبيولار ساينس، قائلاً: «تعد الروبوتات بالفعل أقوى، أسرع، وأذكى». صمم الرجل «حاكماً أخلاقياً» للطائرات بدون طيار، يجادل على أنه يمكن أن يتقيد بقوانين الحرب بأفضل من الجنود. «لِمَ لا يكون أكثر إنسانية؟ يمكن أن يُعد مفيداً في الطائرات بدون طيار ولو بصورة نسبية، بالمقارنة مع الفظائع التي يرتكبها البشر في الحروب». يبدو، على وجه الاحتمال، أن آركن لم يشاهد على الإطلاق فيلم «الترمينايتور»، أو «الماتريكس».

تظل الفكرة المتمحورة حول ما إذا كان يمكن للآلات، في أي من الأوقات، أن تكون «أكثر إنسانية» من البشر الذين يبرمجونها، تظل محاطة بالشكوك. وبالرغم من أن البشر يرتكبون فظائع بالفعل في خضم الحروب، فإنهم يتعاطفون، في بعض الأحيان، مع أعدائهم. أشارت دراسة عن الحرب العالمية الثانية، من قبل الجنرال في الجيش الأمريكي أس. أل. أى مارشل، تتضمن مقابلات مع آلاف الجنود، أشارت إلى أن غالبية القوات قد رفضت إطلاق النار على أناس آخرين. تمّ انتقاد منهجية مارشل، ولكن اكتشافاته أيدت من قبل العديد من الدراسات الأخرى(٢٦٥). تشير المعطيات، بصورة فعلية، إلى أن الجنود، على امتداد التاريخ

العسـكري، قد أظهروا ممانعة كبيرة لقتل الناس الآخرين. يمكن للمرء أن يفترض باطمئنان أن الطائرات بدون طيار لا تمانع بالقدر ذاته.

يتمثّل ما هو أسـوأ، بالإضافة إلى ذلك، في أن الروبوتات المسـتقلة لا يمكنهـا التمييـز بيـن المقاتلين وغيـر المقاتليـن. تنص قوانيـن الحرب علـى أنـه لا يمكـن للمقاتليـن أن يهاجمـوا المدنييـن، الجنـود الجرحى، المرضى جسدياً وعقلياً، والأسرى. يتحدث شاركي، بذلك الصدد، قائلاً: «لا توجـد أنظمـة بصرية أو أنظمـة استشـعار للروبوتات يمكـن أن ترتقي لذلـك التحدي. تلزم اتفاقية جنيف الجنود بالرجوع إلى حسـهم السـليم، ولكـن الكمبيوتـرات لا تملك ذلك الحس. كيف يمكن لهـا، بالتالي، أن تكون أخلاقية وهي تفتقر إلى ما يمكنها من تمييز الجدات عن الجنود؟».

لطالما شـكلت الحـرب دافعاً قويـاً للابتكار التقني. توشـك التقنية الآن علـى إلغـاء دور الجندي البشـري برمته، مع عواقب لذلـك لا يمكننا أن نتخيلها.

الناشطون يردون

«كيرك: أجـل يا عضو المجلس، لديك حـرب حقيقية ملقاة علـى عاتقك. يمكنـك أن تخوضها بأسـلحة حقيقيـة، أو أن تفكر في بديل ما. ضع نهاية لها. اجنح للسلم.

أنـان: لا يمكـن أن يكـون هناك سـلم. ألا تـرى؟ نحن جنس قاتل. إنه أمر غريزي.

كيـرك: ولكـن الغريـزة يمكن أن تقـاوم. نحن بشـر تلطخت أيديهم بدماء مليون سـنة من الوحشـية، ولكن يمكننا إيقاف ذلك. يمكننا الإقرار بأننا قتلة، ولكننا لن نقتل اليوم. هذا كل ما يتطلبه الأمر. أن نعرف أننا لن نقتل اليوم».

سلسلة ستار تريك

لربمـا لم تسـمعوا بمجموعـة «كريتـش ١٤»، ولكنها تحتـل موقعاً متميّـزاً في قلب الحركـة المناهضة للطائرات بدون طيـار. لو رأيتم صورة لأفرادهـا، فلربمـا تظنـون أنهم أتـوا للتو من قـدّاس الأحد، حيث يشـكّل الكهنة والراهبات بالفعل بعضاً من تلك المجموعة. ولكن سـواء كانوا من

رجال الدين أم لم يكونوا، فإن جميعهم يعتنق عقيدة روحية لاهوتية تدعو المؤمنين إلى الوقوف ضد الظلم بالأفعال، لا الأقوال فحسب.

وهكذا قام أفرادها، الذين يبلغ عددهم أربعة عشر ناشطاً، في ٩ نيسان/ أبريل ٢٠٠٩، بدخول قاعدة كريتش للقوات الجوية -حيث تشغل فرق من الجنود الصغار عن بعد العديد من الطائرات بدون طيار الأمريكية القاتلة- ليحتجوا على ما عدوه جرائم حرب تتم في الداخل. دعا أفراد المجموعة، حين دخلوا القاعدة، العاملين فيها إلى مشاركتهم وجبة الجمعة العظيمة. طلب منهم فيما بعد المغادرة، ليرفضوا ذلك، ويتم اعتقالهم، واتهامهم بالتعدي، وإيداعهم السجن حتى يوم أحد عيد الفصح.

وبالرغم من أن الحدث كان لافتاً للنظر، فإنه لم يكن الأبرز، بل محاكمة الناشطين ذاتها، التي لم تبدأ إلا بعد أكثر من عام، في ١٤ أيلول/ سبتمبر ٢٠١٠، في محكمة مقاطعة كلارك المحلية في لاس فيغاس، نيفادا. قام المدعى عليهم هناك بتحويل تلك المحاكمة، التي تتناول قضية عادية حول جنحة بسيطة، إلى منبر للمجادلة حول استخدام الطائرات بدون طيار. قرروا، علاوة على ذلك، ألا يمثّلهم محامون، بل أن يمثّلوا أنفسهم. قاموا أيضاً بدعوة ثلاثة من الخبراء كشهود ليدعموا قضيتهم: رامزي كلارك، وزير العدل الأسبق في عهد الرئيس ليندون جونسون؛ بيل كويغلي، المدير القانوني لمركز الحقوق الدستورية؛ وآن رأيت، العقيد المتقاعد في الجيش.

تبادل المدعى عليهم توجيه الأسئلة إلى الشهود، ساعين إلى إثبات الحقيقة المتمثّلة في أن ضربات الطائرات بدون طيار تقتل عدداً كبيراً من المدنيين، وأن للناس الحق بأن يوقفوا جرائم الحرب، بل يتعيّن عليهم ذلك، وأنه وفقاً لمبادئ نورمبرغ في أعقاب الحرب العالمية الثانية، فإن الناس ملزمون أخلاقياً وقانونياً بعدم إطاعة الأوامر التي تؤدي إلى ارتكاب

جرائـم ضد الإنسـانية. استشـهد فريق المدعـى عليهم بتاريـخ المحتجين الذيـن خرقـوا القوانيـن التافهـة، من مؤسسـي الدولـة إلـى المدافعين عن حقوق المرأة والحقوق المدنية الذين احتلوا طاولات المطاعم بصورة غير قانونيـة. تحدث كويغلي، فـي حينه، قائلاً: «نكرمهم، علـى المدى البعيد، لإطاعتهم القانون الأسمى، لإسهامهم في إيصالنا إلى العدالة»(٢٦٦).

أعلـن القاضـي جانسـن فـي نهايـة الجلسـة، بمـا يثيـر المفاجـأة، أن القضيـة المطروحـة مهمـة للغايـة بمـا يحـول دون إصـدار حكـم فـوري، ومنـح نفسـه أربعـة أشـهر لدراسـتها بصـورة إضافيـة، ليقـوم، فـي ٢٧ كانون الثانـي/ ينايـر ٢٠١١، بإعلان قراره المتضمن في عشـرين صفحـة. وجد القاضي المجموعة مذنبة بجرم التعدي، مضيفاً أنها فشـلت فـي إثبـات أن ما قامت بـه كان ناتجاً عـن «ضرورة» حقيقيـة، ولكنه اكتفى بالمدة التي قضاها المدعى عليهم في السجن، ليطلق سراحهم، ويخاطبهم في النهاية قائلاً: «اذهبوا بسلام».

وبالرغم من أن المدعى عليهم كانوا يأملون بأن ينالوا حكماً بالبراءة، فقـد علمـوا أنهم حققـوا انتصاراً بغـض النظر عـن الحكم النهائـي. وكما تحدث أحدهم، براين تيرل، في عبارته الختامية، قائلاً: «يشـير البعض إلى أن النزعة لاستخدام الطائرات بدون طيار في الحرب تمثّل تحولاً نموذجياً بالمقارنة مع ما حدث حين تمّ استخدام القنبلة الذرية للمرة الأولى لتدمير مدينـة هيروشـيما في اليابان. عندمـا تم قصف هيروشـيما، بكل الأحوال، فقـد علم العالم كله بما تسـببت بـه القنبلة الذرية. تتسـبب الطائرات بدون طيـار بالكثيـر اليوم، ولكن لا أحد ينتبه لذلك علـى وجه التقريب. لا أزعم أن لـي الفضـل فـي ذلـك، ولكن النقـاش حول هـذه القضية بـات يثار بما يفوق السـابق بالتأكيد بعدما اعتقلنا لدخولنا قاعدة كريتش للقوات الجوية في ٩ نيسان/ أبريل ٢٠٠٩»(٢٦٧).

كانـت تلك المحاكمـة مؤثّرة للغايـة بحيث تم تحويلهـا لاحقاً إلى مسـرحية تسـتخدمها المجموعات الدينية كأداة تعليمية. ألهمت مجموعة كريتش ١٤، علاوة على ذلك، احتجاجات مماثلة تمّ أحدها في نيويورك.

توجه أكثر من ثلاثمئة ناشـط تمّ حشـدهم من قبل الائتلاف المحلي لإيقاف الطائرات بدون طيار وإنهاء الحروب، في ٢٢ نيسان/ أبريل ٢٠١١، توجهـوا إلى قاعـدة الحرس الوطني الجوي في هانكوك فيلد، سيراكيوز، في نيويورك. اختار الناشطون الموقع لأن الحرس الوطني في القاعدة يسيّر عن بعد طائرات ريبر مسلحة فوق أفغانستان منذ أواخر العام ٢٠٠٩.

اكتسـى ثمانية وثلاثون منهم -بينهم اثنان على كرسيين متحركين- عندمـا اقتربوا من مدخـل القاعدة، اكتسـوا ثيابًا بيضاء ملطخـة بلون الدم، وألقـوا بأنفسـهم علـى الأرض فـي مشـهد مؤثّـر يحاكي سـقوط المدنيين بهجمـات الطائـرات بـدون طيار. هـرع العشـرات من رجال الشـرطة إلى المكان للتدخل، ليخرجوا المحتجين منه بالقوة، بعد رفضهم القيام بذلك، وهم مقيدون بالأصفاد.

تـمّ اتهام مجموعة «هانكوك ٣٨»، كمـا باتت تعرف، بتعطيل حركة المـرور وإثـارة الشـغب. عمـد أفرادها أيضـاً، حيـن ذهبوا إلـى المحكمة في ٣ تشـرين الثاني/ نوفمبر ٢٠١١، إلى اسـتدعاء وزيـر العدل الأمريكي الأسـبق رامزي كلارك للشـهادة لصالحهم. أكد كلارك أن الطائرات بدون طيار تنتهـك قوانين الولايات المتحدة والقانـون الدولي في الصميم، وأن التهـم الموجهة إلى أفراد المجموعة لا تشـكّل شـيئاً بالمقارنة مع الجرائم التي كانوا يحاولون منعها.

قـام عشـرات مـن النـاس، أمـام دار العـدل، بتمثيلية تصـوّر هجوم طائـرة بـدون طيـار، ليسـتخدموا نموذجـاً ثلاثـي الأبعـاد لتلـك الطائـرة،

ويلعب رجل دور مشغلها من خلف شاشة كمبيوتر، ويقوم عدد من الناس بلعب دور ضحايا مدنيين ملطخين بلون الدماء، ويلعب رجل آخر دور مجند للقاعدة، يوظف أولئك الضحايا لتجنيد المزيد من المقاتلين.

تمّ النطق بالحكم النهائي في القضية في ١ كانون الأول/ ديسمبر ٢٠١١، حيث وجد القاضي غيديون المدعى عليهم مذنبين بإثارة الشغب، وحكم عليهم بعقوبات تتراوح بين دفع الغرامات وخدمة المجتمع، والعقوبة القصوى المتمثّلة في السجن خمسة عشر يوماً. أقرّ القاضي بأنه عجز عن النوم عدة أيام لكي يتخذ قراره، وأنه تعلم الكثير أثناء المحاكمة التي استمرت خمسة أيام بلا محلفين، ليختم كلامه قائلاً: «حقق المدعى عليهم، في النهاية، بما يقبل الجدل، ما سعوا إليه عبر أفعالهم، لفت الانتباه بقوة إلى رسالتهم».

لا تشكّل مجموعتا كريتش ١٤ وهانكوك ٣٨ سوى مثالين على تنامي الحركة الاحتجاجية في الولايات المتحدة ضد استخدام الطائرات بدون طيار. يتدفق الناس إلى الشوارع بالآلاف، في باكستان واليمن، لإدانة هجمات الطائرات بدون طيار التي تدمر مجتمعاتهم. ولكن الناشطين في الولايات المتحدة وأوروبا -حيث يتم التعتيم على ما تسببه الطائرات بدون طيار وحجبه عن الرأي العام- يقومون ببطء بإرساء الأساس للحركة المناهضة للطائرات بدون طيار. تفتقر تلك الحركة، التي لا تزال في مراحلها الأولى، إلى استراتيجيات واضحة وأهداف ملموسة. ولكن يمكن لها، مع تطورها، أن تثبت نجاحها بقدر حملات سابقة لحظر الألغام الأرضية والقنابل العنقودية.

* * *

تعـد كاثي كيلي، المشـاركة في تنسـيق أنشـطة مجموعـة «أصوات للاعنـف الخـلّاق»، تعـد واحدة من ناشـطي السـلام الأمريكييـن القلائل الذين سـافروا عشرات المرات إلى العراق وأفغانستان. كتبت كيلي التقرير الآتي أثناء رحلة لأفغانستان:

«التقيـت عائلـة كبيـرة تعيش فـي مخيم بائـس للاجئيـن. كانت قد تركـت منزلهـا فـي مقاطعة سـانجين فـي إقليم هلمنـد بعدمـا أدى هجوم للطائرات بدون طيار هناك إلى مقتل أم وأطفالها الخمسـة. أطلعنا زوجها علـى صور لجثث أطفاله المدماة. كانت ابنـة أخيه، جوما غول، التي تبلغ التاسـعة، قـد نجت مـن الهجوم. جلسـتُ إلـى جانبها في كـوخ مبني من الطيـن، في صباح أحد أيام كانون الأول/ ديسـمبر البـاردة. جلس والدها أمامنـا، فيمـا بعد، ليعمـد إلى خلع سـترتها برقة، ويرينـي أن ذراع ابنته قد بترت بفعل شـظية ناتجة عن الصاروخ الأمريكي الذي أصاب بيت العائلة في سـانجين. كان شـقيق جوما يجلس إلى جانبها، وقد كانت ساقه مصابة بشـدة جـراء الهجوم. كان من الواضـح أنه يفتقر للرعايـة الطبية الملائمة، ويشعر بألـم دائم»(٢٦٨).

تمثّلـت واحـدة من الاسـتراتيجيات التي اتبعتها حركة السـلام، في الثمانينيـات مـن القـرن المنصـرم، حين كانـت الحكومة الأمريكيـة تموّل وتسلّح فرق الموت اليمينية في أمريكا الوسطى، تمثّلت في إرسال المئات مـن الوفـود إلـى المنطقـة. اطلع الآلاف مـن النـاس، عبر تلـك التجارب المباشـرة، على مدى الظلم الذي كان يموّل من ضرائبهم، وامتلكوا الدافع لفعل شـيء ما حيال ذلك. شـكّلت الوفـود العائدة حركة السـلام بكليتها، ولكن تلك الرحلات إلى أمريكا الوسـطى كانت سريعة، غير مكلفة، وآمنة بصورة نسـبية. تعد الرحلات إلى أماكن مثل أفغانسـتان والعراق، بالنقيض من ذلك، مكلفة وخطيرة.

تقوم مجموعة أصوات للاعنف الخلّاق، بالرغم من المخاطر، بإرسال وفود إلى أفغانستان، لأنها تدرك مدى أهمية إرساء أساس يستند إلى ناشطين ملتزمين بالقضية، ومطلعين على مجرياتها بصورة مباشرة. يستذكر زميل كيلي، براين تيرل، كم تأثر بشدة حين التقى، في إحدى الرحلات إلى أفغانستان، طفلة في التاسعة من العمر فقدت ذراعها جراء هجوم لطائرة بدون طيار، قائلاً: «لا يزال ذلك يطاردني. تمثّل الطائرات بدون طيار وحوشاً مفترسة مسلّحة بصواريخ هيل فاير، وتُعد الفكرة القائلة بأن السلام يمكن أن يحل بفعل تلك الآلات القاتلة سخيفة»[٢٦٩].

وبالنقيض من كيلي، فإن نانسي مانسياز لم تذهب على الإطلاق إلى تلك الأماكن في النصف الثاني من العالم، حيث تطلق الولايات المتحدة العنان لطائراتها غير المأهولة القاتلة، ولكن ذلك لم يوهن من عزيمتها. تدير مانسياز حملة «أوقفوا الطائرات بدون طيار» لصالح مجموعة السلام التي شاركتُ في تشكيلها، «كودبينك». نشطت مانسياز، كمناهضة متحمّسة للحرب، في محاولة إعادة القوات إلى الديار من مغامراتها الطائشة عبر البحار. لعبت كذلك دوراً في الحركة ضد التعذيب، وأيدت إغلاق معتقل غوانتانامو، ودعت بقوة إلى المحاسبة على جرائم الحرب. تنبه مانسياز الناس عبر البلاد حين يخطب مجرمو الحرب من أمثال جورج بوش وديك تشيني، وتشجعهم على محاولة اعتراض خطاباتهم، أو إثارة بعض الفوضى على أقل تقدير -وهو ما تشتهر به مانسياز نفسها.

ترى مانسياز في عملها ضد الطائرات بدون طيار، كالعديد من المناهضين للحرب، امتداداً طبيعياً لجهودها من أجل السلام. تتحدث، بذلك الصدد، قائلة: «من الممكن أن تعود القوات إلى الديار من العراق وأفغانستان، ولكن هجمات الطائرات بدون طيار، التي تقتل خارج إطار القانون، ستستمر على الأرجح في الشرق الأوسط، آسيا الوسطى

وشمال أفريقيا. من المهم للغاية، لذلك السبب، أن نلفت الانتباه للطائرات بـدون طيار، ونشـكّل حركة لإيقافها». تشـارك مانسـياز فـي أعمال خلاقة ومنتديـات عامـة مـع مجموعات مثـل أصـوات للاعنف الخـلّاق، تجربة صحراء نيفادا، مجلس سـيراكيوز للسلام، العمال الكاثوليك، وغيرها عبر الولايات المتحدة.

يُعـد جيم هابر ناشـطاً معروفاً آخر يركز علـى الطائرات بدون طيار، وقـد انخرط في الحركة بعدما اكتشـف أنه يقطن بالقرب من قاعدة كريتش للقوات الجويـة. انتقل هابر إلى لاس فيغاس، في العام ٢٠٠٨، ليعمل مع «تجربـة صحراء نيفادا»، المنظمة التي تشـكل جزءاً مـن الحركة المناهضة لتجارب الأسـلحة النووية منذ أوائل الثمانينيـات من القرن المنصرم. تبيّن للرجل، كلما سافر من لاس فيغاس إلى موقع تجارب نيفادا، أنه يمر بواحد من المراكز الرئيسـة لتشـغيل المركبات الجوية غير المأهولة حول العالم. تحـدث، بذلـك الصـدد، قائلاً: «لـم يكن بإمكانـي أن أمر بقاعـدة كريتش للقـوات الجوية من دون أن أفعل شـيئاً ما حيال ما يحـدث هناك، أو ما يتم التحكـم به مـن هناك بالأحرى. بـدأت، بالتالـي، في الربط بيـن الطائرات بدون طيار والأسـلحة النووية، مشـيراً إلى أن الأخيرة تشـكل مرضاً مزمناً فيمـا يحسـب على الجيـش الأمريكي، بينما تشـكل الطائرات بـدون طيار وغيرها من الأسلحة الآلية التي تستخدم اليوم أعراضاً حادة».

يرتبـط هابر أيضـاً بحركة العمـال الكاثوليك، التي تتمثـل بعدد من المجموعـات حـول الولايـات المتحدة، التـي تكرس جهودها لمسـاعدة الفقراء، والمقاومة السـلمية للظلم. يشعر العديد من العمال الكاثوليك أن مقاومة الطائرات بدون طيار تشكل جزءاً من التزامهم الروحي. ينطبق ذلك على ماري آن غرايدي، واثنتين من شـقيقاتها، الذين كانوا ضمن مجموعة هانكـوك ٣٨ التـي تمّ اعتقـال أفرادهـا لاحتجاجهم على الطائـرات بدون

طيار في نيويورك. تتحدث غرايدي قائلة: «يشير الكتاب المقدس إلى أن الحياة مقدّسة بدورها. يتعيّن علينا أن نفضح استخدام الطائرات بدون طيار وتوسع العسكريتاريا الذي لا يحترم قدسية الحياة».

لا تتصدى مجموعات الناشطين المتمرسين والمجموعات الدينية وحدها للطائرات بدون طيار، بل ينضم إليها أيضا مسؤولون حكوميون سابقون. يُعد محلل السي آي أى المتقاعد راي ميغفرن واحداً من أكثر منتقدي الطائرات بدون طيار صراحة. يعلق ميغفرن بصورة متواصلة على شاشات التلفزة، مديناً حرب الطائرات بدون طيار، وما توقعه من خسائر بين المدنيين. لا يكتفي ميغفرن، علاوة على ذلك، بالإدلاء بالأحاديث، والكتابة في الصحف والمدوّنات، بل يشارك في الاحتجاجات، ويعتقل لآرائه.

ينطبق الأمر ذاته على آن رايت، العقيد المتقاعد في الجيش الأمريكي. وبالرغم من أن بيتها يقع في هونولولو الجميلة، هاواي، فإن رايت تجوب البلاد باستمرار، على وجه التقريب، لتتحدث بصورة علنية عن الحاجة إلى السلام، وتحرص على الدوام على توعية المستمعين إليها بمخاطر الطائرات بدون طيار. لا تكتفي رايت أيضاً، كميغفرن، بالإدلاء بالأحاديث، بل تتصدر الصفوف على الدوام، ليضاف سجلها، لكثرة مرات اعتقالها، إلى قاعدة البيانات الإجرامية الخاصة بالأف بي آي.

ينخرط ناشطون في بلدان أخرى أيضاً، كبريطانيا والسويد، في الحركة المناهضة للطائرات بدون طيار، ويقوم العديد منهم بذلك بسبب ضلوع بلدانهم في استخدام المركبات الجوية غير المأهولة في أفغانستان وأماكن أخرى. بدأت آغنيتا نوربرغ، الناشطة السويدية مع مجموعة نساء من أجل السلام، بدأت في الاحتجاج على الطائرات بدون طيار حين اكتشفت أن السويد اشترت مركبات جوية غير مأهولة من إسرائيل،

وأنها تدرب مشـغلي طائرات بدون طيـار في البلاد. عمدت نوربرغ، جراء شعورها بالصدمة، في تشرين الأول/ أكتوبر ٢٠١١، إلى الإسهام في تنظيم مؤتمر المجلس السويدي للسلام حول الطائرات بدون طيار، وقامت، مع آخرين، بالاعتصام أمام البرلمان.

تنظـم مجموعـات مثل «زمالة المصالحة» و«نسـاء بالزي الأسـود» فـي إنكلتـرا اعتصامـات بصـورة دوريـة. تقوم هيليـن جون، الناشـطة منذ عقـود ضد الأسـلحة النووية، بالاعتصـام الآن أمام قاعدة القـوات الجوية الملكيـة في وادينغتون، المملكة المتحدة، حيث يتمركز مشـغلو الطائرات بـدون طيـار. ولكنها لا تكتفي بذلـك. عمدت هيلين، التـي تبلغ ٧٣ عاماً، بالإضافـة إلـى اعتصامها أمام قاعدة وادينغتون لأسـابيع متواصلة، عمدت إلى إحداث فتحة في السـياج، ودخـول القاعدة. تعتقد هيلين أن المواجهة السلمية، والارتجال بذلك الصدد، يمكن أن يحيلا الاحتجاجات الصغيرة إلى احتجاجات كبيرة ومؤثّرة. تحدثت إلى أحد المراسلين قائلة: «لا أؤمن باستخدام أي سلاح. يوجد، مع ذلك، ما هو نبيل للغاية يتعلق بمن يملكون الاسـتعداد للتضحية بحياتهم في المعارك، ولكن الجلوس في غرفة مكيفة علـى بعـد آلاف الأميـال والقتـل بالتحكم عن بعـد يمثل انحرافـاً كلياً عن السـلوك المتحضّر. يتعيّن علينا لذلك أن نسـبب ما أمكننا من المشـكلات لهذا المكان»[٢٧٠].

تقوم تجربة صحراء نيفادا، أصوات للاعنف الخلاق، مركز مقاطعة نيفادا للسـلام، كودبينك، وغيرها من المجموعات في الولايات المتحدة، تقوم بالاعتصام مرة في الشهر، على الأقل، أمام قواعد جوية أمريكية.

يسـتهدف الناشـطون القواعـد لسـببين: الأول، أن ذلـك يتيـح لهم فرصـة التواصـل مع العسـكريين، حيـث يقومون بتسـليم معلومـات لمن يدخلـون القاعـدة ويخرجون منهـا بسـياراتهم. تتاح للناشـطين في بعض

الأحيـان حتـى فرصة التواصل مع مشـغلي الطائرات بدون طيـار، ليقوموا بتذكيرهـم بالتزامهـم بحكم القانـون، وعدم إطاعـة الأوامر التـي تخالفه. الثانـي، أن الوجـود أمـام القواعـد يسـاعد أيضاً علـى توعية من يسـكنون ويتنقلون بقربها، حيث تتضاءل الإمكانية في ألا يتلقوا رسـائل المحتجين، التي يمكن أن تتخذ العديد من الأشـكال، من اللافتات الكبيرة الملونة إلى نمـاذج الطائرات بـدون طيار. يدعو الناشـطون أيضا الصحافـة للانضمام إليهم، آملين في الوصول إلى جمهور أوسع.

تقترح ديبرا سـويت، مديـرة المجموعة المناهضـة للحرب «العالم لا يمكنـه الانتظـار»، أن يتـم التواصل مـع جمهور جديد: طلبـة المدارس المتوسطة والثانوية. تقوم سويت بزيارتهم للتحدث إليهم بشأن الحروب، وتحذيرهم من أن الحكومة تتصيد من يعشـق ألعاب الفيديو منهم لتوظيفه في تشغيل الطائرات بدون طيار. تقوم سويت، علاوة على ذلك، في الكثير من الأحيان، بإحضار مقاتلين سابقين في العراق وأفغانستان، من مجموعة «لسنا جنودكم»، ليدلوا بشهادات عما جرى معهم هناك.

عمـد بعض الناشـطين إلـى إيصال رسـالتهم إلى منابـر عامة تمجّد الحرب، كمعرض الطائرات بدون طيار في المتحف السميثسوني للطيران والفضـاء في واشـنطن العاصمة، حيث قامت مجموعـة تدعى «بيس أوف ذي آكشـن» -التي شكلتها الناشطة المناهضة للحرب سيندي شيهان، التي فقدت ابنها في الحرب في العراق- قامت، في كانون الثاني/ يناير ٢٠١٠، بدخـول المتحـف، ووضعت لافتـة تهاجم معرض الطائـرات بدون طيار، تحـوي العبارة الآتيـة: «الطائـرات بدون طيـار تقتل الأطفـال». لم تكتف المجموعة، بعد بضعة أشهر، بنشر لافتة ضخمة، تغطي عدة طوابق، تحوي عبـارة «الطائرات بدون طيار: لعبـة فيديو لنا، مجازر لهم»، بل قامت بإلقاء مئات المناشير التي توضح سبب مناهضتها للطائرات بدون طيار، المناشير التي طافت في الجو، ووقعت في أيدي السياح من حيث لا يدرون.

يقوم الناشط نيك ماترن أيضاً بإيصال رسالته المناهضة للطائرات بدون طيار إلى المنابر العامة، ويستخدم وسيلة منزلية الصنع خاصة في سبيل ذلك: نموذج لطائرة بدون طيار بطول ثمانية أقدام، يبلغ طول جناحيها أحد عشر قدماً، يتوضع على حامل بارتفاع عشرة أقدام يتحرك بواسطة عجلات كبيرة. يتوقف المارون بجانب المجسم، ويطرحون الأسئلة، بما يوفر فرصة لمناقشة الحرب الآلية. يتحدث ماترن، بذلك الصدد، قائلاً: «لم أر طيلة المدة التي نشطت فيها في مناهضة الحرب، التي بدأت منذ حرب الخليج، لم أر على الإطلاق نموذجا أو مجسماً يثير الاهتمام والفضول بالقدر ذاته».

عمد ماترن، المتقاعد الذي يعيش في وستشيستر، نيويورك، عمد للمرة الأولى إلى صناعة مجسمات الطائرات بدون طيار حين اكتشف أن إحدى الشركات في مدينته، آي تي تي كوربورايشن، تصنع معدات لإطلاق صواريخ طائرات البريديتور. اقترح ماترن الغاضب القيام بمسيرة، للتنديد بتوظيف الشركة الحرب لتحقيق الأرباح، بالقرب من منزل مديرها التنفيذي ستيفن لورانغر. قام ماترن، لرغبته في أن يطلع لورانغر على ما تسببه الطائرات بدون طيار من إرهاب، قام بصنع نموذج لتلك الطائرات. أعجبت وسائل الإعلام بالنموذج، لتعمد إلى نشر صوره في الصحف المحلية.

صنع ماترن وزملاؤه، منذ ذلك الحين، العديد من النماذج، ليعرضوها على الجماهير عبر البلاد، بينما كانوا يدلون بالأحاديث عن الحرب الآلية. ظهروا كذلك، في تشرين الأول/ أكتوبر ٢٠١١، كضيوف لتجمع «احتلوا وال ستريت» في الوسط المالي لنيويورك، ثم في مظاهرة ضد الطائرات بدون طيار أمام مبنى لجنرال أتوميكس في واشنطن العاصمة. حظي أولئك بالشعبية بحيث تواصل معهم الناشطون من أستراليا حتى للاستعلام عن كيفية صنع مجسمات يستخدمونها في احتجاجاتهم.

تتمثّل خطوة ماترن المقبلة في وضع كاميرات فيديو في مقدمة مجسمات الطائرات بدون طيار، وأجهزة كمبيوتر بجانبها، ليتمكن الناس من إدراك ما يشعر به المرء حين تراقب الطائرات بدون طيار تحركاته كافة.

لا تسعى الناشطة جين أغيراى إلى توعية الناس بمخاطر حرب الطائرات بدون طيار، بل إلى إبعاد تلك الطائرات عن مجتمعها. نشأت أغيراى في مزرعة في جنوب شرق كولورادو، بالقرب من مروج الكومانشي الوطنية، الأراضي التي استصلحت بعدما خربتها العواصف الترابية في الثلاثينيات من القرن المنصرم. تصدى السكان المحليون، طيلة ثلاثين سنة، لتوسع الجيش في تلك المنطقة الحساسة الحيوية، ولكن المقاومة اشتدت مع ظهور الطائرات بدون طيار لأن الجيش يضع نصب عينيه السيطرة على ٩ ,٦ ملايين هكتار من المروج الخضر لتطوير المركبات الجوية غير المأهولة، تسيير رحلات على ارتفاع منخفض، واختبار الأسلحة الآلية.

سيؤدي قيام الجيش بذلك إلى احتلال ٩٤٠٠٠ ميل مربع من ممتلكات خاصة بالقدر الأكبر، وتشريد الآلاف من سكان كولورادو، ناهيك عن أن المجال الجوي لتحليق الطائرات بدون طيار سيمتد عبر حدود الولايات، الكيانات المحلية المستقلة، والحدائق الوطنية، ليبلغ آسبن، كولورادو في أقصى حدوده الشمالية، وآلباكوركي، نيو مكسيكو في أقصى حدوده الجنوبية[٢٧١].

اتخذت مجموعة أغيراى، حملة «لا هكتار إضافي»، موقفاً متشدداً من عرض الجيش، ونجحت، في العام ٢٠٠٧، في دفع الكونغرس إلى إجراء تصويت لحظر تمويل أي أنشطة متعلقة بتوسيع الموقع. عملت المجموعة، علاوة على ذلك، على دفع الناس عبر البلاد إلى تقديم عرائض للكونغرس، لتنجح في تجديد الحظر في كل سنة منذ ذلك

الحين. يقوم المشاركون في الحملة، للوقوف على ما يمكن للحكومة أن تفعله، يقومون في الكثير من الأحيان بإرسال طلبات، بموجب قانون حرية المعلومات، للكشف عن خطط، تعاقدات، وأنشطة الحكومة الرامية إلى تعزيز سيطرة الجيش على جنوب كولورادو وشمال نيو مكسيكو، بما يشمل آخر المروج الخضر المتبقية في السهول الأمريكية العظمى.

بدأ الناشطون عبر البلاد أيضا في استهداف أماكن تصنيع الطائرات بدون طيار، ومن يوقعون عقوداً بملايين الدولارات لإنتاجها[٢٧٢].

يتمثّل واحد من أكثر الأهداف شعبية، التي يتم التحرك ضدها بصورة مباشرة، في مصنع الطائرات بدون طيار الاستثنائي جنرال أتوميكس. تمّ القيام بالكثير من الاحتجاجات أمام مكاتب الشركة، ولكن بعض الناشطين مضوا إلى ما هو أبعد من ذلك حتى، فتوجهوا إلى منزل مديرها التنفيذي جايمس نيل بلو.

قام زملائي في مجموعة كودبينك، في ١٨ أيار/ مايو ٢٠١٠، بالاعتصام أمام منزل المدير التنفيذي الفاخر في لاهويا، كاليفورنيا. كانوا قد وصلوا إلى هناك في العاشرة صباحاً، ليجدوا عدداً من عربات المحطات الإخبارية وسيارات الشرطة في انتظارهم. أقام المحتجون، الذين رفعوا لافتات تحوي عبارة «هجمات الطائرات بدون طيار =إرهاباً»، أقاموا مذبحاً صغيراً، يحوي وروداً وشموعاً، لإحياء ذكرى الأطفال الذين قتلوا بهجمات الطائرات بدون طيار.

عمد الناشطون، في اليوم التالي، إلى تنظيم أول احتجاج أمام مقر شركة جنرال أتوميكس في سان دييغو. كانت أخبار الاعتصام قبل يوم أمام منزل جايمس بلو قد انتشرت بسرعة، وقد أعلم بعض المطلعين الناشطين أن عدداً من موظفي الشركة قرروا البقاء في منازلهم ليتجنبوا لفت الانتباه إليهم.

تكبّدت إدارة الشركة العناء، مع ذلك، واضطرت إلى استئجار سياج فولاذي من الأسلاك بارتفاع ٧ أقدام لتطويق محيط المقر بأكمله. كانت خائفة بالتأكيد من حفنة من المحتجين السلميين!

قام ناشطو السلام، حين بدؤوا في الوصول في السابعة والنصف صباحاً، قاموا «بتزيين» السياج عبر إضافة الورود ولافتات تحوي رسائل مثل «أوقفوا هجمات الطائرات بدون طيار»، و«جنرال أتوميكس: أرباحك= قتلى مدنيين».

تجمّع ما يزيد عن ستين محتجاً في غضون ساعة. حملوا لافتات، أعلاما للسلام، ونماذج للطائرات بدون طيار، ليؤكدوا على إيصال الرسالة، عبر وجودهم، إلى موظفي جنرال أتوميكس، وغيرهم من المارين بالمكان. أوضحت نانسي مانسياز، بذلك الصدد، قائلة: «تمثّلت غايتنا، ببساطة، في مطالبة الموظفين بالتفكير في ما تفعله شركتهم، وتحميل إدارتها المسؤولية عن آلات القتل التي تصنعها».

استلقى المحتجون على الأرض في محاكاة لسقوط الضحايا المدنيين، وحددوا موضع أجسادهم بالطباشير ليرمزوا إلى أولئك الضحايا الذين يقتلون بلا تمييز بهجمات الطائرات بدون طيار. جلس ثلاثة من المحتجين، فيما بعد، في الممر المؤدي إلى مدخل الشركة، ليمنعوا الوصول إليها، ويسببوا ازدحاماً مرورياً على طول الطريق. حاول رجال الشرطة التفاوض معهم، ليصرّ المحتجون على مطلبهم المتمثّل في توقف جنرال أتوميكس عن صنع الطائرات بدون طيار. وبما أن رجال الشرطة كانوا عاجزين عن تلبية ذلك الطلب، فقد طالبت المجموعة تالياً بالالتقاء بالمدير التنفيذي جايمس نيل بلو، وهو ما كانت تسعى إليه بالفعل منذ أسابيع. لم يتمكن رجال الشرطة من تلبية ذلك أيضاً، ليتواصل الاحتجاج.

وبعد مضي ما يزيد عن ساعة من منع الوصول إلى مقر الشركة، وأكثر من أربع ساعات من تعطيل عملها، قرّر المحتجون، بما يشمل مجموعة كودبينك، مركز سان دييغو لموارد السلام، وتحالف الناشطين، قرروا أن ينهوا احتجاجهم.

تحدثت مانسياز قائلة: «كان ذلك يوماً أعقنا الوصول إلى العمل في صباحه بصورة موقتة لا أكثر، ولكن الكثير من الأيام تمر في باكستان وأفغانستان من دون أن يبقى الناس على قيد الحياة ليذهبوا إلى عملهم، أو أنهم يصلون إليه ليجدوا المباني والطرق مدمرة بسبب الهجمات الأمريكية».

توجه مئات المحتجين، بعد بضعة أشهر، في ٧ تشرين الأول/ أكتوبر ٢٠١١، توجهوا في مسيرة إلى مقر جنرال أتوميكس في واشنطن العاصمة، بمناسبة مرور عقد على الحرب في أفغانستان. كان هناك ممثلون عن العديد من المجموعات المناهضة للحرب في البلاد، مسلحون باللافتات، الرايات، الأغاني، والأناشيد. أحضر نيك ماترن إلى هناك ثلاثة من مجسّماته للطائرات بدون طيار، التي تحركت بطريقة ترمز إلى تحليق الطائرات بدون طيار الحقيقية فوق ضحاياها.

قامت المجموعة، بعد التوقف عدة دقائق أمام البيت الأبيض لتوجيه رسالة إلى الرئيس أوباما بأن الوقت قد حان لإيقاف الطائرات بدون طيار، قامت بالتوجه إلى مقر جنرال أتوميكس لإيصال رسالة إلى مديرها التنفيذي. ولكن ما إن دخل الناشطون الردهة حتى أصيب رجال الشرطة وحراس المبنى بالذعر، ليدفعوا الجميع إلى الخارج -بما يشمل كبار السن من المحاربين القدامى الذين وقع بعضهم على الأرض- ويوصدوا الأبواب.

اعتصمت المجموعة على درجات مدخل المبنى، ليلقي بعض المحتجين كلمات توضح دور جنرال أتوميكس في تصعيد حرب الطائرات بدون طيار. حظي الحدث بتغطية إعلامية جيدة، وغادر المحتجون وهم يشعرون بالرضى.

يستهدف الناشطون في بعض الأحيان «شركات ثانوية»، التي ترتبط بعلاقات مع نظيراتها المنخرطة في صناعة الطائرات بدون طيار. يمكن أن تمثّل تلك الشركات أهدافاً أسهل لأنها تفوق في حضورها العلني شركات الأسلحة، ولأنه يسهل لها، على وجه الاحتمال، أن تفض شراكاتها معها. عمدت مجموعة كودبينك، في أوائل العام ٢٠١١، إلى الاتصال بشركة نيسان للسيارات لتبلغها احتجاجها على العلاقة التي تربطها بشركة أيروفايرنمينت. تنتج الأخيرة منظومة الشحن في سيارة نيسان الكهربائية «الليف»، ولكنها تصنع أيضا مجموعة من الطائرات بدون طيار الصغيرة. تصور «نيسان» نفسها على أنها جزء من الحركة الخضراء، كما يتمثل ذلك في سيارتها الكهربائية، ولكنها تتشارك، من ناحية أخرى، مع شركة منخرطة في حرب الطائرات بدون طيار. طالبت كودبينك نيسان بقطع صلاتها مع أيروفايرنمينت، ولكنها لم تتلق رداً منها.

قرّرت مجموعة من الناشطين في لوس آنجيليس، بالتالي، أن تقتحم جناح نيسان في معرض لوس آنجيليس الشهير للسيارات، ليصعد أفرادها على منصة عرض سيارة الليف، ويهتفوا، ويرفعوا لافتات، ويطالبوا نيسان بوقف دعم حرب الطائرات بدون طيار. تمت مرافقتهم إلى خارج المبنى في النهاية، ولكنهم تمكنوا من إيصال رسالتهم، وإحراج الشركة.

❋ ❋ ❋

يتمثّل واحد من أفضل السبل لتحديد أهداف الناشطين في التركيز علـى الصلات المحلية بحرب الطائـرات بدون طيار. يعمل فران كويغلي، الأسـتاذ الجامعي، المحامي، والصحفي، على البحث فـي النزعة المقلقة لخوض الحرب الآلية، وقد قرر التحقق مما إذا كانت ولايته إنديانا متورطة في تلك الحرب.

فوجـئ الرجـل -بعد تقديـم العديد مـن الطلبات وفـق قانون حرية المعلومـات- بعـدد الصـلات التـي اكتشـفها. وقعت شـركة تدعى لايت مشينز، في ويسـت لافاييت، عقداً بملايين الدولارات مع البحرية لصناعة طائـرة بـدون طيـار صغيرة. كانـت رولـز رويس فـي إنديانابوليـس تصنع محركات الغلوبل هوك. وقعت الشـركة المصنّعة للبطاريات «أنردل»، في إنديانابوليـس أيضاً، عقداً بأربعة ملايين دولار لصناعة بطاريات للطائرات بـدون طيـار. كانـت كلية الهندسـة فـي جامعة بـوردو تجري أبحاثـاً حول الطائرات بدون طيار، كما مركز «نايفل سـرفيس وارفاير» في جنوب وسط إنديانـا. كان الحـرس الوطنـي الجـوي في تيـرى هوت أيضا يسـاعد على تحديـد أهـداف هجمـات الطائرات بدون طيار في أفغانسـتان وباكسـتان. يتحـدث كويغلي، بذلك الصـدد، قائلاً: «لا يوجد ما يميز إنديانا عن غيرها فـي مـا يتعلـق بارتباطهـا بالطائرات بـدون طيـار، وافتـرض، بالتالي، أنك إن قمـت بالبحث، فسـتجد أن العديد من الأنشـطة المهمـة المتعلقة بتلك الطائـرات تجري في الجامعات، المصانع الصغيـرة، ومراكز الأبحاث في أنحاء البلاد كافة».

تتحدث لوري بيردو، التي كانت تخدم في القوات الجوية، والعضو فـي كودبينك مـن إنديانا، قائلـة: «تحتاج ولايتنـا إلى الوظائـف، ولكنني أكـره حقيقـة أن أصحـاب الضمائر الحيـة يمكن أن يتورطوا فـي عمليات المجمـع الصناعي العسـكري المتمحـورة حول صناعـة آلات تؤدي إلى

قتـل مدنييـن أبرياء. لو كان بإمكاننـا أن نوجد وظائف خضـراء عوضاً عن وظائـف الحـرب، فأراهن علـى أن من يعمل في صناعة عنفـات الطائرات سيصنع عنفات الرياح».

يعمل كويغلي والناشطون المحليون على توعية الطلاب، ويخططون لتنظيم مظاهرات أمام المواقع الداعمة لحرب الطائرات بدون طيار.

لـم تنتظـر مجموعة في آيـوا حتى أن يبـدأ معمل محلـي في صناعة الطائـرات بدون طيار لكـي تحتج. عمد أفرادها إلى القيام بذلك بمجرد أن علموا أن شـركة تدعى «أير كوفر إنتيغرايتد سلوشـنز» ستشـترك مع جامعة آيـوا في صناعة طائرات بدون طيار صغيرة للمراقبة في سـيدر رابيدز[٢٧٣]. تحدث مدير الشركة جايمس هيل قائلاً: إن المحتجين كانوا مضللين، وإن الطائـرات بدون طيار ستسـتخدم لغايـات مفيدة كالبحث عـن المفقودين عقب حدوث الزلازل، والمرضى الضائعين المصابين بالخرف، والأجسام المشبوهة في الملاعب والمدرجات[٢٧٤].

ولكـن المحتجيـن يعتقـدون أن الطائـرات بدون طيار ستسـتخدم بصورة فعلية للتجسس على الناس، بما لا يستثنيهم. تحدث نايت أدايمي، أحد المنظمين المحليين، قائلاً: «تعد إمكانية تحليق الطائرات بدون طيار فـي الأجواء لتتجسـس على النـاس مخيفة، وتشـكل تعديـاً صارخاً على حق النـاس بالخصوصية». تحتـج المجموعة على تـورط الجامعة أيضاً، ومنح المسؤولين المحليين الشركة قرضاً.

تمثّل هدف آخر للناشطين في المنظمة التي تحشد الدعم للصناعة، الاتحـاد الدولـي لأنظمة المركبـات غيـر المأهولة. تأسسـت المنظمة في العـام ١٩٧٨ «للدعم وتعزيـز صناعة الروبوتات والأنظمـة غير المأهولة»، وتوسعت سريعاً لتضم ١٤٠٠ عضو، الذين يسعى جميعهم لتحقيق الأرباح

عبر التعامل مع الحكومة. عمد الناشطون، على الدوام، إلى التشويش على مؤتمراتها، أنشطتها ومعارضها.

وبالنظر إلى صلاتها القوية في الكونغرس -حيث تقدم شركاتها الملايين لدعم الحملات الانتخابية، وتحصل على البلايين، بالمقابل، من أموال الضرائب- فيمكن للمنظمة حتى أن تعرض بضاعتها في مبنى الكابيتول. عمد الناشطون إلى اقتحام معرض للطائرات بدون طيار أقيم من قبل التجمع الداعم للأنظمة غير المأهولة في الكونغرس، في أيلول/ سبتمبر ٢٠١١، لينشروا قطعاً من القماش الأبيض الملطخ بلون الدم، ويصدروا أصواتاً ويقوموا بحركات تحاكي الشعور بالألم، ويصرخوا قائلين: «أوقفوا الطائرات بدون طيار القاتلة»، بينما قام محتج آخر، يحمل مجسماً كرتونياً كبيراً لطائرة بدون طيار، بإصدار صوت مرتفع كالأزيز وهو يحرك المجسم في محاكاة لتحليق الطائرات بدون طيار الحقيقية. اضطر الحاضرون الذين فوجئوا بما حدث، من أعضاء في الكونغرس، وعاملين فيه، وموظفي الشركات، اضطروا لإيقاف أحاديثهم، حتى وصول الشرطة، ومرافقتها المحتجين إلى خارج المبنى.

وبينما انشغل المحتجون في الكشف عن الشركات المتورطة وفضحها، فقد عمدت بعض من أهم المجموعات القانونية والعاملة في حقوق الإنسان في البلاد إلى أخذ قضية حرب الطائرات بدون طيار والقتل خارج إطار القانون إلى المحاكم. قام مركز الحقوق الدستورية واتحاد الحريات المدنية الأمريكي بمقاضاة وزير الخزانة تيم غايتنر بسبب قرار الحكومة وضع المواطن الأمريكي أنور العولقي على لائحة الاغتيال، وتجميد موجوداته في الولايات المتحدة. رفعت الجهتان القضية إلى محكمة فيدرالية أمريكية بالنيابة عن والد العولقي، في مسعى لمنع القتل المستهدف لابنه[٢٧٥].

خسـر المركز والاتحـاد القضية لأسـباب إجرائية، ولكـن حيثياتها أثـارت قلـق القاضي، كما تبدو الحال عليه، ودفعته لطرح السـؤال الجدي الآتـي: «هل يمكن للسـلطة التنفيذيـة أن تأمر باغتيال مواطـن أمريكي من دون أن توفر له أي عملية قضائية على الإطلاق، استناداً إلى مجرد تأكيدها أنه عضو خطير في منظمة إرهابية؟»[٢٧٦].

تـدرس ريبريـف، المجموعـة القانونيـة العاملـة في مجـال حقوق الإنسـان في المملكة المتحـدة، تدرس القيام بمقاضـاة بعض الحكومات الأوروبيـة الضالعـة في هجمـات طائرات بـدون طيار ضـد مواطنيها، بما يشـمل حكومـات المملكة المتحـدة، ألمانيـا، بلجيكا، فرنسـا وأسـبانيا. تجعـل القوانيـن في أوروبـا المقاضاة فـي المحاكم أكثر سـهولة من القيام بذلك في الولايات المتحدة. تحدث مدير ريبريف كلايف ستافرد سميث، قائلاً: «سـنقاضي الحكومة في بريطانيا لأن البريطانيين أقروا بأنهم يوفرون معلومـات اسـتخبارية لهجمات الطائرات بـدون طيار. أعتقـد أن الفرصة مواتيـة بقوة لإثبات حـدوث انتهاكات لاتفاقية جنيف والقانون الإنسـاني. وبغـض النظـر عمّـا إذا ربحنـا القضيـة فـي المحكمـة أو لم نربحهـا، فإن الحكومة البريطانية لا يمكنها أن تربح تلك القضية في محكمة الرأي العام لأن ما تقوم به خاطئ بالمطلق».

سـاعدت ريبريف شريكتها الباكستانية، مؤسسة الحقوق الأساسية، على رفع دعوى قضائية في باكستان ضد جون ريزو، نائب المستشار العام السابق للسي آي أى، الذي كان يضع الموافقة النهائية على إضافة الأسماء إلـى لائحة اغتيالات الوكالة، وضد جانثن بانكس، رئيس محطة السـي آي أى في باكسـتان، الذي فر من البلاد بعدما ورد اسـمه في القضية. تستقصي المجموعـة أيضـا عن الشـركات البريطانيـة المتورطة في إنتـاج الطائرات بدون طيار لرفع دعوى قضائية محتملة ضدها.

شرعت مجموعة أمريكية أخرى، مؤسسة الحدود الالكترونية، في رفع دعاوى قضائية تتعلق بالطائرات بدون طيار، ولكن تركيزها ينصب على السرية المحيطة بالاستخدام الداخلي لتلك الطائرات. رفعت المؤسسة دعوى تطالب إدارة الطيران الفيدرالية بالكشف عن بيانات الشهادات والتصاريح التي منحتها لتشغيل الطائرات غير المأهولة. يُستلزم الحصول على تصريح من الإدارة لتسيير الطائرات بدون طيار على ارتفاع يفوق ٤٠٠ قدم. وبالرغم من أن الإدارة قالت إنها منحت ٢٨٥ تصريحاً لخمسة وثمانين مستخدماً مختلفاً منذ منتصف أيلول/ سبتمبر ٢٠١١، فإن التفاصيل حول أولئك المستخدمين تتصف بالغموض.

تتحدث جينيفر لينش، محامية مؤسسة الحدود الإلكترونية، قائلة إن استخدام الطائرات بدون طيار داخلياً يثير مخاوف كبيرة بشأن مسألة الخصوصية. «تمنح الطائرات بدون طيار الحكومة ومشغلي الطائرات غير المأهولة الآخرين أداة مراقبة جديدة فاعلة لجمع معلومات شاملة وخاصة عن تحركات الأمريكيين وأنشطتهم. وبما أن الحكومة قد بدأت في اتخاذ قرارات حول استخدام تلك الطائرات، فإن الجميع بحاجة إلى أن يعرفوا المزيد عن كيفية وأسباب استخدامها لمراقبة مواطني الولايات المتحدة»[٢٧٧] تشدد مجموعات أخرى على أنه إن لم تقم إدارة الطيران الفيدرالية بحماية خصوصية الناس، فيجدر بالكونغرس أن يضع ضمانات إضافية لذلك.

أخذت منظمة هيومن رايتس واتش على عاتقها مهمة أكثر صعوبة حتى: محاولة الدفع باتجاه المزيد من الشفافية والمحاسبة في ما يتعلق ببرنامج السي آي أى السري للطائرات بدون طيار. دعت المنظمة وزارة العدل إلى الكشف عن معلومات مثل المذكرات القانونية حول عمليات القتل المستهدف، تسجيلات فيديو الطائرات بدون طيار لهجمات معينة، وتقارير ما بعد العمليات، لتشير إلى أنه حيثما وجدت أخطاء، فيتعين أن يتم

التحقيـق بصورة فورية مع الأفراد الذين يقومون أو يأمرون بشـن هجمات غير قانونية، ثم محاسبتهم أو محاكمتهم.

تعتقـد هيومـن رايتـس واتش أيضـاً أن ملـف الطائرات بـدون طيار يجب أن يسحب من السي آي أى. وبما أن الحكومة الأمريكية غير مستعدة لإثبـات أن الوكالة تلتزم بالمعايير القانونية الدولية للمحاسـبة والتعويض، فترى المنظمة أن استخدام الطائرات بدون طيـار الفتّاكة يجب أن ينحصر ضمن مسؤولية الجيش الأمريكي[٢٧٨].

تـمّ التعبير عـن ذلك من قبل الأسـتاذة الجامعية مـاري ألين أوكانل فـي شـهادتها أمام الكونغـرس، فـي نيسـان/ أبريل ٢٠١٠، حيث تحدثت قائلة: «يشـكل حصر عمل الطائرات بدون طيار في ساحات القتال القاعدة الأكثر أهمية التي تحكم استخدام تلك الطائرات»، لتضيف أنه بينما تدعي الولايـات المتحـدة أنها تدافـع عن حكم القانـون في العالم، «فإننا نفشـل في احترام قاعدة أساسـية للغاية: أنه لا يجوز اسـتخدام الأسـلحة التي يتم التحكم بها عن بعد خارج ساحات المعارك»[٢٧٩].

يرغـب اتحاد الحريـات المدنيـة الأمريكي في أن تقـوم الحكومة بالتصريح عن خسـائر حرب الطائرات بدون طيـار. تلقى الاتحاد، بعدما تقدم بطلب بموجب قانون حرية المعلومات، تلقى رداً رسـمياً من وزارة الدفـاع يؤكد أنهـا لا تملك إحصائيات تبيّن العدد الكلـي للمدنيين الذين قتلـوا أو أصيبوا بهجمـات الطائرات بـدون طيار. يتحـدث جانثن ماينز، المحامي العامل مع مشـروع الأمن القومي للاتحاد، قائلاً: «يجدر بوزارة الدفاع، اسـتناداً إلى المخاوف الكبيرة بشأن حرب الطائرات بدون طيار، والتقديـرات المتباينة لعدد القتلى من المدنيين، يجدر بها أن تكون قاعدة بيانـات بعـدد ضحايا الطائرات بـدون طيار من المدنيين، وأن تنشـر تلك البيانـات»[٢٨٠].

تتفق «الحملة لأجل الضحايا الأبرياء في النزاعات» مع ذلك الرأي، وتؤكد على أن الممارسة العسكرية السليمة لتقليل الخسائر بين المدنيين إلى الحد الأدنى تقتضي جمع البيانات قبل العمليات القتالية وأثناءها وبعدها، وإجراء تحليل لأي ضرر يقع، ومراجعة الدروس المستقاة. تمضي الحملة إلى ما هو أبعد، مع ذلك، لتدعو الحكومة إلى عدم الاكتفاء بوضع سجلات بخسائر المدنيين جراء هجمات الطائرات بدون طيار، بل القيام بتعويضهم أيضاً. أصدرت الحملة، في العام ٢٠١٠، تقريراً بعنوان «الخسائر المدنية والنزاع في شمال غرب باكستان»، أظهر أنه لا يوجد إحصاء شامل أو منهجي لخسائر ضربات الطائرات بدون طيار، أو أي إجراء لإصلاح الأخطاء، بما يشمل تعويض المدنيين عن خسائرهم[٢٨١].

تساءلت سيرا هولوينسكي، المديرة التنفيذية للحملة، قائلة: «توجد إجراءات أمريكية، مع ما تتصف به من نقص، لتعويض الأفغان الذين يتضررون من القوات الأمريكية في حوادث أو اشتباكات بسيطة، ولكن ذلك لا يشمل الباكستانيين الذين يتضررون بفعل الطائرات بدون طيار. لم يتم التعامل مع خسائرهم بصورة مختلفة ؟ يفتقر ذلك إلى المنطق، ويقلل، بما هو أسوأ، من احترام المدنيين، ليعيشوا معاناتهم من دون إقرار بالخطأ الذي ارتكب بحقهم، أو تقديم يد العون لهم»[٢٨٢].

أخبرتني هولوينسكي أن مجموعتها حاولت مراراً التواصل مع السي آي أي، ولكن من دون جدوى. «يشكل الأمر مفارقة تتمثل في أن البرنامج سري، أي «لا وجود له». كيف يمكن لنا، بالتالي، أن نلتقي بهم لمناقشة برنامج لا وجود له على أرض الواقع؟».

تشكل باكستان، التي ينفذ فيها ذلك البرنامج الذي «لا وجود له»، تشكل على وجه التحديد المكان الذي تتم فيه الاحتجاجات الأكبر على هجمات الطائرات بدون طيار، بما يشمل عشرات الآلاف من المحتجين

في بيشـاور وكراتشـي، المئات مـن المعتصمين على الطريـق الواصل بين باكسـتان وأفغانسـتان لقطـع إمـدادات الناتـو، إضرابـات عامة في شـمال وزيرستان، واحتجاجات أمام البرلمان في إسلام أباد.

قـاد عمـران خـان، الزعيم البـارز في المعارضـة الباكسـتانية وبطل الكريكيت السابق الذي يحظى بشعبية واسعة، قاد الاحتجاجات الأكبر في البـلاد ضد هجمات الطائرات بدون طيار. يؤكد خان على عدم وجود حل عسـكري، ويدعو للحـوار مع طالبان، كما يدين تقاعـس المجتمع المدني في الغـرب -الولايات المتحدة على وجه الخصوص، التي لا يعلم الناس فيها حتى، كما يقول، ما تفعله حكومتهم.

يُعد خان محقاً في ذلك. تنشـر ضربات الطائرات بدون طيار الدمار من باكسـتان إلى غـزة، مع ما لا يذكر من الاسـتنكار مـن المواطنين الذين يعيشـون فـي «الديمقراطيـات» التـي تلقـي القنابـل. ولكن بالرغـم من أن الاحتجاجات في الغرب لا تزال في أطوارها الأولى، فإن مجموعة متنامية من الناشـطين قد بدؤوا، على الأقل، في توعية الناس، طرح الأسـئلة على حكوماتهم وشركاتهم، والمطالبة بأجوبة عنها.

المعارضة للطائرات بدون طيّار تغدو عالمية

تنمو حركة الناشطين ضد حرب الطائرات بدون طيار في الولايات المتحدة بصورة تلقائية، في مناطق مختلفة من البلاد، من دون القيام بالكثير من التنسيق على الصعيد الوطني. يربط ائتلاف واسع يدعى «متحدون ضد الطائرات بدون طيار»، تشكل في آب/ أغسطس ٢٠١٠، يربط قدر الإمكان بين المجموعات عبر البريد الإلكتروني، موقع على الإنترنت، ومؤتمر شهري يدعو إلى تنسيق الجهود.

تشكلت شبكة أخرى تدعى «التحالف لمقاومة الحرب الآلية وداعميها»، في تموز/ يوليو ٢٠٠٩، لتعرية ومقاومة ما تدعوه «منظومة التحكم المترابطة الناشئة التي تشمل تقنية الروبوتات، التقنية الحيوية، وتقنية النانو».

نظم التحالف، في نيسان/ أبريل ٢٠١٠، مؤتمراً للمجتمع المدني بعنوان: «تحدي الحرب الآلية والتحكم الاجتماعي». حضر المؤتمر، الذي عقد في كولومبيا ريفر غورج، أوريغن، بالقرب من مجمع شركة بوينغ العسكري للطائرات بدون طيار، حضره أكثر من ١٢٥ شخصاً من المنتمين إلى مجموعات المحاربين القدامى، الكنائس، ومنظمات السلام في أنحاء شمال غرب الولايات المتحدة كافة. اختتم المؤتمر أعماله بنداء

عاجل للقيام بالمزيد من الأنشطة، والاحتجاج أمام مركز درون سكان إيغل التابع لبوينغ. يواصل التحالف القيام بجولات للتوعية، والترويج في الكنائس لما يدعو إلى رفض الأسلحة الآلية، وأشكال الحياة الاصطناعية الأخرى. ولكنه، كما ائتلاف «متحدون ضد الطائرات بدون طيار»، لا يزال يفتقر إلى القدر المطلوب من الترابط في تنسيق الجهود لمواجهة الطائرات بدون طيار.

تشكل عبر الأطلنطي، في إنكلترا، تحالف أكثر تطوراً من المنظمات، الأكاديميين، والأفراد، في العام ٢٠١٠، يدعى «شبكة حملة الطائرات بدون طيار». استهدفت العديد من المجموعات في المملكة المتحدة الطائرات بدون طيار منذ أن بدأ سلاح الجو الملكي في استخدامها في العام ٢٠٠٧، ولكن لم يكن هناك، قبل تشكل الشبكة، أي مجموعة حصرت عملها بالمجمل في مواجهة الطائرات بدون طيار.

يترأس الشبكة المؤلف والناشط كريس كول، المدير السابق لمجموعة «زمالة المصالحة»، أوكسفورد. يساعد كول المجموعات على العمل ضد الطائرات بدون طيار في مناطقها المحلية، إن كان فيها مصنعون لتلك الطائرات على وجه الخصوص، وينظم تجمعاً سنوياً لتبادل المعلومات وتنسيق الأنشطة، كما يتابع، عبر مدونة «درون وارز يو كاي»، الأخبار، مصادر المعلومات، والتحركات القادمة المتعلقة بالطائرات بدون طيار.

يتجسّد أمر يصب في مصلحة الناشطين في كراهية البريطانيين، على وجه العموم، للطائرات بدون طيار. اكتشف كول، بعد قيامه بالبحث في الموقع الإلكتروني لوزارة الدفاع، أن واحداً من الأمور التي تثير قلقها بالقدر الأكبر يتمثّل في رؤية البريطانيين التي تزداد سلبية للطائرات بدون طيار. عمدت الوزارة، بما يثير الشك، إلى حذف الصفحة بمجرد أن نشرها

كول في المدونة. يتحدث الأخير بذلك الصدد قائلاً: «لا يصدق الناس الذريعة المتمثّلة في أن تلك الطائرات تحفظ أرواح الجنود البريطانيين. باتوا، بعد التورط في العراق، يشككون في ما يقوله الجيش، وبخاصة المزاعم أن الطائرات بدون طيار دقيقة للغاية بما يحمي المدنيين. يشكك البريطانيون بما يفوق الأمريكيين، علاوة على ذلك، في ذريعة استخدام تلك الطائرات للمراقبة».

يضم التحالف مجموعات للسلام مثل «مجموعة مقاومي الحرب الدولية»، و«الحملة لنزع السلاح النووي»، ومنظمات دينية مثل «زمالة المصالحة»، و«باكس كريستي»، وأكاديمية مثل «علماء للمسؤولية الدولية». قامت تلك المجموعات بتنظيم أنشطة تشمل إقامة معرض «أوقفوا التسلح» أمام البرلمان، والتظاهر أمام مكتب جنرال أتوميكس الجديد في لندن. تقوم المجموعة العضو في التحالف «ضحايا الحرب من الأطفال»، علاوة على ذلك، بعقد لقاءات مع أعضاء في البرلمان للاحتجاج على سقوط العديد من الأطفال بهجمات الطائرات بدون طيار، بالإضافة إلى قيام مجموعة «علماء للمسؤولية الدولية» بنشر معلومات عن الطائرات بدون طيار في موقعها الإلكتروني[٢٨٣].

تقوم «زمالة المصالحة» في إنكلترا، التي أصدرت تقارير ممتازة عن حرب الطائرات بدون طيار، تقوم بمطالبة الحكومة باستمرار بالتصريح عن خسائر هجمات الطائرات بدون طيار البريطانية، وتدعو إلى إجراء نقاش أكثر انفتاحاً وجدية حول استخدام المملكة المتحدة للطائرات بدون طيار[٢٨٤]. تتحدث المجموعة في موقعها الإلكتروني قائلة: «تشكل الطائرات بدون طيار الأحدث من بين مجموعة كبيرة من الأسلحة الجديدة التي تستخدم استناداً إلى الاعتقاد الخاطئ بأنها ستوفر حلاً «نظيفاً ولائقاً» للنزاعات. أثبت التاريخ مراراً أن ذلك يمثل أسطورة»[٢٨٥].

عمـدت «الحملـة لنـزع السـلاح النووي كمـراى» (كمراى الاسـم الويلـزي لوايلـز)، أو التي تعرف بصورة أكبر بسـي أن دي كمراى، عمدت إلـى مناهضـة الطائرات بدون طيـار بصورة علنية حين اكتشـفت، في العام ٢٠٠٤، أن منطقة أبربورث التدريبية في وايلز -التي تضم قاعدة للصواريخ أيضاً- قد تم اختيارها لإقامة مركز متطور للمركبات الجوية غير المأهولة، مـع وعـود بتوفير ألف وظيفة فـي تلك المنطقة التي تعمهـا البطالة. مضت الحكومـة في تنفيذ خطتها بالرغم من الاحتجاجات. لم يتم الوفاء بالوعود المتعلقـة بالوظائـف على الإطلاق، حيـث تمّ توفير نحـو ثلاثين وظيفة لا أكثـر، بينما أضحت أبربـورث واحدة من منطقتين، في أوروبا، يتم تجريب الطائرات بدون طيار فيهما، حيث تقع المنطقة الأخرى في شمال السويد.

يسـتمر أفـراد المجموعة فـي أنشـطتهم المناهضة للطائـرات بدون طيـار. الاعتصـام، تجـاوز حـدود منشـآت تابعـة للجيـش، والضغط على مسـؤوليهم المنتخبين. قاموا، في ٢١ أيلول/ سبتمبر ٢٠١١، الموافق ليوم السلام العالـمي، بافتتاح حديقة لتخليد ذكرى ضحايا الطائرات بدون طيار كافـة. تتحدث جيل غوف، السـكرتيرة الوطنية للحملة، قائلة: «بمعزل عن مشـكلة أن تلك الآلات ومعـدات تصويرها يتم اختبارها فـوق بيوتنا، فإن العديـد يعترضون علـى الحقيقـة الرهيبة المتمثلـة في أن مجتمعنـا وبلدنا يخططـان لأمـور فظيعة ضد الناس في بلدان أخـرى. لا نرغب بالتأكيد في أن تكون وايلز جزءاً من ذلك».

تركّـز الحمـلات الأوروبيـة المناهضـة للطائـرات بـدون طيـار، بمـا يفـوق نظيراتهـا الأمريكيـة، علـى الصلة بيـن إسـرائيل وصناعة تلك الطائرات. أصيب الناشطون البريطانيون، الذين يناهضون احتلال فلسطين واستخدام الطائرات بدون طيار في غزة، أصيبوا بالصدمة حين اكتشفوا أن شـركاتهم تنتج مكونات رئيسة للطائرات بدون طيار وتصدرها لإسرائيل،

ثم تشتريها منها على هيئة طائرات كاملة. يطالب أولئك حكومتهم بوقف استخدام طائرة هرميز ٤٥٠ الإسرائيلية المصنعة من قبل شركة إلبيت، وقطع العلاقات مع منتجي الطائرات بدون طيار الإسرائيليين.

تقوم مجموعة السلام الكاثوليكية باكس كريستي في المملكة المتحدة بالاعتصام بصورة دورية أمام معمل لصناعة محركات المركبات الجوية غير المأهولة، الذي تملكه شركة إلبيت أيضاً[٢٨٦]. تقوم، بالإضافة إلى ذلك، مجموعة بريطانية من الأفراد، «هايستينغز أغينست وار»، التي تشكلت في العام ٢٠٠٣ لمعارضة الحرب على العراق، تقوم بالاحتجاج أيضا على استئجار وشراء الطائرات بدون طيار الإسرائيلية[٢٨٧]. يراقب أفرادها بحرص، على وجه الخصوص، مشروع طائرات الواتشكيير البريطانية، الذي تجني شركة إسرائيلية منه مئات الملايين من الدولارات، ويؤدي، بصورة غير مباشرة، إلى دعم احتلال فلسطين.

تتم مقاربة أخرى لمناهضة حرب الطائرات بدون طيار من قبل مجموعة تشكلت في العام ٢٠٠٩، تدعى «اللجنة الدولية للحد من الأسلحة الروبوتية»، التي تمثل عدداً من المختصين في الروبوتات، الفلاسفة، والناشطين في حقوق الإنسان من عدة دول، بما يشمل الولايات المتحدة، المملكة المتحدة، فرنسا، ألمانيا، النمسا، هولندا، وأستراليا.

تضم اللجنة، إلى جانب آخرين، نويل شاركي، أستاذ الذكاء الاصطناعي وعلم الروبوتات في جامعة شفيلد؛ بيتر أسارو، أستاذ الفلسفة في جامعة نيو سكول في نيويورك؛ روبرت سبارو من مركز الأخلاق الحيوية في ملبورن، أستراليا؛ ومارك غبرد، الفيزيائي في جامعة نورث كارولاينا.

هدفت المنظمة، عند انطلاقتها، إلى إثارة النقاش حول الكيفية التي غيرت بها الأسلحة الآلية من طبيعة الحرب، وانتهكت الكثير من قواعد

الاشـتباك. انتـاب القلـق أعضاءها مـن أن تقنية الروبوتـات يمكن أن تدفع صناع السياسـة إلى الاعتقـاد بأن الحرب يمكن أن تصبـح أقل دموية، وأن الدول المعادية أو المنظمات الإرهابية يمكن أن تستحوذ على تلك التقنية، وتعيد توجيهها.

أقامت المجموعة ورشـة عملها الأولى في برلين، بعد جلب خبراء مـن أنحاء العالم كافـة، في صيف العام ٢٠١٠، وقد نظـم الفعالية يورغن ألتمـن، الفيزيائـي الذي يدرِّس في دورتموند، ألمانيا. شـارك في الورشـة أكاديميـون وخبـراء فـي السياسـة، محامـون يعملـون فـي مجـال حقوق الإنسـان، ممثلـون عن الصليب الأحمر، ناشـطون للسـلام، مستشـارون عسـكريون، وآخرون من المعارضين لتجارة السـلاح. بحث المشاركون فـي التهديدات التي تشـكلها الأسـلحة الآلية للسـلم والأمن فـي العالـم، بما يشـمل اسـتهداف المدنييـن وتقويض القانـون الدولي. عبـر الخبراء، بالإضافـة إلـى مخاوفهـم من إمكانيـة اسـتخدام الروبوتات كأسـلحة في الفضاء، أو تزويدها بالأسـلحة النووية، عبـروا عن قلقهم العميق من عدم قـدرة الأنظمـة الروبوتية علـى التمييز بيـن المقاتلين والمدنييـن، ومن أن تلـك التقنيـات الجديدة يمكن أن تحول دون تعيين المسـؤولية الأخلاقية والقانونية عن أي فظائع ترتكب في الحرب.

وضع المشـاركون في الورشـة، في النهاية، لائحـة بالأهداف الآتية: حظر تطوير، نشـر، واسـتخدام الأنظمة غير المأهولة المسـتقلة المسـلحة، باسـتثناء الأنظمة الآلية المضادة للصواريخ؛ تحديد مدى عمل الأنظمة غير المأهولة التي يشـغلها الإنسان، والأسلحة التي تحملها؛ منع تزويد الأنظمة غيـر المأهولة بالأسـلحة النووية؛ حظر تطوير، نشـر، واسـتخدام الأسـلحة الروبوتية الفضائية؛ ووضع قيود على استخدام الطائرات بدون طيار المسلحة في عمليات القتل المستهدف في الدول المستقلة، خارج إطار الحرب[٢٨٨].

تعمـل اللجنـة، لتحقيـق أهدافهـا، على دراسـة التجـارب الأخرى التـي نجحـت في حظر أنـواع معينة من الأسـلحة، التي تتمثـل، على وجه الخصوص، في معاهدة حظر الألغام في العام ١٩٩٧، التي تحرم استخدام الألغام الأرضية.

عمدت المنظمات غير الحكومية، بعد فشـل المؤسسات الحكومية في تقنين اسـتخدام الألغـام الأرضية، عمدت إلى إطـلاق حملتها الخاصة لحظرهـا بالمطلق. تـم، في العام ١٩٩٢، تأسـيس «الحملـة الدولية لحظر الألغـام الأرضيـة»، التـي ضمت المئـات من المنظمـات في أنحـاء العالـم كافـة، بما يشـمل منظمات في البلـدان المنتجـة للألغام والمتضـررة منها، ومجموعـات تركـز علـى قضايا حقوق الإنسـان، المسـاعدات الإنسـانية، الطفـل، السـلام، الإعاقـة، المحاربيـن القدامـى، ضبـط التسـلح، الديـن، البيئـة، والمرأة. انخرط الأعضاء في حملات للتوعية، واشـتركوا في وضع استراتيجيات سياسية، ومارسوا الضغوط على حكوماتهم للخروج بحلول.

قام ممثلون عن خمسين حكومة، وأربعة وعشرون مراقباً، في تشرين الأول/ أكتوبـر ١٩٩٦، قاموا بالاجتماع في أوتاوا للاتفاق على اسـتراتيجية موحدة، وتمكنوا، بعد عدة اجتماعات لاحقة، من وضع مسـودة للمعاهدة. لعبت «الحملة الدولية لحظر الألغام الأرضية»، التي تمثل المجتمع المدني في العالـم، لعبت دوراً فاعلاً في الحدث، لتشارك في الاجتماعات الدبلوماسية والمفاوضات، وتسهم في صياغة المعاهدة، وتضع مقدمتها(٢٨٩).

تم إقرار معاهدة حظر الألغام، التي سـميت «اتفاقية حظر استخدام، تخزيـن، إنتـاج ونقـل الألغـام المضـادة للأفـراد، وتدميرها»، تـم إقرارها رسميا في أيلول/ سـبتمبر ١٩٩٧. يعود الفضل إلى الضغط المتواصل من المجتمـع المدني في أنها نفذت في أقل من سـنتين، بأسـرع من أي اتفاقية مماثلـة فـي التاريخ. التزم ما يعـادل ثمانين بالمئة مـن دول العالم، بحلول العام ٢٠١١، بحظر استخدام الألغام الأرضية(٢٩٠).

تعزو حملة الألغام الأرضية نجاحها إلى العوامل الآتية[٢٩١]:

* أن رسالتها وأهدافها اتسمت بالوضوح. وافقت الدول الموقعة على تنفيذ ستة بنود مهمة، بما يشمل تدمير مخزونها من الألغام في غضون أربعة أعوام، ونزع الألغام التي زرعتها في غضون عشرة أعوام.

* أن بنيتها لم تكن بيروقراطية، وأن استراتيجيتها كانت مرنة.

* أنها كونت «شراكة قوية واستراتيجية بصورة فريدة» بين المنظمات غير الحكومية، المنظمات الدولية، وكالات الأمم المتحدة، والحكومات.

* أنها عملت في سياق دولي مؤات.

تمثل عامل حاسم أيضاً لنجاح الحملة في أن المفاوضات قد تمّت خارج منظومة الأمم المتحدة، وأن مؤتمر المعاهدة قد اعتمد على التصويت، عوضاً عن الاجماع، مما أسهم في الدفع بها قدماً. تعين على الحكومات المشاركة في المفاوضات حول المعاهدة، علاوة على ذلك، أن توافق على المبادئ الأساسية في نصها بصورة مسبقة. أدى الأداء الفاعل للحملة في المفاوضات إلى الخروج باتفاقية مرضية، حظيت بالضمانات بعدم تمييعها من قبل الحكومات، أو قيام الأخيرة بالمماطلة في تنفيذها[٢٩٢]. تمثل نجاح آخر للحملة في أنها أثارت الرأي العام ضد الألغام الأرضية إلى حد بعيد بحيث أرغمت معظم الدول التي رفضت التوقيع على المعاهدة على عدم استخدام الألغام خوفاً من تداعيات ذلك على سمعتها.

لعبت جودي ويليامز، التي فازت بجائزة نوبل للسلام في العام ١٩٩٧ لعملها في الحملة، لعبت دوراً رئيساً في المعركة ضد الألغام الأرضية. تقوم ويليامز، مع التوسع في استخدام المركبات الجوية غير المأهولة، تقوم بالكتابة ضد حرب الطائرات بدون طيار ومعارضتها

بصورة علنية، وترغب في أن يتم حظر استخدام الطائرات بدون طيار الفتّاكة كافة، ولكنها تتخوف من أن يكون ذلك أصعب بكثير من حظر الألغام الأرضية لأن استخدام تلك الطائرات يتم على نطاق واسع بصورة فعلية، ولأنه يسهل على العسكريين أن يجادلوا على أن مزاياها تطغى على مثالبها، ولأنها أضحت، بما هو أكثر أهمية، صناعة كبيرة للغاية.

تحدثت ويليامز في مقابلة، قائلة: «أعارض استخدام الطائرات بدون طيار بشدة، وأتمنى أن تختفي جميع الأنواع الفتّاكة منها، ولكن، في ما يتعلق بالألغام الأرضية، فلم نواجه الكثير من المعارضة من منتجيها لأن أرباحها لم تكن كبيرة. يختلف الأمر بالنسبة للطائرات بدون طيار، حيث تمثل بقرة حلوبا للانتهازيين الذين يصنعونها. سيكون هناك سباق كبير للتسلح بتلك الطائرات، وأخشى أن الشركات لن تحتمل على الإطلاق أن يتم حظرها».

ستتم، علاوة على ذلك، معارضة أية قوانين لاستخدام الطائرات بدون طيار بقوة من قبل المصنعين والمسؤولين الحكوميين، في الولايات المتحدة على وجه الخصوص. تحدث جيف هوكينز من مكتب وزارة الخارجية للديمقراطية وحقوق الإنسان، في اجتماع لمناقشة مسألة الطائرات بدون طيار، تحدث بذلك الصدد قائلاً: «لن يكون هناك أي دعم بالتأكيد من قبل حكومة الولايات المتحدة لأي قيود دولية على استخدام الطائرات بدون طيار. لا ريب في ذلك الأمر»[٢٩٣].

تعتقد ويليامز أن أفضل فرصة يحظى بها المجتمع الدولي للحد من استخدام الطائرات بدون طيار تتمثل في إيقاف مشروعات الأسلحة الآلية، التي تعمل بصورة مستقلة وفق مهام مبرمجة مسبقاً، لأنها لم تطور بصورة كاملة بعد، ولأنها تثير أكثر الأسئلة الأخلاقية والقانونية حساسية.

تتحدث ويليامز بذلك الصدد قائلة: «لو كنا نظن أن الأسلحة الآلية سيئة الآن، فتخيل حين تصبح مستقلة بالكامل، وتدمر عدة قرى في هجوم واحد على سبيل المثال. من سيتحمل المسؤولية عن ذلك؟ الشركة التي صنعتها؟ الجيش الذي استخدمها؟ مطور برمجياتها؟ لربما يجدر أن تتم محاكمتهم جميعاً، ولكن ذلك لن يحدث على الأرجح. يتعين علينا، بالتالي، أن نوقف مشروعات تلك الأسلحة قبل تطويرها بالكامل، وهو أمر يمكن لائتلاف دولي، وفق اعتقادي، أن يقوم به».

يتفق بيتر أسارو من اللجنة الدولية للحد من الأسلحة الروبوتية مع ذلك الرأي. يعتريه القلق، علاوة على ذلك، من عمليات القتل المستهدف، ولكنه يعتقد أن القانون الدولي يحظرها بالفعل، وأن المطلوب، بالتالي، يتمثل في إيجاد آلية لفرض ذلك الحظر، لا إقرار معاهدة جديدة. أما في ما يتعلق بعقد اتفاقية لحظر الأسلحة الروبوتية المستقلة، فيدرك أسارو أن هناك العديد من التعقيدات المتعلقة بتنفيذها وفرضها، ولكنه يرى أن مجرد الوصول إلى إجماع دولي على أن استخدام الأسلحة المستقلة غير أخلاقي وغير قانوني سيشكل خطوة مهمة. يتحدث بذلك الصدد قائلاً: «سيؤدي فرض حظر دولي إلى إيقاف كبار مطوري التقنية العسكرية عبر تقليص الأسواق الاقتصادية المحتملة لتلك الأسلحة، وسيقلل بصورة كبيرة، بالتالي، من السرعة التي يجري بها تطويرها حالياً»[٢٩٤].

يتفق العديد من المجموعات على أن الأسلحة الآلية الهجومية والفتاكة المستقلة بالكامل يمكن -ويتعين- أن تحظر قبل أن تصل إلى أسواق السلاح الدولية، وتتسبب في سباق جديد ومخيف للتسلح. يمكن لتلك الحملة أن تجمع بين الناشطين، منظمات حقوق الإنسان، الأكاديميين، العاملين في المجال الإنساني، والمنظمات الدينية.

يشـكل حظر الطائرات بدون طيار المستقلة، بكل الأحوال، بالنسبة لمعظم الناشطين، أمراً جيداً بالتأكيد، ولكنه غير كاف. يتحدث الناشط نيك ماترن، بذلك الصدد، قائلاً: «سنرتكب خطأ فادحاً إن ركزنا على الطائرات بدون طيار المسـتقلة فحسـب. يجـدر أن يتمثّل هدفنا في حظـر الطائرات بـدون طيار المسـلحة كافة. يتعين أن تتـم معارضة هذا النمـط الجديد من الحـروب الـذي يجعـل الولايـات المتحدة وآخريـن يظنـون أن بإمكانهم أن يهاجمـوا أي مـكان فـي أي زمـان، كمـا يجـب أن يتـم وقـف الانتهاك الصارخ للخصوصية عبر طائرات المراقبة التي تثير هلع شـعوب بأكملها، من وزيرستان إلى غزة»[٢٩٥].

الخاتمة

قام جون ريزو، نائب المستشار العام السابق للسي آي أي - «الملتحي الأنيق الذي يبلغ الثالثة والستين من العمر، ويرتدي قميصاً مزيناً بأزرار فاخرة في كميه، ورباط عنق أصفر فاتح اللون»- قام على مائدة عشاء من شرائح اللحم والنبيذ بمناقشة هجمات طائرات السي آي أي بدون طيار مع مراسلة *النيوزويك* تارا مكيلفي[٢٩٦]. تحدث ريزو، في إشارة إلى مقاتل باكستاني مشتبه فيه، «تم تفجيره إلى أشلاء» ما إن ترجل من سيارته، تحدث قائلاً إنه راجع الهجوم عبر تسجيل فيديو، واستنتج أنه كان «عملياً للغاية». أردف ريزو قائلاً إنه كان يحرص على مراقبة عمليات القتل عبر البث الحي، في مقر السي آي أى في فيرجينيا، للتحقق من أنها كانت تتم «بأنظف الطرق الممكنة».

تعرف كلمة «أنظف» هنا بالقدر الأقل من الأضرار الجانبية، ولكنها تعني شيئًا آخر أيضاً: تعد هجمات الطائرات بدون طيار «نظيفة» لأنها لا تهدف إلى اعتقال، إصابة، أو نزع سلاح المشتبه فيهم، بل قتلهم، إنهاء حياتهم -ومشكلات العلاقات العامة المحتملة- بصورة فورية.

كتب أستاذ القانون في الجامعة الأمريكية كينيث آندرسن حول ذلك قائلاً: «بما أن الموقف السياسي والقانوني للحكومة الأمريكية بات يثير

الجـدل، بـكل الأحوال، في ما يتعلق بالاستجواب العنيـف، فقد أضحت أسـبابها أقل لاعتقال المشـتبه فيهـم مقابل قتلهم. يتمثـل الدافع للقتل، في تلـك الحالة، في الرغبة في التخلص من المشـتبه فيهم لأن ذلك يوفر عناء اعتقالهم، مع ما يمكن أن يتطلبه ويثيره من مشكلات»[297].

لنتأمـل الأمـر مـن منظار واقعـي: لـم تكلـف الحكومـة الأمريكية نفسـها عنـاء عمليـة الاعتقـال، بمتطلباتها ومشـكلاتها، في الوقـت الذي يمكـن لصواريخ الهيـل فاير فيه أن تؤدي المهمة، مـن دون المجازفة بعقد المحاكمـات المزعجة، التـي يمكن أن ينتج عنها حتـى تبرئة المتهمين بما يسـبب الإحراج؟ وبالرغم من أنه يمكن أن تقوم بعض مجموعات حقوق الإنسـان بتقديم شـكاوى بعد تنفيـذ عمليات اغتيـال خارج إطـار القانون بالطائـرات بـدون طيـار، فـإن قتل المشـتبه فيهم لا يشـكل إسـاءة لصورة أمريـكا في الخارج بقـدر اعتقالهم في غوانتانامو على سـبيل المثال. يلجأ السياسيون بالتالي، جراء معرفتهم بذلك، إلى استخدام القوة الفتّاكة كخيار أول، ليحكموا على الناس بالموت استناداً إلى أدلة ضعيفة للغاية بحيث لا يمكن أن تصمد على الإطلاق في المحاكم المدنية، أو العسكرية حتى.

ينظر صناع السياسة في الولايات المتحدة إلى الطائرات بدون طيار باعتبارها الوسـيلة الأمثـل للتعامل مع المقاتلين المتشـددين. يصف ليون بانيتا وزير الدفاع هجمات الطائرات بدون طيار بأنها «الوحيدة القادرة على مواجهـة أو محاولة تدمير قيادة القاعدة»[298]. يمكن تفهم ذلك، على وجه الاحتمـال، من منظور العسـكريين، ولكن ما الذي جـرى للفروع الأخرى مـن الحكومة ؟ للأفكار «البالية» المتمثلة في المفاوضات؟ الدبلوماسـية؟ محادثات السلام؟ التسوية؟ هل اختفت جميعها فجأة بعد ١١/ ٩؟

أسمع على الدوام من يقولون عن ناشطي السلام إنهم سذج، وإن من المستحيل أن يتم التحدث مع المتشددين، الذين لا يكترثون لحياة الناس،

ويملكـون القـدرة على ارتـداء أحزمة ناسـفة، والقيام بعمليـات انتحارية، وتفجير الأبرياء الذين يصدف وجودهم عند تنفيذ تلك العمليات.

ولكـن خبرتـي، في ما يتعلق بالنزاعات، تشـير إلى وجـود من يمكن التحـدث إليهـم على الـدوام. يتمثل خطأ فـادح في تصنيـف أعدائنا جميعاً - بمـا يشـمل أعضـاء حماس فـي غـزة، البعثيين فـي العـراق، طالبان في أفغانسـتان، والمسـؤولين الحكوميين فـي إيران- باعتبارهم متشـددين لا يمكـن التحدث إليهم. ينضم الناس إلى المجموعـات المقاتلة للعديد من الأسباب: المعتقد، العائلة، الضغط الاجتماعي، الانتقام، التوجه السياسي، الفقر. يمكن على الدوام، مع وجود تلك الدوافع المتعددة، أن يتم تشجيع البعض على الدخول في حوار من أجل السـلام. يجدر أن يتمثل هدفنا في التماسـهم، وترجيح كفة المعتدلين. لم تسـهم أفعالنا فـي معظم الأحيان، لسوء الحظ، إلا في تقوية المتشددين.

لنتأمل ما حدث في الصومال، على سبيل المثال.

بات الصوماليون، بعد ما يقارب عقدين من القتال بين أمراء الحرب المتصارعيـن، والاضطـراب الذي أعقب سـنوات من الحكـم القمعي من قبل دكتاتور مدعوم من الولايات المتحدة، باتوا ينعمون بالسلم إلى حد ما حيـن قام ائتلاف من المجموعات يدعى «اتحاد المحاكم الإسـلامية»، في العام ٢٠٠٦، بفرض سـيطرته على مقديشو. أضحت العاصمة الصومالية، للمرة الأولى منذ سنوات، آمنة بما يكفي لجعل الناس يخرجون في المساء من دون وجود قوات أمنية مدججة بالسلاح.

ولكـن كانـت هنـاك مشـكلة: كلمـة «إسـلامية». وبالرغـم مـن أن المحاكـم كانـت تمثـل الإسـلام المعتـدل، فقـد كانـت إدارة بـوش علـى قناعـة بأنها منظمـة إرهابية خطيرة، يمكن، إن تركت في السـلطة، أن تمنح

مجموعـات كالقاعـدة ملاذاً آمناً. وبما أن القـوات الأمريكية قد غرقت في مسـتنقعَيْ العراق وأفغانسـتان، فقد لجأت إدارة بوش إلى إثيوبيا، ودعمتها بالمال لتغزو الصومال بالنيابة عنها، ناهيك عن مسـاندتها القوات الإثيوبية بالهجمات الجوية، بما يشمل التي تنفذها الطائرات بدون طيار.

أزاحـت أمريـكا، فـي النهايـة، المحاكـم الإسـلامية عـن السـلطة، ودفعـت بالصومال مجدداً إلى الفوضى. انشـق عن تلـك الحركة المعتدلة عدد من المجموعات التي أضحت راديكالية مثل الشباب، لتمنح الولايات المتحدة ذريعة إضافية للتدخل في ذلك البلد عبر زيادة ضرباتها الجوية.

نشـطت حركة الشباب بالقدر الأكبر في المناطق ذاتها من الصومال التي نشـطت فيهـا الولايات المتحدة وحلفاؤها -إثيوبيـا ثم كينيا. تتحدث أميـرا وودز، مديـرة مشـروع «فورين بوليسـي إن فوكس»، بذلـك الصدد، قائلة: «تجسـد الصومـال مثالاً على سياسـة الولايات المتحدة العسـكرية التي أضحت «مسعورة» بالكامل، حيث أدت إلى زعزعة استقرار الصومال مجدداً وتقوية حركة الشباب التي لم يكن لها وجود يذكر قبل رد الولايات المتحدة العنيف على المحاكم الإسلامية».

لم تؤد سنوات من الحرب في العراق وأفغانستان بواسطة الطائرات بدون طيـار عالية التقنية إلى تحقيق النصر. كتب الخبير في مكافحة التمرد دايفيد كيلكولن، والضابط السـابق في الجيش آندرو مكدانلد أكسـوم، في العـام ٢٠٠٩، حـول ضربـات الطائرات بـدون طيار في باكسـتان، قائلين: «يمثل كل قتيل من المدنيين عائلة مفجوعة، ورغبة في الانتقام، والمزيد من المجنديـن في حركة مقاتلة تنمو بصورة متزايـدة بالرغم من تزايد ضربات الطائـرات بدون طيار بالمقابل»[٢٩٩]. خلص الرجلان، بالإضافة إلى ذلك، إلـى أنه من الأفضل للشـعبين الأمريكي والباكسـتاني أن يتـم الإعلان عن تعليق ضربات الطائرات بدون طيار في باكستان.

كتب مراسل النيويورك تايمز دايفيد رود، الذي كان مختطفاً من قبل طالبان لسبعة أشهر، قائلاً إن كره خاطفيه للولايات المتحدة يعود، في جزء منه، إلى قتلها المدنيين بالطائرات بدون طيار[٣٠٠]، وإن ذلك يمثل في نظرهم دليلاً على نفاقها، ازدواجية معاييرها، واستخفافها بالقانون الدولي.

تعد ثقافة البشتون القبلية الالتحام مع العدو بصورة مباشرة أمراً مشرفاً، وسيكون من الطبيعي، بالتالي، أن تزدري من يطلقون الصواريخ على الناس من مخابئهم المحصنة على بعد آلاف الأميال.

لن يؤدي تعليق ضربات الطائرات بدون طيار إلى إيقاف المتشددين الإسلاميين عملياتهم بالمطلق، ولكن استمرار تلك الطائرات في القتل سيفاقم المشكلة بالتأكيد. يعود ذلك إلى أنه بالرغم من أن المقاتلين المتشددين لا يتمتعون بالشعبية على وجه الاحتمال، فإنهم لا يشكلون تهديداً بالقدر ذاته، كما تبدو الحال عليه، لمن يروعهم وجود عدو دائم، يحوم فوقهم باستمرار، ويمكن، في أي لحظة، أن يقتل أحباءهم بصواريخ الهيل فاير. يوظف المتشددون -من القاعدة، طالبان، الشباب، وغيرها من الحركات- يوظفون ذلك الخوف، لينصبوا أنفسهم مدافعين عن الناس. يُعد أولئك، السكان المحليون أنفسهم، في نهاية المطاف، من يتعين أن يهزم المتشددين. تجعل ضربات الطائرات بدون طيار من تلك المهمة أكثر صعوبة، لا سهولة، عبر الدفع بضحايا الإرهاب القادم من السماء إلى أحضان المتطرفين.

وحتى لو سلمنا جدلاً بأخلاقية قتل الإرهابيين بلا محاكمات، فإن المشكلة الحقيقية لا تتمحور حول ذلك. تقتل الطائرات بدون طيار بالفعل أشراراً لا يستحقون الحياة، على وجه الاحتمال، بصورة أو بأخرى، ولكنها تقتل أيضاً العديد من الأبرياء. لا يتمحور السؤال، بالتالي،

حول ما إذا كان من الأخلاقي إعدام القتلة بلا محاكمات فحسب، بل ما إذا كان من الصواب القيام بذلك ولو أدى إلى قتل الأبرياء من الرجال، النساء، والأطفال، وما إذا كان، في النهاية، يجعلنا أكثر أمناً بالفعل.

لم تـؤد الضربـات الجوية إلـى قتل الأعـداء المفترضيـن والأبرياء فحسب، بل إلى عرقلة محادثات السلام أيضاً. أصابت ضربة جوية أمريكية كانت تستهدف أعضاء طالبان في باكستان، في تشرين الثاني/ نوفمبر ٢٠١١، أصابـت جنـوداً باكسـتانيين بالخطـأ، كانـوا يرابطـون علـى الحـدود مـع أفغانسـتان، لتخلـف أربعة وعشـرين قتيلاً منهم. تمّت الضربـة قبيل انعقاد مؤتمر مهم، خطط له منذ مدة طويلة، في بون، ألمانيا، حيث ستجتمع أكثر مـن مئة دولـة ومنظمة لمناقشـة كيفية إنهـاء الحرب في أفغانسـتان. كانت باكستان بالطبع تمثّل لاعباً رئيساً في ذلك المؤتمر.

ولكن الحكومة الباكستانية رفضت حضوره بسبب الضربة وما أثارته من نقمة شـعبية، لتحبط بذلك المحاولة المنتظرة طويلاً لإجراء مفاوضات للسـلام. صرح مسـؤول في وزارة الخارجية الأمريكية، رفض الكشف عن اسـمه، لصحيفة الواشـنطن بوسـت قائلاً إن ذلك يشـكل مثالاً إضافياً على الاختـلاف الكبيـر بين الغايات الأمنيـة القصيرة الأجل للجيـش والأهداف الدبلوماسـية البعيدة المدى لوزارة الخارجية[٣٠١]. أردف المسـؤول بأسـف قائلاً: «تمثل الدبلوماسية، من عدة نواح، الخاسر الأكبر في ذلك السياق».

عمد دينيس بلير، الأدميرال المتقاعد، والمدير السابق للاستخبارات الوطنية، الذي تمّ استبعاده من إدارة أوباما، عمد -في منتدى آسبن الأمني الـذي تزامـن مع الذكـرى العاشـرة لأحـداث ١١/ ٩- إلى التشـكيك في هجمـات الطائـرات بـدون طيـار، والتركيـز المنصب علـى الإرهاب، من الناحيتيـن الاسـتراتيجية والاقتصاديـة. قدر بليـر عدد أعضـاء القاعدة في

العالـم بأربعـة آلاف، ليشـير -مع تخصيص معظـم ميزانية الاسـتخبارات السـنوية، البالغة ٨٠ بليون دولار، لاعتقالهم- ليشـير إلى أن ذلك يعني أن كل إرهابي يكلف ٢٠ مليون دولار في العام، ويتساءل باستغراب عن مدى ملاءمة ذلك.

أردف بليـر قائلاً إن أقل من عشـرين أمريكياً قتلـوا -في العقد الذي أعقـب ١١/ ٩- على أيدي إرهابيين على التراب الأمريكي (من بينهم ١٤ فـي مجزرة فورت هود، التي نفذها جندي مسـلم فقـد صوابه بعدما رفض الجيـش تسـريحه من الخدمة). أجـرى بلير مقارنة بين ذلـك الرقم وأعداد ضحايا حوادث السـيارات والجرائم في الشوارع، التي أدت إلى مقتل أكثر مـن مليون أمريكـي في الإطار الزمني ذاته، ليتسـاءل قائلاً: «مـا الذي يبرر إنفاق ذلك القدر من المال على تلك المشـكلة البسـيطة مقابل ما يمكن أن نتبعـه من طرق أخرى لحمايـة أرواح الأمريكيين؟ أعتقد أنه يتعين علينا أن نفكر في هذا السؤال ملياً في الذكرى العاشرة للهجمات».

تحـدث العقيد المتقاعد ويليام آسـتر عن الأمر ذاته، ليتسـاءل، عند الإشـارة إلـى «مفجر الحـذاء» و«مفجـر الملابـس الداخلية»، قائـلاً: «لم حظيـت الأعمال الإجراميـة الخرقاء لهذين الفاشـلين بالكثير من الاهتمام من قبل وسـائل الإعلام؟ كان يجدر بنا، كأقوى أمة في العالـم، أن نضحك من أعماقنا على سـخافة وتفاهـة تلك «الهجمات»، وننصرف إلى شـؤون حياتنـا، ولكنهـا اسـتخدمت، عوضـاً عـن ذلـك، كذريعة أخـرى لإغداق الأربـاح على مجموعـة منتفعة من الشـركات، أعضاء جماعـات الضغط، السياسـيين، والعسـكريين المتقاعديـن الذيـن يمـرون مـن باب واشـنطن الدوار، ويجنون الأرباح الطائلة من التريليونات المخصصة لمجمع الأمن القومي والاستخبارات الذي يهيمن على واشنطن»[٣٠٢].

تم إغداق أموال طائلة بالفعل، منذ ١١/ ٩، على وزارة الدفاع وأجهزة الاستخبارات لكي تقوم بتمويل برامجها، المتعلقة بالطائرات بدون طيار على وجه الخصوص. ازداد التمويل لأبحاث الطائرات بدون طيار وشرائها في خضم تقليص النفقات حتى، الذي أعقب الأزمة الاقتصادية. أشار وزير الدفاع ليون بانيتا، حين تحدث عن تقليص ميزانية العام ٢٠١٣، بما يشمل خفض عدد القوات، منظومات الأسلحة، وامتيازات الجيش، أشار بوضوح إلى أن «الأنظمة غير المأهولة» سيكون لها الأولوية.

تأثرت وزارة الخارجية بقوة، بالنقيض من ذلك، جراء التخفيضات في ميزانيتها. تمثل القطاع الوحيد الذي لم تشمله تلك التخفيضات في تمويل عمليات الوزارة في العراق، التي باتت -بعد انسحاب الجيش الأمريكي في كانون الأول/ ديسمبر ٢٠١١- مسؤولة عن «أنشطة دبلوماسية» مثل الإشراف على الآلاف من الحراس المسلحين، تدريب الشرطة العراقية، وتسيير أسطول من الطائرات بدون طيار.

تضطر وزارة الخارجية، في ما يتعلق بباكستان، إلى التعاون مع السي آي أى في عمليات القتل بالطائرات بدون طيار. تم وضع السفير الأمريكي كاميرون مونتر في أكثر المواقف لا دبلوماسية، حيث يتعين عليه أن يتخذ القرار بشأن كل من تلك العمليات. يتساءل محامي منظمة ريبريف كلايف ستافرد سميث، بذلك الصدد، قائلا: «هل يمكنكم أن تتخيلوا أن تتم مطالبة السفيرة الباكستانية في واشنطن شيري رحمن باتخاذ القرار حول عمليات قتل الناس في تكساس من حين لآخر؟ سيتم اغتيالها إن لم يحكم عليها بالإعدام، في الأساس، في تكساس ذاتها. يتمثل ما يفعلونه في جعل عمل وزارة الخارجية مستحيلا بالمطلق».

ازدادت وزارة الخارجية ضعفاً في العقد السابق، وقد عجزت عن فعل شيء حيال فشل محاولاتها الدبلوماسية ذات الحظوظ القليلة في

الأساس. أضحى الأمر أكثر سوءاً، على وجه التحديد، منذ أن أصبحت طائرات البريديتور والريبر لاعباً رئيساً في السياسة الخارجية الأمريكية. تم تحييد الدبلوماسية -الفن المنسي المتمحور حول تحدث الناس بعضهم إلى بعض- بصورة غير رسمية مع تشكيل الطائرات بدون طيار قوة العمل الجديدة.

تحدثت آن رايت، الدبلوماسية السابقة والعقيد المتقاعد في الجيش الأمريكي، تحدثت بأسف قائلة: «عملت الجامعات الأمريكية، قبل أربعين سنة، على تدريس فن الدبلوماسية، ليتمحور ما تدرسه الآن حول الأمن القومي والأبحاث الاستراتيجية، التي تمثل النظرة العسكرية إلى الشؤون الدولية. لو تأملنا في سياسات وزارة الخارجية في عهد آخر الوزراء: مادلين أولبرايت، كولن باول، كوندوليزا رايس، وهيلاري كلينتون، فسنجد أنهم لم يكونوا دبلوماسيين يتبعون طرقا سلمية للتعامل مع التحديات الدولية، بل يمثلون امتدادات لوزارة الدفاع، وينفذون سياسة الولايات المتحدة العسكرية لحساب الرئيس الذي يعملون معه».

تشير دراسة لمؤسسة راند، مع ذلك، تتمحور حول المجموعات التي صنفت على أنها إرهابية في الأربعين سنة الماضية، تشير إلى أن العامل الرئيس لانحلالها لم يكن يتمثل في الهزيمة العسكرية، بل المفاوضات. أوقفت نسبة ٤٣ بالمئة، من ٢٦٨ مجموعة إرهابية، أوقفت عملها المسلح عبر المشاركة في عملية سياسية، و٤٠ بالمئة عبر اتباع سياسة حازمة ضدها، و٧ بالمئة، لا أكثر، عبر التصدي لها بالقوة العسكرية[٣٠٣].

لسنا، في خضم المواجهة الأمريكية للإرهاب التي تنحاز كثيراً للرد العسكري، لسنا بحاجة ملحة لتشجيع الدبلوماسية بصورة أكبر فحسب، بل إلى مشاركة المواطنين في ذلك أيضاً. لا يتم إخضاع السياسة الخارجية

للآليـات الديمقراطيـة، في الولايـات المتحدة، إلا فيما ينـدر من الحالات، وحين تهيمن صور جثامين الجنود الأمريكيين، على وجه الخصوص، على نشرات الأخبار. يمكن للرئيس، مع وجود الطائرات بدون طيار، أن يقرر شن الحروب من دون المخاطرة بحياة الأمريكيين. لو كان العالم الذي نعيش فيه مثاليا لما كان لذلك أثر في القرارات باستخدام القوة الفتّاكة، حيث لا تستند عدالة الحرب إلى قدرة من يشنها على النأي بمواطنيه عن خسائرها.

ولكننـا نعيـش فـي عالـم يدفـع المـرء -بسـبب المشـاعر القوميـة والانحيـاز إلى المألوف- إلـى التعاطف مع مواطنيـه بأكثر من «الآخرين» المجهولين بالنسبة له.

لا يُعـد «الآخرون»، علاوة على ذلك، في خضم ما تشـنه الولايات المتحـدة مـن حـروب اليـوم، لا يعـدون مجهوليـن فحسـب، بـل يُغيبون بالكامـل أيضاً. هل سـبق لكـم، في أي مـن الأوقات، أن شـاهدتم ضحية للطائرات بدون طيار في الأخبار؟ صوراً للأشـلاء المتدلية من الأشـجار، المنـازل المتحولـة إلـى أنقـاض، أو الأمهات اللواتـي ينتحبـن حزناً على أبنائهـن؟ تفقـد وسـائل الإعـلام المهيمنة، بعـد أن تهلل للحـرب وتغطي بحماسـة ضربة «الصدمة والرعب» الأولى، تفقد اهتمامها سـريعاً «بمآثر» أمريـكا الإمبريالية، ولا تملك الاسـتعداد -مع بروز حرب الطائرات بدون طيـار التـي لا تخاطـر بحيـاة الأمريكييـن- لأن تمضـي الوقت فـي تغطية عواقب القصف على الأجانب، حين يكون هناك حدث «مهم»، على وجه الخصوص، كانفصال اثنين من المشاهير عن بعضهما.

تخيلـوا لـو أن الأمـور انقلبـت، بـكل الأحوال. لـو أن كوبـا بدأت في تسـيير طائرات بـدون طيار فوق جنـوب فلوريدا، لتراقـب الأمريكيين الكوبيين، وتقتل من أقروا بتهمة الإرهاب كلويس بوسادا كاريليس.

لربمـا لا يضطـر المرء للتخيل في وقت قريب للغاية. ستحذو دول أخـرى بالتأكيد حـذو الحكومـة الأمريكية التي سـنت تلك السـابقة، التي تسمح بتجاوز «شـكليات» القانون، والقيام ببساطة باغتيال مواطني الدول الأخرى -أو المواطنين الأمريكيين أنفسهم- لمجرد أن مسؤولاً مغموراً ما قد نعتهم بالإرهابيين. تقوم إسـرائيل بالفعل بالأمر ذاته، بينما تتم مراقبتها، والولايات المتحدة، من قبل الصين، روسيا، إيران، والعالم بأسره.

وعوضـاً عن أن نشـهد، كمـا يفترض المرء، جـدلاً علنيـاً مؤثراً في مجتمـع ديمقراطي يواجه بأسـئلة أخلاقية معقدة حـول القتل بالتحكم عن بعـد، فإن وسـائل الإعلام صامتـة، معظم القـادة الدينيين صامتـون، وكذا المسؤولون المنتخبون، بالإضافة إلى أن الحركة المناهضة للحرب -التي كانـت نشـطة وفاعلة للغاية في عهد بوش- قد فقـدت زخمها عند انتخاب باراك أوباما رئيساً.

أفسح ذلك المجال لأوباما لمواصلة حروب سلفه، وإطلاق المزيد من صواريخ الهيل فاير عبر البحار، من دون أن يثير ذلك جدلاً علنياً، على سـبيل المثال، بقدر قيام أحد المشـاهير بأمر ما. كان هناك بالتأكيد حروب نتج عنها خسائر أكبر بكثير، ولكن لم يسبق لأي رئيس على الإطلاق أن قام بهذا القدر من العمليات السرية للقتل المستهدف.

يتمثّل ما يثير الدهشـة بصورة كبيرة في أن إدارة أوباما قتلت الآلاف من المسلحين المشتبه فيهم والمدنيين على حد سواء، بما يشمل مواطنين أمريكييـن، في حـروب غير قانونية وغير معلنة، من دون أن يؤدي ذلك إلى أي توجه للمحاسبة في الكابيتول هيل.

وحتـى لـو افترضنا أن ذلك التوجه قائم بالفعـل، فليس من الواضح مـا إذا كان المشـرعون قادرين على كشـف الكثير عن الحروب التي تشـن

باسمهم عن بعد. تمكنت إدارة أوباما -عبر توزيع عملياتها بين السي آي أي، المتعاقدين الخصوصيين، وقيادة العمليات الخاصة المشتركة التابعة للبنتاغون والمحاطة بالكثير من السرية- تمكنت من شن حروب غير معلنة بطرق حمتها من مراقبة الرأي العام. أدى التحالف العسكري الاستخباري أيضاً، في ما يتعلق بذلك الشأن، إلى إيجاد ثغرات في نظام مراقبة الكونغرس، حيث تقتصر مساءلة السي آي أي على لجان الاستخبارات، وقيادة العمليات الخاصة المشتركة على لجان القوات المسلحة. وبما أن عملية المساءلة تحاط بالسرية، فلا يمكن للجان أن تقوم بعملية مشتركة لفحص المعلومات بغية الوصول إلى فهم شامل للوضع، ناهيك عن أن رؤساء اللجان وحدهم، في بعض الأحيان، من يطلعون على المعلومات، مما يؤدي إلى حجبها عن معظم المسؤولين.

ولكن لا تظنوا أن المشرعين يتحرقون لمعرفة المزيد. عندما يكون الرئيس في البيت الأبيض ديمقراطياً، فإن بقية الديمقراطيين في مواقع السلطة -بما يشمل من يعارضون الحرب ظاهرياً حتى- لا يبدون رغبة حقيقية في التقصي عما يشنه رئيسهم من حروب، وبخاصة حين لا يكون هناك خطر يتهدد مشغلي الطائرات بدون طيار. وبما أن الجمهوريين، في الطرف الآخر، يمثلون الحزب الأقل معارضة للحرب في واشنطن، فهم يؤيدون، على وجه العموم، قصف الأماكن كافة، ويفضلون مساءلة منظمات المجتمع المدني، كأكورن، على مساءلة من يشنون الحروب غير القانونية وغير الأخلاقية في السر.

لا يوجد، مع ذلك، سوى صوت واحد يجاهر بتأييد الطائرات بدون طيار في الكونغرس، ويصف نفسه «بصوت صناعتها في الكابيتول هيل»، الذي يتمثل في التجمع الداعم للأنظمة غير المأهولة. يعمل التجمع،

المؤلف من خمسين مشرّعاً، الذي بات يمثل، منذ العام ٢٠١٢، نحو ثمن أعضاء مجلس النواب ونصف أعضاء اللجنة الفرعية لمخصصات الدفاع، يعمل على ضمان أن تحظى الطائرات بدون طيار القاتلة حتى بالدعم في واشنطن.

لا يبدو، استناداً إلى ذلك، أن الشركات وحدها تفعل أي شيء لتحقيق الأرباح، بل الأفراد كذلك.

تظهر خريطة عضوية التجمع أنها تشمل الأطياف كافة من الحزبين في العاصمة الأمريكية، من الصقور الجمهوريين إلى مؤيدي الحرب من الديمقراطيين، من المحافظين في كاليفورنيا مثل باك مكيون إلى الليبراليين في نيويورك كموريس هينتشي، ليدلل انتماء أعضاء التجمع إلى مناطق البلاد كافة على اتساع رقعة التأييد لصناعة الطائرات بدون طيار جغرافياً وسياسياً.

يشير الخطاب المعلن للتجمع إلى أن الأعضاء «يقرون بالحاجة الملحة للتطوير والنشر السريعين للمزيد من الأنظمة غير المأهولة دعماً للعمليات المدنية، العسكرية، وعمليات فرض القانون». يتعهد أولئك الأعضاء -الذين يتظاهر العديد منهم بالحرص على أموال الخزينة، ويعملون على تقليص البرامج الاجتماعية باسم دافعي الضرائب- يتعهدون أيضاً بـ«دعم السياسات ومشروعات الميزانية التي تطور قدرات أكبر وأكثر فاعلية لتعزيز الأمن القومي بواسطة الأنظمة غير المأهولة».

وبالنقيض مما يقوله بعض من أشد المنتقدين للولايات المتحدة، فإنها تحظى بالفعل بديمقراطية تمثيلية فاعلة، ولكن المشكلة تكمن في أن من يتم تمثيلهم لم يعودوا ذلك الشعب الذي يتعين أن تكون له الكلمة الأولى، كما يتم تلقين الطلاب في المدارس.

* * *

يتحـدث بيتر سـينغر، مؤلف كتاب «وايـرد فور وار»، قائـلاً إننا نمر الآن بمرحلـة تماثـل مرحلـة الأخويـن رايت في مـا يتعلـق بالطائرات غير المأهولـة، وإن المجادلة حول الطائـرات بدون طيار تماثل المجادلة حول مزايا الكمبيوتر في العام ١٩٧٩: «سيتواصل تصنيع تلك الطائرات، ولم نر شيئاً بعد من طفرتها»[٣٠٤].

ولكننا نقوم بمجادلات حادة على الدوام حول الكمبيوترات. تلقى الكونغرس، في كانون الثاني/ يناير ٢٠١٢، على سـبيل المثال، حين سعى لتمرير قانون لإغلاق مواقع إلكترونية متهمة بانتهاك قوانين حقوق النشـر، تلقـى الملايين من المكالمات والعرائض للعـدول عن ذلك بحيث اضطر إلى الاستجابة.

ولكـن لا توجد مثل تلك المجادلات الحادة حول تقنية كالطائرات بدون طيار التي تؤثر بصورة كبيرة في سمعتنا، الأسس الأخلاقية لمجتمعنا، حياة الأبرياء، وأمننا، في النهاية، كأمة.

بـات الجـدال متأخراً للغايـة الآن مع اسـتخدام الجيـش الأمريكي الآلاف مـن الطائـرات بدون طيـار، وفتـح إدارة الطيـران الفيدرالية أجواء البلاد لها.

لا تعد جميع استخدامات الطائرات غير المأهولة سيئة. تم استخدام الطائـرات بـدون طيار بعد حـدوث الزلزال فـي اليابان لمراقبة مسـتويات الإشـعاع في مفاعل فوكوشـيما النووي. تمّ اسـتخدامها في أسـتراليا أيضاً للتحقق من آثار فيضان هائل في الحياة البرية. تسـهم الطائرات بدون طيار، علاوة على ذلك، في مساعدة رجال الإطفاء إلى حد بعيد عبر التحليق فوق المناطق التي تطالها النيران في الغابات.

بدأت المجموعات التي تُعنى بشؤون البيئة وحقوق الإنسان، والتي تنظم الاحتجاجات حتى في استخدام الطائرات بدون طيار. تقوم منظمة «سي شيبرد كانسرفايشن سوسايتي» بتسيير طائرات بدون طيار صغيرة فوق المحيط الشاسع لرصد عمليات صيد الحيتان غير القانونية. تؤيد مجموعات حقوق الإنسان أن يتم استخدام الطائرات بدون طيار لمراقبة الأنظمة التي تقمع شعوبها، كما في سوريا[٣٠٥]. قامت مجموعات تنظم احتجاجات في بولندا بتسيير طائرات بدون طيار فوق قوات الشرطة لمراقبة سلوكها، كما فعلت حركة «احتلوا وال ستريت» في نيويورك بواسطة طائرات ألعاب صغيرة، تبلغ قيمة الواحدة منها ٣٠٠ دولار، وتباع في بروكستون.

ولكن ازدهار الطائرات بدون طيار لا ينتج عن المهام العلمية أو الناشطين المبدعين، بل عمليات الاغتيال التي تقوم بها بعض الدول، والحروب الخفية التي تشنها، وهو ما يكرس له بعض من أفضل العلماء في العالم وقتهم اليوم، لسوء الحظ، عوضاً عن إيجاد علاج للسرطان، على سبيل المثال، أو بديل للوقود الأحفوري.

تصمم الطائرات بدون طيار التي تخضع للتطوير الآن في مراكز الأبحاث على امتداد البلاد، تصمم لتزداد فتكاً واستقلالية، وتبقى في الجو لمدة أطول، وتصور ساحة المعركة بما هو أكثر دقة وشمولية. تسمى إحدى التقنيات التي يتم العمل على تطويرها «الاحتشاد والاندفاع»، بما يماثل سلوك النحل حين تتم إثارته، حيث تقوم مجموعة من المركبات الجوية، البرية، والبحرية غير المأهولة، بصورة مستقلة، بالتجمع والاندفاع نحو قوات العدو البرية، وطائراته، وسفنه، ثم تضع خطتها، بصورة مشتركة، لمهاجمته والالتحام معه -وتدميره بالطبع- من دون تدخل بشري مباشر.

ستزداد قدرة الطائرات بدون طيار على المراقبة فاعلية، حيث تتحدث القوات الجوية الأمريكية عن مشروعاتها الحالية للطائرات بدون طيار قائلة إن «الأنظمة الجديدة غير المأهولة للطيران «فولتشر» والطائرات «آيسيس» سيكون بإمكانها أن تبقى في الجو لسنوات، وإن طائرات كبيرة تحمل رادارات ضخمة ستوفر مراقبة عالية الدقة بصورة متواصلة». يمكن للمرء أن يتخيل أن تصبح دول بأكملها ضمن ما يشبه «مجالاً للطائرات بدون طيار»، حيث تتم مراقبة الأنشطة العامة كافة، من دون احترام لحدود الدول أو خصوصية الأفراد، بطريقة تفوق ما أمكن للتقنية أن تحققه في أي من الأوقات.

لن يقتصر استخدام تلك الأنظمة الجديدة بالطبع على الخارج. يهدد ما تملكه الطائرات بدون طيار من قدرة على المراقبة، واستخدامها المتزايد من قبل وكالات فرض القانون في الولايات المتحدة، هدد بالقضاء على ما تبقى من حقنا بالخصوصية. تصمم الحساسات في الطائرات بدون طيار لمراقبة أميال من الأراضي. ويغض النظر عن مدى حرص الدولة على تحديد ما تقوم به من مراقبة، فسيظل المرء مهدداً على الدوام بأن تراقب أعينها أنشطته. من يرغب في العيش في بيوت زجاجية حين يمكن للحكومة -المسلحة بالطائرات بدون طيار والحساسات الحرارية التي تبلغ كلفتها مليون دولار- أن ترى كل ما ترغب في رؤيته بالفعل؟

لا تمثّل الطائرات بدون طيار شراً مطلقاً، ويتجسد ما أرمي إليه بحديثي في أنها يمكن أن ترتقي بتقنيات المراقبة، ولكنها تؤدي، في حالتنا هذه، إلى جعل التجسس أكثر شيوعاً في بلدنا والخارج. يمكن للطائرات بدون طيار أن ترتقي بتقنيات الحرب أيضاً، ولكنها تجعل القتل، في سياق ما أشرنا إليه، «أنظف» وأسهل. يعود إلى ذلك السبب في أنه لا ينبغي أن

نثني على الاتكال المتزايد على الطائرات بدون طيار ما دام يهدف إلى القتل والتجسس، بل يتعين أن نواجهه ونتحداه.

يقع العبء الآن بقوة على كاهلنا، نحن الشعب، للدفاع عن حقوقنا، والتصدي لتطبيع دور الطائرات بدون طيار كأداة للجيش وفرض القانون. يتعين أن يكون استخدام الطائرات بدون طيار مقيداً، شفّافاً، وعلنياً على أقل تقدير، حيث لا يعني تشغيل الطائرات التي تطلق الصواريخ عن بعد أنها لا تشن حرباً. لن تسهم قدرتنا على ضبط استخدام المركبات الجوية غير المأهولة -بحيث تستخدم لإنقاذ ضحايا الأعاصير، على سبيل المثال، لا لتنفيذ عمليات قتل خارج إطار القانون- لن تسهم في تحديد مستقبل الحرب والخصوصية الفردية فحسب، بل الكيفية التي نعيش بها معاً كمجتمع دولي إنساني.

شكر

دعوني أشكر أولاً تشارلز دايفيس على ما قدمه من عون كبير في الكتابة والبحث؛ أليسون مكراكن لكونها مساعدة رائعة؛ رافيا زكريا على عملها المتمحور حول الضحايا في باكستان؛ نادرة شيرعلم على عملها التحريري المتأني؛ كيندرا وايت على ما بذلته من جهد كبير في التوثيق؛ ونانسي مانسياز على إسهامها في البحث والتوجيه.

أود أن أشكر بقوة أيضاً أخواتي في كودبينك، اللواتي جعلن هذا العمل قيماً للغاية: الشريكتين في الإدارة جودي إيفانز وراى أبيليا، جوان ستالرد، ساشا غيلزن، فريدة شيرعلم، جانيت فايل، نانسي كريكوريان، ميلاني بتلر، كريستن أسشور، غايل براندايس، وليزا سافج، وزميلاتي في غلوبل إكستشاينج، وبخاصة كيرستن مولر.

ازدادت معارضتي لحرب الطائرات بدون طيار عبر ما لمسته من التزام لدى الناشطين الذين لا يوفون حقهم، على امتداد البلاد، الذين كانوا يحتجون أمام قواعد القوات الجوية ومقار مصنّعي الطائرات بدون طيار لسنوات، بما يشمل كاثي كيلي، نيك ماترن، براين تيرل، جيم هابر، آن رايت، راي ميغفرن، أد كينن، ماري آن غرايدي، جودي بيلو، فيكي روس، ديبرا سويت، الأب لويس فيتالي، الأب جيري زوادا، العمال الكاثوليك، كريتش ١٤ وهانكوك ٣٨، العالم لا يمكنه الانتظار، ومقاومي الحرب.

استمددت الإلهام من أخواتي في كودبينك، اللواتي يتحدثن علانية، بحماسة كبيرة، بالنيابة عن ضحايا الطائرات بدون طيار الذين لم يلتقين بهم قط. أتوجه بالكثير من الشكر إلى توبي بلوم على عملها الرائد، بالإضافة إلى نانسي مانسياز، مارثا هيوبرت، ليزلي آنجيلين، ألينور لفين، ليز هوريكن، سينثيا بايبرماستر، ماري برافو، زاين جوي، كريس نيلسن، كارولين كيترل، شيرلي وباميلا آزغود، زوري ويتيكر، بفرلي مغاين، سوزن ويتكا، ريناى دايفيس، ودايان باد. أود أن أعبر عن امتناني أيضاً، على وجه الخصوص، لكاندس روس، الكاهنة في «الغادس تمبل»، لحسن وفادتها المحتجين في بيت الضيافة بالقرب من قاعدة كريتش للقوات الجوية، كما أود أن أشيد بجين أغيراى لما تقوم به حملتها «لا هكتار إضافيًّا»، من عمل دؤوب وفاعل.

حصلت على معطيات قيمة من العديد من الزملاء، بما يشمل براتاب شاترجي، كلايف ستافرد سميث، جودي ويليامز، بيتر أنسارو، نويل شاركي، مارك غبرد، فران كويغلي، توم باري، بولي ميلر، روزي بلاتزر، وفيانكا لوبيز. أتوجه بشكر خاص إلى تارا موري في ريبريف، وميرزا شهزاد أكبر على عمله مع ضحايا الطائرات بدون طيار في باكستان، وكريس كول من مدونة درون وارز يو كاى، والناشطين البريطانيين الرائعين الذين أتطلع للعمل معهم.

لو لم ألتق بالصدفة بناشر «كتب أور» جون أوكس لما أتيحت لي الفرصة لتأليف هذا الكتاب. أتوجه له بالشكر، والطاقم الرائع في «أور»، على تشجيعهم إياي.

كما أدين بالعرفان، أخيراً، لشريكي تايغ باري لما يظهره من اهتمام ودعم كبيرين على الدوام، ولابنتيّ آرلن ومايا لمنحي الدافع إلى جعل العالم مكاناً أفضل لهما.

مصادر إضافية

الكتب/ التقارير

Philip Alston, "Report of the Special Rapporteur on extrajudicial, summary or arbitrary executions," United Nations General Assembly, Human Rights Council, Fourteenth Session, May 23, 2010.

Chris Cole Convenient Killing: Armed Drones and the 'Playstation' Mentality. Oxford: The Fellowship of Reconciliation, 2010.

Matt J. Martin and Charles W. Sasser, Predator: The Remotecontrol Air War over Iraq and Afghanistan: A Pilot's Story. Minneapolis, MN: Zenith, 2010.

Mary Ellen O'Connell, "Lawful Use of Combat Drones—Hearing: Rise of the Drones II: Examining the Legality of Unmanned Targeting," Subcommittee on National Security and Foreign Affairs, US Congress, Apr 28, 2010.

Chris Rogers, "CIVIC: Campaign for Innocent Victims in Conflict—REPORT: Pakistan 2010." CIVIC: Campaign for Innocent Victims in Conflict.

P. W. Singer, Wired for War: The Robotics Revolution and Conflict in the Twenty-first Century . New York: Penguin, 2009.

Congressional Budget Office, "Policy Options for Unmanned Aircraft Systems," Publication 4083, Washington DC, June 2011.

United Kingdom Ministry of Defence, "The UK Approach to Unmanned Aircraft Systems," Joint Doctrine, 2011.

"Does Unmanned Make Unacceptable? Exploring the Debate on using Drones and Robots in Warfare," IKV Pax Christi, May 2011.

المنظمات

American Civil Liberties Union: www.aclu.org

Amnesty International: www.amnesty.org

Bureau of Investigative Journalism: www.thebureau investigates.com

Campaign for Innocent Victims in Conflict (CIVIC): www. civicworldwide.org

CODEPINK: www.codepink.org

Catholic Worker Movement: www.catholicworker.org

Center for Constitutional Rights: ccrjustice.org

Drone Campaign Network: www.dronecampaignnetwork.org.uk

Drone Wars UK: dronewarsuk.wordpress.com

Fellowship of Reconciliation, England: www.for.org.uk

Global Network Against Weapons and Nuclear Power in Space: www. space4peace.org

Human Rights Watch: www.hrw.org

International Committee for Robot Arms Control: www.icrac.co/uk

Nevada County Peace Center: www.ncpeace.org

Nuclear Resister: www.nuclearresister.org

Reprieve: www.reprieve.org.uk

The Nevada Desert Experience: www.nevadadesert

experience.org

United Against the Drones: Unitedagainstthedrones.wordpress.com

Upstate NY Coalition to End the Drones: upstatedroneaction.org

Voices for Creative Nonviolence: vcnv.org

Women in Black: www.womeninblack.org

World Can't Wait: www.worldcantwait.net

Know Drones: www.knowdrones.org

المواقع الإلكترونية

Antiwar.com

wired.com/dangerroom, especially Noah Shachtman and Spencer Ackerman

Association for Unmanned Vehicle Systems International (AUVSI), www.auvsi.org

Lobbying Spending Database, OpenSecrets.org

Smithsonian Air and Space Museum drone exhibit: www.nasm.si.edu/exhibitions/gal104/uav.cfm

Congressional Unmanned Systems Caucus: unmannedsystemscaucus.mckeon.house.gov

TomDispatch , especially Nick Turse and Tom Engelhardt

الأفلام/ مقاطع الفيديو

Remote Control War , available on DVD and Netflix: www.amazon.com/Remote-Control-Na r rated-

Anne-Marie-MacDonald/dp/B004RV70JW

"America's use for domestic drones" Al Jazeera English, Dec 7, 2011, www.youtube.com/-
watch?v=QTLtNgSRXyc

"The Real Casualties of the Drone War," RT TV, December14, 2011, www.youtube.com/-watch?v=x0aw4ym6l6c

Robot Wars, Faultlines , Al Jazeera, www.youtube.com/watch?v=TyJoJUs14bc

CODEPINK at the AUVSI press conference, www.youtube.com/watch?v=wOcF6g2YlcQ

Stop the Arms Fair 2011—UK Anti Drones Action: www.youtube.com/watch?v=n8NaCgAl27o

With song: www.youtube.com/watch?v=DQF0XOMqcDc

الهوامش

1 Carl Conetta, "Operation Enduring Freedom: Why a Higher Rate of Civilian Bombing Casualties," Project on Defense Alternatives. Commonwealth Institute of Cambridge, MA USA. N.p., n.d.

2 P. W. Singer, Wired for War: Robotics Revolution and Conflict in the21st Century, Penguin Press, 2009, p. 61.

3 Christopher Rogers, "Civilians in Armed Conflict: Civilian Harm and Conflict in Northwest Pakistan," CIVIC, 2010, p. 20.

4 Scott Shane, "U.S. Said to Target Rescuers at Drone Strike Sites," The New York Times, February 5, 2012.

5 Khawar Rizvi, Personal Interview by author, Washington, D.C., May 3, 2010.

6 "Politics is Funny," A Tiny Revolution, May 2, 2010.

7 Rod Powers, "Military Word/Phrase Origins," United States Military Information.

8 Jeremiah Gertler, "U.S. Unmanned Aerial Systems," p.1, Congressional Research Service.

9 Peter Finn, "Rise of the Drone: From Calif. Garage to Multibilliondollar Defense industry," The Washington Post, December 24, 2011.

10 Chris Cole, "Convenient Killing: Armed Drones and the 'Playstation' Mentality," The Fellowship of Reconciliation, England, 2010.

11 Elizabeth Bone, "Unmanned Aerial Vehicles: Background and Issues for Congress," Congressional Research Service, April 25, 2003.

12 Nic Robertson, "How Robot Drones Revolutionized the Face of Warfare," CNN, July 23, 2009.

13 Jeremiah Gertler, "U.S. Unmanned Aerial Systems," Summary, Congressional Research Service, January 3, 2012.

14 "Program Acquisition Costs by Weapon System," Office of the Under Secretary of Defense, February 2011 p. 1-1.

15 "General Atomics MQ-9 Reaper," Wikipedia.

16 Jeremiah Gertler, "U.S. Unmanned Aerial Systems," Congressional Research Service, January 3, 2012 p. 22.

17 David S. Cloud, "Contractors' Role Grows in Drone Missions, Worrying Some in the Military," McClatchy News, December 29, 2011.

18 Elisabeth Bumiller and Thom Shanker, "Microdrones, Some as Small as Bugs, Are Poised to Alter War," The New York Times, June 20, 2011.

19 ibid.

20 Cloud, loc. cit.

21 "Policy Options for Unmanned Aircraft Systems," Publication 4083, Congressional Budget Office, Washington DC, June 2011 p. 31.

22 ibid.

23 Christopher Drew, "Drones Are U.S. Weapons of Choice in Fighting Qaeda," The New York Times, March 16, 2009.

24 Associated Press, "U.S. Deploys Drones Against Somali Pirates," CBS News, October 24, 2009.

25 David Zucchino, "Military Drone Aircraft: Losses in Afghanistan, Iraq," Los Angeles Times, July 6, 2010.

26 "Oops! Keystroke Goof Sets Navy Drone to Self-Destruct," FOX News, July 19, 2011.

27 Joshua Stewart, "Fire Scout report outlines tech glitches," Navy Times, July 2011.

28 Noah Shachtman, "Insurgents Intercept Drone Video in King-Size Security Breach," Wired.com, December 17, 2009.

29 Noah Shachtman, "Exclusive: Computer Virus Hits U.S. Drone Fleet," Wired.com, October 7, 2011.

30 Nic Robertson, "How Robot Drones Revolutionized the Face of Warfare," CNN.com International, July 23, 2009.

31 Chris Woods and Christina Lamb, "Obama terror drones: CIA tactics in Pakistan include targeting rescuers and funerals," Bureau of Investigative Journalism, February 4, 2012.

32 Jane Mayer, "The risks of the C.I.A.'s Predator drones," The New Yorker, October 26, 2009.

33 "UK Faults Self and US for Plane Shootdown," Space War, May 14, 2004.

34 David Zucchino and David S. Cloud, "U.S. deaths in drone strike due to miscommunication, report says," The Los Angeles Times, October 14, 2011.

35 Medea Benjamin, "Did You Hear the Joke About the Predator Drone That Bombed?" CommonDreams, May 5, 2010.

36 Saeed Shah and Peter Beaumont, "US drone strikes in Pakistan claiming many civilian victims, says campaigner," The Guardian, July 17, 2011.

37 Elisabeth Bumiller and Thom Shanker, "Microdrones, Some as Small as Bugs, Are Poised to Alter War," The New York Times, June 20, 2011.

38 "2010 Top 100 Contractors - General Atomics," Washington Technology, Eagle Eye Publisher.

39 W.J. Hennigan, "General Atomics: Drones Create a Buzz in Southern California Aerospace Industry," The Los Angeles Times, September 11, 2010.

40 Zach Rosenburg, "US Air Force orders General Atomics Avenger," Aviation and Aerospace News, Flightglobal.com, December 12, 2011.

41 Jen Dimascio, "New Drones net rosy skies for makers," Politico.com, November 23, 2009.

42 Steve Henn and Robert Brodsky, "'Top Gun' of travel," iWatch News, June 5, 2006.

43 Gopal Ratnam, "General Atomics Wins Approval to Sell First Predator Drones in Middle East," Bloomberg, July 20, 2010.

44 "Lobbying Spending Database - General Atomics," OpenSecrets, 2011.

45 Scott Shane, "Coming Soon - The Drone Arms Race," The New York Times, October 9, 2011.

46 "AeroVironment Receives $16 Million Order for Raven Unmanned Aircraft Systems Contractor Logistics Support," Business Wire, September 8, 2011.

47 "AeroVironment Receives $7.3 Million Order for Puma Unmanned Aircraft System Support Services," Business Wire, October 20, 2011.

48 David Wichner, "Distributed Common Ground System," Raytheon Company.

49 David Wichner, "Raytheon's new Griffin fit for drone," Arizona Daily Star, August 22, 2010.

50 David Wichner, "Raytheon developing drone-fired weapon," StarNet, April 25, 2011.

51 Spencer Ackerman, "Mini-Missile Promises to Shrink the Drone War," Wired.com, December 1, 2011.

52 Rikki Mitchell, "Drones that stay airborne forever," StarNet, February 27, 2011.

53 W.J. Hennigan, "Phantom Ray Test Flight: Boeing's Robotic Jet Phantom Ray Takes Maiden Test Flight," The Los Angeles Times, May 4, 2011.

54 Brian Wingfield, "Drone Wars," Forbes.com, June 1, 2009.

55 1st Lt. Jason Sweeney, "Armed and Dangerous: The Gray Eagle goes lethal," General Atomics, April 9, 2011.

56 "Factsheets: RQ-4 Global Hawk," Official Site of the US Air Force.

57 Christopher Drew, "Costly Drone Is Poised to Replace U-2 Spy Plane," The New York Times, Aug 3, 2011.

58 Steve Zaloga and David Rockwell, "UAV Market Set for 10 Years of Growth," EIJ - Earth Imaging Journal.

59 Christopher Drew, "Costly Drone Is Poised to Replace U-2 Spy Plane," The New York Times, August 3, 2011.

60 W.J. Hennigan, "U.S. may rely on aging U-2 spy planes longer than expected," The Los Angeles Times, January 28, 2012.

61 "Lobbying Spending Database - General Atomics, 2011," OpenSecrets.org.

62 "Lockheed Martin Announces Fourth Quarter 2010 Results," LockheedMartin.com.

63 "Lobbying Spending Database," OpenSecrets.org.

64 "Lockheed Martin," Wikipedia.

65 "HELLFIRE II Missile," LockheedMartin.com.

66 "US to deploy deadlier 'Hellfire Romeo' precision-strike missiles in war against terrorism," Yahoo! India News, October 16, 2011.

67 Amir Khan, "Lockheed Martin Tests Tiny Samarai UAV," Popular Mechanics, August 18, 2011.

68 Stephen Trimble, "REPORT: RQ-170 spied over Osama bin Laden's bed last night," The DEW Line, May 2011.

69 Interview with Mark Gubrud, February 3, 2012.

70 "U.S. military drones that are so small they even look like insects," Daily Mail Reporter, July 12, 2011.

71 "AFRL's new lab focused on micro air vehicles," AviationDayton, May 27, 2010.

72 "U.S. military drones that are so small they even look like insects," Daily Mail Reporter, July 12, 2011.

73 "Our Work," Defense Advanced Research Projects Agency.

74 Tina Casey, "DARPA Looks To The Crowd To Build Miniature Drones," TPM Idea Lab, October 2011.

75 Eric Hagerman, "Coming Soon: An Unblinking 'Gorgon Stare' For Air Force Drones," Popular Science, August 2009.

76 David Axe and Noah Shachtman, "Air Force's 'All-Seeing Eye' Flops Vision Test," Wired.com, January 2011.

77 Steve Zaloga and David Rockwell, "UAV Market Set for 10 Years of Growth," EIJ - Earth Imaging Journal, 2011.

78 Charles Levinson, "Israeli Robots Remake Battlefield," The Wall Street Journal, January 13, 2010.

79 "Israel and the rise of drone warfare,"Neged Neshek נגד נשק, n.d.

80 BBC World News, "Russia 'will buy Israeli drones'," BBC News, April 10, 2009.

81 Reuters, "Russia in talks to buy Israeli-made spy drones for $100m," Haaretz Israeli News, July 12, 2009.

82 "IAI delivers 12 UAVs to Russia in key deal," SpaceDaily.com, January 17, 2011.

83 AFP and Dawn.com, "Israel is leader in drone exports," CN Publications, July 2, 2010.

84 Rajat Pandit, "India lines up Israeli drones in race with Pak," The Times Of India, March 26, 2010.

85 "Say hello to Pakistan's first domestically produced armed drone: The Burraq UCAV," TechLahore, December 4, 2011.

86 Jeremy Page, "China's Drones Raise Eyebrows at Air Show," The Wall Street Journal, November 18, 2010.

87 Nathan Hodge, "U.S. Military Confirms It Shot Down Iranian Drone," Wired.com, March 16, 2009.

88 P.W. Singer, "Will Foreign Drones One Day Attack the U.S.?," The Daily Beast, February 25 2010.

89 W.J. Hennigan, David S. Cloud, and Ken Dilanian, "Drone that crashed in Iran may give away U.S. secrets," The Los Angeles Times, December 6, 2011.

90 Brad Knickerbocker, "US considered missions to destroy RQ-170 Sentinel drone lost in Iran," The Christian Science Monitor, December 7, 2011.

91 Patrick McGroarty, "Two South African Defense Firms Take Aim at Niche Aircraft Market," The Wall Street Journal, September 27, 2011.

92 William Booth, "More Predator Drones Fly U.S.-Mexico Border," Washington Post, December 21, 2011.

93 "Iraqi Drones Not For WMD," CBS News, February 11, 2009.

94 Tom Vanden Brook, "Drones Reshaping Iraq's Battlefields," USA Today, July 6, 2006.

95 Associated Press, "Use of Unmanned Drones Soars in Iraq," MSNBC, January 1, 2008.

96 Christopher Drew, "Drones Are Playing a Growing Role in Afghanistan," The New York Times, February 19, 2010.

97 Gordon Lubold, "As Drones Multiply in Iraq and Afghanistan, So Do Their Uses," The Christian Science Monitor, March 2, 2010.

98 ibid.

99 Tom Vanden Brook, "Drone Attacks Hit High in Iraq," USA Today, April 29, 2008.

100 Eric Schmitt and Michale S. Schmidt, "Iraq is Angered by U.S. Drones Patrolling Its Skies," The New York Times, January 29, 2012.

101 Nick Turse, "America's Secret Empire of Drone Bases," The Nation, October 17, 2011.

102 Greg Miller, "Under Obama, an Emerging Global Apparatus for Drone Killing," The Washington Post, December 27, 2011.

103 Lolita C. Baldor, "Panetta Spills a Little on Secret CIA Drones," Yahoo! News, October 7, 2011.

104 Daniel Benjamin and Steven Simon, The Age of Sacred Terror. Random House, 2002.

105 Jane Mayer, "The Predator War," The New Yorker, October 26, 2009.

106 Marc Ambinder, "The Secret Team That Killed bin Laden," National Journal, May 3, 2011.

107 Gretchen Gavett, "What is the Secretive U.S. "Kill/Capture" Campaign?," PBS: Public Broadcasting Service.

108 Ibid.

109 James Risen and Mark Mazzetti, "C.I.A. Said to Use Outsiders to Put Bombs on Drones," The New York Times, August 20, 2009.

110 Karen DeYoung, "US increases Yemen drone strikes," The Washington Post, September 17, 2011.

111 "Air raid kills Yemeni mediator," Al Jazeera English, May 25, 2010.

112 Bill Roggio, "Yemeni airstrike kills deputy governor, Al Qaeda operative," The Long War Journal, May 25, 2010.

113 CBS/AP, "Al Qaeda's Anwar al-Awlaki killed in Yemen," CBS News, September 30, 2011.

114 Peter Finn and Greg Miller, "Anwar al-Awlaki's family speaks out against his son's death in airstrike," The Washington Post, October 17, 2011.

115 "Wikileaks cable corroborates evidence of US airstrikes in Yemen," Amnesty International, December 1, 2010.

116 Spencer Ackerman, "CIA's Drone Join Shadow War Over Yemen," Wired.com, June 14, 2011.

117 Jim Lobe, "US: Expanding Network of Drone Bases To Hit Somalia, Yemen," IPS Inter Press Service, September 21, 2011.

118 Department of Defense, "News Transcript: Deputy Secretary Wolfowitz Interview with Sam Tannenhaus, Vanity Fair," The Official Home of the Department of Defense, May 9, 2003.

119 Nick Turse, "The Forty-Year Drone War," TomDispatch, January 24, 2010.

120 "Al Dhafra Air Base," GlobalSecurity.org, May 7, 2011.

121 Greg Miller and Craig Whitlock, "U.S. building secret drone bases in Africa, Arabian Peninsula, officials say," The Washington Post, September 20, 2011.

122 "Press Briefing by Press Secretary Jay Carney," The White House, October 28, 2011.

123 Jim Lobe, "US: Expanding Network of Drone Bases To Hit Somalia, Yemen," IPS Inter Press Service, September 21, 2011.

124 "Seychelles: Ocean Look Tops Agenda During Presidential Meeting," The Washington Post, n.d.

125 "U.S. Building Secret Drone Bases in Africa, Arabian Peninsula, Officials Say," The Washington Post, September 20, 2011.

126 "Uganda and Burundi to get US Drones to Fight Islamists," BBC News, June 28, 2011.

127 Spencer Ackerman, "Libya: The Real U.S. Drone War," Wired.com, October 20, 2011.

128 Greg Jaffe, "Fleet of U.S. Drones now Based in Turkey," The Washington Post, November 14, 2011.

129 "The Future of War: Keynote Address at the CSIS Global Security Forum 2011," United States Department of Defense, June 8, 2011.

130 Anshel Pfeffer, "WikiLeaks: IDF uses drones to assassinate Gaza militants," Haaretz Israeli News, February 9, 2011.

131 Scott Wilson, "In Gaza, Lives Shaped by Drones," The Washington Post, December 3, 2011.

132 Chris Cole, "Drone Wars Briefing," January 2012 p. 6.

133 Robert Wall, "Watchkeeper Misses Key Schedule Milestone," Aviation Week, January 11, 2012.

134 Nick Hopkins, "Afghan civilians killed by RAF drone," The Guardian, July 5, 2011.

135 ibid.

136 "Iraq insurgents hack into video feeds from US drones," BBC News, December 17, 2009.

137 "Syrian Downing of Israeli drone Raises Specter of Syrian Scuds," DEBKAfile Exclusive, 2006.

138 "Iranian drone 'shot down in Iraq'," BBC News, March 16, 2009.

139 Dr. Mark T. Maybury, "Remotely Piloted Aircraft," US Air Force, September 27, 2011.

140 William Booth, "More Predator Drones Fly U.S.-Mexico Border," The Washington Post, December 21, 2011.

141 Charlie Savage, "U.S. Drug Enforcement Agency Expands War on Drugs," The New York Times, November 6, 2011.

142 "Membership" Congressional Unmanned Systems Caucus Committee.

143 Alan Levin, "Commercial Drones: A Dogfight at the FAA," Business Week, February 9, 2012.

144 Brian Bennett, "Police Employ Predator Drone Spy Planes on Home Front," The Los Angeles Times, December 10, 2011.

145 "Drone may be coming to Miami-Dade," WSVN 7NEWS Miami/Ft. Lauderdale, January 6, 2011.

146 Tim Elfrink, "MDPD is First Force to Get FAA Clearance to Fly Drones at Crime Scenes," The Miami New Times' Blogs, November 15, 2011.

147 "Miami police could become first to use drones in a U.S. city," TPMMuckraker, January 7, 2011.

148 Stephen Dean, "New Police Drone Near Houston Could Carry Weapons," Click 2 Houston | KPRC Local 2, November 10, 2011.

149 Jay Stanley and Catherine Crump, "Protecting Privacy From Aerial Surveillance," ACLU, December 2011, p 1.

150 Jay Stanley and Catherine Crump, "Protecting Privacy From Aerial Surveillance," ACLU, December 2011, p 11.

151 Glenn Greenwald, "NPR's Domestic Drone Commercial," Salon.com, December 6, 2011.

152 "As The Drone Flies...," The Nader Page, Nader.org, September 26, 2011.

153 CBS/AP, "Mass. Musician Accused of D.C. Terrorist Plot," CBS News, September 28, 2011.

154 Business Wire, "AeroVironment, Inc. - U.S. Army Awards AeroVironment $4.9 Million Contract for Switchblade Agile Munition Systems and Services," AeroVironment, Inc., September 1, 2011.

155 David Zucchino, "Drone Pilot Fights Afghan War from Nevada Base," AZ Central, February 24, 2010.

156 Nick Turse, "America's Secret Empire of Drone Bases," The Huffington Post, October 17, 2011.

157 Thom Shanker and Matt Richtel, "Military Struggles to Harness a Flood of Data," The New York Times, January 17, 2011.

158 ibid.

159 Gareth Porter, "CIA's Push for Drone War Driven by Internal Needs," IPS Inter Press Service, September 5, 2011.

160 United Nations General Assembly - Human Rights Council, "Report of the Special Rapporteur on extrajudicial, summary or arbitrary executions, Philip Alston," Fourteenth Session, May 23, 2010.

161 Christian Caryl, "Predators and Robots at War," The New York Review of Books, September 29, 2011.

162 P.W. Singer, Wired for War: The Robotics Revolution and Conflict in the Twenty-First Century. New York: Penguin Press, 2009, Ch. 3, p. 68.

163 P. W. Singer, Wired for War. New York, 2009, p. 332.

164 Greg Jaffe, "Combat Generation: Drone Operators Climb on Winds of Change in the Air Force," The Washington Post, February 27, 2010.

165 ibid.

166 Elisabeth Bumiller, "Air Force Drone Operators Show High Levels of Stress," The New York Times, December 19, 2011.

167 "Report on Operating Next-Generation Remotely Piloted Aircraft in Irregular Warfare," United States Airforce Scientific Advisory Board, April 2011.

168 Elisabeth Bumiller, "Air Force Drone Operators Show High Levels of Stress," The New York Times, December 19, 2011.

169 Associated Press, "Air Force Makes Push For Drone Operators," CBS News, October 23, 2008.

170 David S. Cloud, "Contractors' role grows in drone missions, worrying some in the military," McClatchy D.C., Dec 29, 2011.

171 Mark Thompson, "Flying Air Force Drones: Pilots No Longer Required," TIME.com, September 18, 2008.

172 Associated Press, "Remote-control Warriors Suffer War Stress," MSNBC, August 7, 2008.

173 Al Jazeera English, "America's use for domestic drones," YouTube, December 7, 2011.

174 Matt J. Martin and Charles W. Sasser, Predator: The Remote-control Air War Over Iraq and Afghanistan: A Pilot's Story. Minneapolis, MN: Zenith Press, 2010 ch. 20, p. 211.

175 "Interview with a Drone Pilot: 'It Is Not a Video Game'," SPIEGEL ONLINE - Nachrichten, March 12, 2010.

176 David S. Cloud, "Afghanistan Predator Drones: Despite High-Tech tools, a Fatal Error," The Los Angeles Times, April 10, 2011.

177 "Drone Pilot Kills Afghani Militants from Nevada Control Centre," YouTube, October 23, 2009.

178 Tom Bowman, "Predator Pilots Engage in Remote Control Combat," NPR, September 4, 2007.

179 Rachel Martin, "Report: High Levels Of 'Burnout' In U.S. Drone Pilots," NPR, December 19, 2011.

180 Elisabeth Bumiller, "Air Force Drone Operators Show High Levels of Stress," The New York Times, December 19, 2011.

181 Sally B. Donnelly, "Long-Distance Warriors," TIME.com, December 4, 2005.

182 Megan McCloskey, "Two Worlds of a Drone Pilot," Military.com, October 27, 2009.

183 "Interview with a Drone Pilot: 'It Is Not a Video Game'," Spiegel Online, Nachrichten, March 12, 2010.

184 Sally B. Donnelly, "Long-Distance Warriors," TIME.com, Dec 4, 2005.

185 Matt J. Martin and Charles W. Sasser, Predator: The Remote-Control Air War Over Iraq and Afghanistan: A Pilot's Story. Minneapolis, MN: Zenith Press, 2010 ch. 10, p. 112.

186 Thom Shanker and Matt Richtel, "Military Struggles to Harness a Flood of Data," The New York Times, January 17, 2011.

187 Joe Pappalardo, "The Future For UAVs in the U.S. Air Force," Popular Mechanics, February 26, 2010.

188 P.W. Singer, Wired for War: Robotics Revolution and Conflict in the 21st Century. New York: Penguin, 2009, accessed via Google Books.

189 Peter Finn, "U.S. Moves Towards Robotic Warfare," The Fiscal Times, September 20, 2011.

190 Alex Rodriguez and David Zucchino, "U.S. Drone Attacks in Pakistan get Mixed Response," The Los Angeles Times, May 2, 2010.

191 "Drones Are Successful Tool in War on Terror," The Wall Street Journal, January 9, 2010.

192 Chris Woods, "Number of CIA Drone Strikes in Pakistan Hits 300," TBIJ, Oct 14, 2011.

193 Scott Shane, "C.I.A. Claim of No Civilian Deaths From Drones Is Disputed," The New York Times, August 11, 2011.

194 "The Year of the Drone," Counterterrorism Strategy Initiative, NewAmerica.net.

195 Chris Woods, "Number of CIA Drone Strikes in Pakistan Hits 300," TBIJ, October 14, 2011.

196 Saeed Shah and Peter Beaumont, "US Drone Strikes in Pakistan Claiming Many Civilian Victims, says Campaigner," The Guardian, July 17, 2011.

197 Pir Zubair Shah, Sabrina Tavernise and Mark Mazzetti, "Taliban Leader in Pakistan Is Reportedly Killed," The New York Times, August 8, 2009.

198 Jane Mayer, "The Risks of the C.I.A.'s Predator Drones," The New Yorker, October 26, 2009.

199 Carlotta Gall, "Pakistani Militant Chief Is Reported Dead," The New York Times, June 4, 2011.

200 Salman Masood and David E. Sanger, "Standoff on Pakistan Naval Base Ends," The New York Times, May 24, 2011.

201 Story provided by lawyer Shahzad Akbar, January 29, 2012.

202 Legal Notice served on behalf of Karim Khan to US Consulate in Islamabad by Mirza and Associates, provided by Karim Khan's legal counsel.

203 Declan Walsh, "Pakistani Journalist Sues CIA for Drone Strike That Killed Relatives," The Guardian, December 13, 2010.

204 ibid.

205 Ansar Abbasi, "Local CIA Chief May Face Case Against Drone Attacks," News International, December 1, 2010.

206 Pratap Chatterjee, "Bureau Reporter Meets 16-year-old Three Days Before US Drone Kills Him," TBIJ, Nov 4, 2011.

207 Ibid.

208 Clive Stafford Smith, "In Pakistan, Drones Kill Our Innocent Allies," The New York Times, November 4, 2011.

209 Nick Schifrin, "Tariq Khan Killed by CIA Drone," ABC News, December 30, 2011.

210 Interview with Pratap Chatterjee, January 16, 2012.

211 Adam Entous, Siobhan Gorman and Julian E. Barnes, "U.S. Tightens Drone Rules for Its Pakistan Attacks," The Wall Street Journal, November 4, 2011.

212 Alex Rodriguez, "Pakistan Death squads Go After Informants to U.S. Drone Program," The Los Angeles Times, December 28, 2011.

213 Ibid.

214 Jane Perlez, "Karachi Turns Deadly Amid Pakistan's Rivalries," The New York Times, November 19, 2010.

215 Greg Miller, "Al-Qaeda Targets Dwindle as Group Shrinks," The Washington Post, November 22, 2011.

216 Shatha Al-Harazi, "Yemenis Question the Killing of 16-year-old Al-Awlaki's Son," Yemen Times, October 19, 2011.

217 "Drones shape life in Gaza," The Washington Post, December 3, 2011.

218 "Precisely Wrong: Gaza Civilians Killed by Israeli Drone-Launched Missiles," Human Rights Watch, June 2009.

219 Yotam Feldman and Uri Blau, "Consent and Advise," Haaretz, January 29, 2009.

220 Tara Mckelevey, "Inside the Killing Machine," The Daily Beast, February 13, 2011.

221 Jane Mayer, "The Predator War," The New Yorker, February 26, 2009.

222 Harold Hongju Koh, "The Obama Administration and International Law," U.S. Department of State, March 25, 2010.

223 Hunter Miller, "British-American Diplomacy: The Caroline Case," Avalon Project - Yale Law School.

224 Oliver Burkeman and Julian Borger, "War critics astonished as US hawk admits invasion was illegal," The Guardian, November 20, 2003.

225 Declan Walsh, "US extends drone strikes to Somalia," The Guardian, June 30, 2011.

226 Greg Miller, "Under Obama, an Emerging Global Apparatus for Drone Killing," The Washington Post, December 27, 2011.

227 "The Laws of War," Human Rights Investigations, Last updated: Apr 30, 2011.

228 "Court Dismisses Targeted Killing Case On Procedural Grounds Without Addressing Merits," ACLU Press Release, December 7, 2010.

229 Daphne Eviatar, "Pressure Mounts on Obama Administration to Release Legal Justification for al-Awlaki Killing," The Huffington Post, October 6, 2011.

230 Noah Feldman, "Obama Team's Al-Awlaki Memo Furthered Bush Legacy," Bloomberg, October 17, 2011.

231 Megan Mitchell, "Osama Bin Laden Won't Be Brought in Alive," U.S. Congressman John Culberson: 7th District of Texas, March 16, 2010.

232 Josh Gerstein, "Osama bin Laden Won't be Brought in Alive," POLITICO.com, March 16, 2010.

233 Yochi J. Dreazen, Aamer Madhani and Marc Ambinder, "For Obama, Killing - Not Capturing – bin Laden Was Goal," NationalJournal. com, May 4, 2011.

234 Human Rights Council, "Report of the Special Rapporteur on extrajudicial, summary or arbitrary executions, Philip Alston," United Nations General Assembly - Fourteenth Session, May 23, 2010.

235 Mary Ellen O'Connell, "Lawful Use of Combat Drones - Hearing: Rise of the Drones II: Examining the Legality of Unmanned Targeting," Subcommittee on National Security and Foreign Affairs, Congress of the United States: House of Representatives, April 28, 2010.

236 "ACLU Letter to President Obama," American Civil Liberties Union, April 28, 2010.

237 Scott Shane, "Leaked Cables Offer Raw Look at U.S. Diplomacy," The New York Times, December 28, 2011.

238 Delcan Walsh, "WikiLeaks cables: US and Pakistan play down impact of 'mischief'," The Guardian, December 1, 2010.

239 "Pakistan Says U.S. Drones in its Air Space Will be Shot Down," MSNBC, December 10, 2011.

240 Gary Solis, "CIA Drone Attacks Produce America's Own Unlawful Combatants," The Washington Post, March 11, 2011.

241 James Risen and Mark Mazzetti, "NY Times Advertisement," NY Times Advertisement, August 21, 2009.

242 David S. Cloud, "Contractors' Role Grows in Drone Missions, Worrying Some in the Military," The New York Times, December 29, 2011.

243 Ibid.

244 "UN human rights expert challenges 'targeted killing' policies," Office of the High Commissioner for Human Rights, October 20, 2011.

245 "Q & A: US Targeted Killings and International Law," Human Rights Watch, December 19, 2011.

246 Charles Davis, "U.S./CUBA: Justice Not So Blind in Politically Charged Cases," IPS Inter Press Service, January 29, 2008.

247 "Collateral damage," Wikipedia.

248 David Rohde, "The Drone War," Reuters Magazine, January 17, 2012.

249 Washington Post-ABC News Poll, The Washington Post, February 8, 2012.

250 P.W. Singer, "Wired for War," Wilson Quarterly, Winter 2009.

251 Teri Schultz, "Meet the Pilots who Fly America's Drones," GlobalPost, December 16, 2011.

252 "No-fly zone" Wikipedia.

253 Barack Obama, "Letter from the President on the War Powers Resolution," The White House, June 15, 2011.

254 "United States Activities in Libya," Foreign Policy Files, June 15, 2011.

255 C. J. Chivers and Eric Schmitt, "Scores of Unintended Casualties in NATO War in Libya," The New York Times, December 18, 2011.

256 Joshua Foust, "Unaccountable Killing Machines: The True Cost of U.S. Drones," The Atlantic, December 30, 2011.

257 United Kingdom Ministry of Defence, "The UK Approach to Unmanned Aircraft Systems," Joint Doctrine Note 2/11, Section 5–9.

258 Jane Mayer, "The Predator War," The New Yorker, October 26, 2009.

259 Deputy Foreign Minister Ahmed Yusef, interview by author, Gaza, June 2, 2009.

260 "Remote-Control Warfare," The Christian Century, May 2005.

261 Paul F.M. Zahl, Daniel M. Bell Jr. and Brian Stiltner, "Drones: Is It Wrong to Kill by Remote Control?" ChristianityToday.com, August 2011.

262 Ben Austen, "The Terminator Scenario: Are We Giving Our Military Machines Too Much Power?" Popular Science, December 2010.

263 Peter Finn, "A Future for Drones: Automated Killing," The Washington Post, September 15, 2011.

264 Noel Sharkey, "Automated warfare: Lessons Learned From the Drones," Journal of Law, Information and Science, August 11, 2011.

265 Lt. Col. Dave Grossman, "Hope on the Battlefield," Greater Good, Summer 2007.

266 Rev. John Dear, "A Peace Movement Victory in Court," Common Dreams, September 18, 2010.

267 Ibid.

268 Kathy Kelly, "The Predators: Where is Your Democracy?" Voices for Creative Nonviolence, May 9, 2011.

269 Rachel Stern, "Ithaca Group Walking to Syracuse to Protest US Drone Missiles," Voices for Creative Nonviolence, April 2011.

270 Andy Beckett, "Protest and Survive: The Greenham Veteran who Refuses to go Away," The Guardian, November 17, 2011.

271 "Piňon Canyon Expansion Parcel Map," Grassland Trust and Not 1 More Acre.

272 Chris Hellman, "Press Room," National Priorities Project, February 14, 2011.

273 "Integrated Solutions News," The Sacramento Bee.

274 "James Hill News," The Sacramento Bee.

275 CCR and the ACLU v. OFAC & Al-Aulaqi v. Obama, Center for Constitutional Rights.

276 Michael Ratner, "The Extrajudicial Drone Murder of US Citizen Anwar al-Awlaki," AlterNet, October 2, 2011.

277 "Who Is Flying Unmanned Aircraft in the U.S.?," Electronic Frontier Foundation, January 10, 2010.

278 "Q & A: US Targeted Killings and International Law," Human Rights Watch, December 19, 2011.

279 Mary Ellen O'Connell, "Lawful Use of Combat Drones," Hearing: Rise of the Drones II: Examining the Legality of Unmanned Targeting from Subcommittee on National Security and Foreign Affairs, Washington, D.C., April 28, 2010.

280 "Defense Department Does Not Compile Total Number Of Civilians Killed In Drone Attacks," American Civil Liberties Union, March 22, 2011.

281 Chris Rogers, "REPORT: Pakistan 2010," CIVIC: Campaign for Innocent Victims in Conflict, October 2010.

282 Maria Keenan, "PAKISTAN: Compensation Promised to Civilian Drone Victims," CIVIC: Campaign for Innocent Victims in Conflict, March 28, 2011.

283 David Hookes, "Armed Drones: How Remote-Controlled, High-Tech Weapons are Used Against the Poor," Scientists for Global Responsibility, Winter 2011.

284 Chris Cole, "Convenient Killing: Armed Drones and the 'Playstation' Mentality," The Fellowship of Reconciliation, England, 2010.

285 "Current campaign - Drone Wars," Fellowship of Reconciliation, England.

286 Paul McGowan, Interview by Alli McCracken, Online, December 7, 2011.

287 Jim Wright, Interview by Alli McCracken, Online, December 5, 2011.

288 "ICRAC," ICRAC - International Committee for Robot Arms Control.

289 "ICBL - International Campaign to Ban Landmines," ICBL.

290 "ICBL - International Campaign to Ban Landmines, ICBL.

291 Ibid.

292 Ibid.

293 Jeff Hawkins, Personal Interview by Author, Washington, D.C., November 15, 2011.

294 Peter Asaro, personal website.

295 Nick Mottern, Personal Interview by Author, Washington, D.C., January 4, 2012.

296 Tara Mckelvery, "Inside the Killing Machine," Newsweek, February 13, 2011.

297 Ibid.

298 Noah Shachtman, "CIA Chief: Drones 'Only Game in Town' for Stopping Al Qaeda," Wired, May 19, 2009.

299 David Kilcullen and Andrew McDonald Exum, "Op-Ed Contributors-Death From Above, Outrage Down Below," The New York Times, May 17, 2009.

300 David Rohde, "Held by the Taliban - A Times Reporter's Account. A Five-Part Series," The New York Times, October 18, 2009.

301 Karen DeYoung and Karin Brulliard, "U.S. Breach with Pakistan Shows Imbalance Between Diplomatic Security Goals," The Washington Post, December 4, 2011.

302 William Astore, "Fighting 1 Percent Wars," TomDispatch.com, December 8, 2011.

303 Seth Jones and Martin Libicki, How Terrorist Groups End: Lessons for Countering Al Qaida. Rand Publishing, 2008.

304 The New York Times, June 6, 2011.

305 Andrew Stobo Sniderman and Mark Harris, "Drones for Human Rights," The New York Times, January 30, 2012.

مطبعة كركي
قريطم ـ بيروت ـ تلفاكس: 862500 1 961+
E-mail: print@karaky.com